

المعتمد بن عباد

بقلم
علي أدهم

وزارة الثقافة
والإرشاد القومي
مركز البحوث الثقافية

المُعْتَمَدُ بْنُ عَبَّادٍ

أعلام العرب

٢

المُعْتَمَدُ بْنُ عَكْبَازٍ

بقلم
على أدهم

الجمهورية العربية المتحدة
وزارة الثقافة والإرشاد القومي
الإدارة العامة للثقافة

مقدمة

فى أصيل القرن الرابع الهجرى اتهمت السيطرة التى فرضها الرجل الفذ العجيب الشأن ، المنصور بن أبى عامر ، على الخلافة الأموية بالأندلس بمصرع ابنه عبد الرحمن ، الشاب الطائش ، القليل البصر بالعواقب . فقد أقدم على ما أحجم عنه أبوء العظيم ، وحمل الخليفة المستضعف هشاما الثانى على أن يتنازل له عن ولاية العهد ، وأفضى ذلك الى الثورة به ، وقتله ، وسقوط الأسرة العامرية ، ولكن بقيت الخلافة الأموية بعد ذلك مهیضة الجناح ، مسلوبة القوة ، ضائعة الهيبة ، وكان ذلك مدعاة لاثارة المطامع ، وانطلاق النزعات الجامحة ، وتحريك الأحقاد والحزازات ، وتهيئة الفرصة لذوى الطبائع الطموحة ، والنفوس المتلهفة على طلب المجد والقوة والسلطان .. فتكاثرت الأحداث الجليلة ، وتلاحقت الفتن المبيرة ، وتوالى على الخلافة الأموية فى خلال الربع الأول من القرن الخامس الهجرى طائفة من الخلفاء المهازىل ، كان أكثرهم من الرجال الذين تنقصهم الحكمة ، وسداد الرأى ، وحسن السياسة ، والقدرة على تعمق فهم الموقف الذى واجههم ، ومعالجته بالطريقة الملائمة لطبيعة مشكلاته . وكان من هؤلاء الخلفاء الفاتك المغامر الذى لا يصلح للملك ، والجاهل الساقط الهمة ، الفائل الرأى ، العامى النفس ،

والقليل التجربة والحنكة ، الضعيف الشخصية ، الواهن العزم .
ولم يتح للخلافة الأموية الأندلسية في تلك الظروف العصيبة ،
والأزمات المستحكمة ، رجل من طراز عبد الرحمن الداخل أو
عبد الرحمن الناصر ليرأب الصدع ، ويجمع الشمل المبدد ،
ويقلل الخلافة عثرتها ، وينهض بها من كبوتها ، ويستدرك أخطاء
من سبقوه فيرد عليها سلطانها الضائع ، ومجدها السالف .
وظهرت في ذلك الوقت بالأندلس أسرة تنتمي الى العلويين .
وهي أسرة بنى حمود ، وقد تقلد بعض أفرادها الخلافة ، ولكن
لم يظهر فيهم كذلك رجل يرتفع الى مستوى الموقف ، ويقوى
على تناول مشكلاته ، وتفريج أزماته . وجرب أهل قرطبة حكم
بنى حمود ، ولكن هذه الأسرة كانت توالى البربر ، وتعتمد
عليهم ، فسئم أهل قرطبة حكمها ، وأجمعوا أمرهم على اعطاء
بقايا الأمويين الفرصة الأخيرة ، فردوا اليهم الخلافة ، فعجزوا
عن حسم الفوضى وضبط الأمور . وفي شهر ذى القعدة سنة
٤٢٢ خلع الخليفة هشام المعتد آخر الخلفاء الأمويين بالأندلس ،
وهو عاكف على شرابه ونسائه ، وطرده من قرطبة ، واجتمع رأى
الناس جميعا على التخلص جملة من بنى أمية ، وابطال رسم
الخلافة ، وابتدأ بذلك العهد المعروف في تاريخ الأندلس باسم
عهد ملوك الطوائف ، وقد امتد هذا العهد حتى سنة ٤٨٤
هجرية حينما قضى يوسف بن تاشفين أمير المرابطين على حكم
ملوك الطوائف وبسط سلطان المرابطين على الأندلس .

والواقع أن نجاح أى حاكم سياسى قدير فى الأندلس كان يتوقف على قدرته وتوفيقه فى الملاءمة بين العناصر الهامة التى كان يتكون منها غالبية أهل الأندلس ، وهى العرب والبربر والصقالبة والمستعربون من نصارى اسبانيا ، ولكن خلفاء الفترة الأخيرة من عهد الخلافة كانوا أعجز من أن يستطيعوا ذلك ، فبعضهم كان يعتمد على تأييد البربر ، ويشير بذلك حفيظة العرب والصقالبة ، وبعضهم الآخر كان يحاول أن يأخذ جانب الأرسطراطية العربية ويتعرض بذلك لنقمة البربر وتأمرهم عليه ، ولم يكن التوفيق بين هذه العناصر المختلفة المتنافسة من الأمور الهينة ، وكان الموقف يتطلب سياسيا عبقريا من طراز نادر لكى يستطيع التوفيق بين هذه العناصر وتسخيرها لتحقيق أهدافه وبلوغ غاياته .

ولما انقطعت الدولة الأموية ، وانتثر سلك الخلافة ، وقامت الطوائف بعد اقراض الخلائف ، اشتد التنافس بين العناصر المختلفة ، وانتزى الأمراء والرؤساء من البربر والعرب والموالى الصقالبة بالجهات المختلفة ، فاستأثر البربر بالنفوذ فى الجزء الجنوبى من شبه الجزيرة الاسبانية ، وساد الصقالبة فى القسم الشرقى ، وذهب الجزء الباقى فى الوسط والغرب الى أيدي بعض الأسر القديمة التى سلمت من ضربات الناصر والمنصور بن أبى عامر وبعض الأسر الأخرى الطريفة المجد المحدثثة النعمة ، فكان هناك بنو حمود الأدارسة فى مالقة والجزيرة الخضراء ، وبنو زيرى البربر فى غرناطة ، وبنو هود فى سرقسطة ، وبنو

ذى النون فى طليطلة ، وبنو الأفطس فى بَطْنَلْيُوس ، وبنو
جهور فى قرطبة ، وبنو عباد ملوك اشبيلية ، وأشهر ملوك
الطوائف قاطبة وأسيرهم ذكراً وألمعهم تاريخاً هو محمد
أبو القاسم الذى اتخذ لنفسه لقب المعتمد على الله تشبهاً بخلفاء
بنى العباس .

وكان المعتمد شاعراً أصيلاً ، مرهف الحس ، مشرق
الديباجة ، لبس التاج ، واقتعد ذروة الملك ، وحفلت كتب
الأدب والتاريخ والسير بلمع أخباره وأحوال دولته ، وشعره
والمأساة التى ختمت بها حياته ، وقد كان الشعراء سمار ندوته ،
وأركان دولته ، ورجال حاشيته المقربين ، وأهل وده الأدنين ،
وقد فتن به مؤرخو الأندلس حتى قال فيه المراكشى صاحب
المعجب (١) « وفى الجملة فلا أعلم خصلة تحمد فى رجل الا وقد
وهبه الله منها أوفر قسم ، وضرب له فيها بأوفى سهم ، وإذا
عدت حسنات الأندلس من لدن فتحها الى هذا الوقت فالمعتمد
هذا أحدها بل أكبرها » .

وقد لوحظ أن أكثر الأشعار التى تجود بها قريحة الملوك
— اذا استثنينا الملكين الشاعرين الكبيرين : الملك الضليل امرأ
القيس والخليفة الذى لم يمكث فى الخلافة سوى يوم واحد
وأدركته — كما يقولون — حرفة الأدب فخلع وقتل وهو

(١) المعجب فى تلخيص أخبار المغرب صفحة ١٠١ (طبع مطبعة الاستقامة
بالقاهرة وضبط وتصحيح الأستاذين محمد سعيد العريان ومحمد العربى العلمى) .

عبد الله بن المعتز - أقول لوحظ أنها ليست من النسق العالى
فى الشعر ، ويعوزها فى الأعم الأغلب احكام السبك وشدة
الأسر . وللملوك عذرهم ، فقد كان عندهم من الأعباء الجسام ،
وسياسة الملك ، وتدير أمور الرعية ، ما يصددهم عن التفرغ
لاحكام القوافى ، وتجويد الشعر ، وقد بعث ذلك الشاعر
الأديب^(١) آبا على البصير على أن يقول فى مدحه الفتح بن خاقان
وزير الخليفة المتوكل :

سمعنا بأشعار الملوك فكلها

إذا عض متنيه الثقاف تأودا

سوى مارأينا لامرئ القيس اننا

نراه إذا لم يشعر الفتح أوحدا

ولكنى أرى أن شعر المعتد يسو على ذلك ، فهو لا يتأود
إذا غمزه الثقاف أو عض متنيه ، بل يظل سويا قويا ، ممتعا
مؤثرا ، يمتاز بالعدوبة والمائية ، وصدق التجربة ورهافة الحس ،
وقد وصف لنا فيه المعتمد صورا شتى من حياته فى نعيمها
وبؤسها ، ولو ضاعت أخبار المعتمد ونسيت سيرته وبقي ديوان
شعره لكان الى حد كبير كافيا فى الدلالة على شخصيته
والاعراب عن سماحة نفسه ، وسجاجة خلقه ، وفرط كرمه
وأريحيته ، وحبه للجمال ، ورهافة حسه ، وأسلوب حياته ،
ونمط تفكيره ، فهو سجل أمين للكثير من أخباره وحوادث

(١) الجزء الاول من زهر الآداب للحصرى صفحة ٣٨٢ (طبع دار احياء الكتب

العربية وتحقيق الاستاذ البجاوى) .

حياته ، وترجمة ذاتية ممتازة ، بارعة التصوير ، بليغة الأداء ،
ونستطيع أن نتبين من خلاله أن الرجل كان ثمة ثقافة ناضجة ،
وسليل حضارة متألفة .

ولم يكن العصر الذى عاش فيه المعتمد من العصور
السعيدة فى التاريخ ، وإنما كان عصرًا حافلًا بالأحداث الفاجعة
والنكبات الصاعدة ، وكانت الدول والدويلات الإسلامية فى
الأندلس معرضة للأخطار الماحقة ، وكان أمراء هذا العصر من
الطراز الثائر على التقاليد ، الخارج على كل سلطة ، الحريص
على إثبات شخصيته ، وفرض ارادته ، وتحقيق مطامعه ، فلا
تصدّه عقيدة ، ولا يقف فى طريقه مبدأ . وكان نقض المواثيق
المبرمة ، ونكث العهود المعطاة من المسائل العادية المألوفة فى
ذلك العهد ، وقد روى لنا ابن بسام فى الذخيرة قصة نقلها عن
المؤرخ الأندلسى الكبير ابن حبان عن اسماعيل بن ذى النون
صاحب طليطلة وأحد ملوك الطوائف البارزين ، فقد قال ابن حبان
وهو يتحدث عن اسماعيل المذكور : ^(١) « ومن أشهر حكاياته
فى ذلك ما أخبر عنه أبو العباس السكّرى الاسكندرانى -
رجل متمتع بالحديث طيب المجالسة - وحضر مجلس ابن حمّود
بمالقة ، فسأله اسماعيل بن ذى النون عن مجلسه معه ، فأثنى
عليه ، فقال له اسماعيل « أثنى على أدعياء ؟ فعل الله بهم
وصنع ! » فبهت الاسكندرانى ، وقال : « معذرة اليك أيّدك

(١) القسم الرابع - المجلد الاول من كتاب الذخيرة لابن بسام صفحة ١١١

الله ، فاني جهلت رأيك في هذا الرجل مع أني أنزمت نفسي ألا
أذم ذا سلطان البتة ، وأنت غير منازع في أئمتك المروانية ، وهم
أهل ذلك منك ، أقاديم الملوك ، وذوو العدل والسياسة .
ومضى الاسكندراني في اطرائهم ظنا منه أنه يسره ، اذ كان
يقول بدعوتهم في ذلك الوقت ، فقطع عليه ابن ذى النون بأسوأ
من قطعه على الهاشميين ، وانحنى على ذم بنى أمية فلم يبق ،
ووصل كلامه بأن قال : « توارثوا هذه الامارة مخرقة وضعتها
قريش لاستعباد الناس ، والناس لأب وأم ، والفخار باطل ،
أحقهم بالملك من استقل به ، والله ما أولى غير نفسي ، ولا أقوم
الا بسلطاني ، ولو نازعنيه فلان وفلان — وذكر السلف الصالح
الذين كرّم الله ذكرهم — لضربتهم دونه بسيفي ما استمسك
بيدي » فقام عنه الاسكندراني مبهوراً وأفشاه في غير أرضه ،
وأخباره في مثل ذلك كثيرة » وهو هنا لا يتحدث عن توفر
شروط الامامة وانما يجعل من حق كل فرد المطالبة بها اذا
واتته الظروف وتوفرت له القوة .

وهكذا كان من سمات هذا العصر أن كل أمير كان يجعل
ارادته القانون الذي يرجع اليه ، وكان كل أمير يتربص بجيرانه
من الأمراء الدوائر ، ويتحين الفرص للاتقضاض عليهم وازالة
ملكهم أو لاقتطاع جانب من أملاكهم وضمها الى أملاكه ، ولا
يرى بأسا في ذلك من الالتجاء الى الخديعة والدس ومعاقدة
العدو الرابض للايقاع بالأمراء جميعهم .

وأكثر أمراء هذا العصر كانت تلهيهم توافه الأمور وصغیراتها

عن الأمور الجسم وتصرفهم أهواؤهم ونزواتهم عن مراقبة
الحوادث ، والتأهب للقائها ، ومحاولة علاج الموقف الضئك ،
واصلاح الأحوال السيئة ، والتعاون فى ذلك مع جيرانه وأضرابه
من الملوك والأمراء . وقد ذكر لنا ابن بسام فى الذخيرة القصة
التالية عن اسماعيل بن ذى النون السابق ذكره ، وقد رواها
عنه وزيره أبو المظفر بن مثنى ، وقد رأيت اثباتها هنا لوصف
الحالة النفسية التى كانت غالبية على هؤلاء الملوك والأمراء ، ولم
يكن ابن ذى النون أسوأهم حالاً ، وإنما كان مثلهم فى التهاون
والخلاف وقصر النظر ، قال ابن بسام : ^(١) « أخبرت عن أبى المظفر
ابن المثنى - وكان قد اتفق أثناء اشتغال المأمون ببناء مجلسه
الكبير فى طليطلة أن تأخر الصانع الذى تولى رصف بدائعه ،
واحكام مصانعه ، عن انجاز البناء فى الميعاد المحدد قبل اطلال
العيد - وحدث فى هذه المدة أن ضربت خيل الطاغية فردلند
على بلاد المظفر بن الأفطس ، ووطئتها وطأة محت رسومها ،
واستباح حريمها ، واجتاحت حديثها وقديمها ، وأنست ما كان
قبلها من جب الذروة ، وانصداع المروة ، وأياست من البقاء ،
وآذنت بشمول البلاء ، وكان الوزير ابن المثنى يومئذ بمنزله
بين الوجوم والاطراق ، وعلى نهاية الحذر والاشفاق ، اذ وردت
رسل المأمون عنه تترى ، وهجمت عليه زمرا بعد أخرى ،
فدخل عليه فوجده قد استشاط حنقا حتى كاد يتميز شققا ،

(١) صفحة ١١٤ من كتاب الذخيرة لابن بسام (القسم الرابع - المجلد الاول) .

فظن أن ذلك الضجر لما كان ورد به الخبر من ضرب الخيل على بلد المظفر ، واخفار الذمم ، وزلة القدم ، وانتهاك الحرم ، فطفق ابن المثنى يسطه ويقبضه ، تارة يسليه وتارة يحرضه ، وطوراً يقول له فيك الخلف مما فات ، ومرة يقول له قد آن لك أن تنكر على الطاغية هذا الاقتيات ، فما فهم منحى ابن مثنى منه ، وأعرض عنه ، وقال له ألا ترى هذا الصانع الفاعلى الضائع - يعنى عريف بنيانه - صبرت له وأغضيت فما زاد الا تنغيصا للذتى ، واستخفافا بامرئى ، وتصغيرا لشأنى . فأخذ الرجل يهون عليه الأمر وخرج لا يدرى أيعجب من اغترار ابن ذى النون وجهله أم من جرأة الصانع أم من اضطراره الى خدمة مثل هذا الأمير اللاهى ببناء قصره عن مراقبة أحداث زمانه والتفكير فى مصيره ومصير جيرانه .

وفى ذلك العصر وقعت الحادثة التى هزت النفوس فى العالم الاسلامى هزاً عنيفاً ، وصوحت الآمال ، وكادت تقضى عليها ، وهى سقوط طليطلة فى أيدي الاسبان ، وهى أول حاضرة كبيرة فى الأندلس يستولى عليها العدو المتربص ، وقد أعقب ذلك وقوع معركة الزلاقة التى كان لا تتصار مسلمى الأندلس فيها بمساعدة أمير المسلمين يوسف بن تاشفين اللمتونى دوى عظيم فى العالم الاسلامى ، وكان للمعتمد فيها موقف مشرف أظهر فيه بطولة مأثورة .

ويعمد المعتمد قطب الرحى فى أحداث هذا العصر ، فقد اتسعت مملكته حتى شملت اشبيلية وقرطبة قاعدة الخلافة

القديمة والجزيرة الخصراء ومرسية ، ولكنه كان يؤدي الجزية مثل سائر ملوك شبه الجزيرة وأمرائها ، وكان المعتمد على فضله وسمو أدبه وعلو ثقافته وما أوتى من الأريحية والكرم والشجاعة لا يخلو من العيوب التي كانت فاشية في عصره ، وقد كان لا سرافه في الاتفاق على ندمائه وشعرائه وتمادييه في طلب المتعة وقع سييء في نفوس رعيته أوسع المجال لكثير من القيل والقال ، وقد حاولت أن أوضح أعماله ومواقفه ، وأصف أدبه وعلاقته بشعرائه ، وسياسته وخططه ، وأعرض الجوانب المضيئة من حياته ، والجوانب المظلمة ، وكما نوهت بفضائله ومزاياه لم أغمض الطرف عن عيوبه وأخطائه وخطل سياسته في بعض المواقف ، وواجب المؤرخ وكاتب السير في رأي أن يبذل جهده في رسم الأضواء والظلال في أمانة وإخلاص ، وقد لا يستطيع التخلص من ذاتيته وأهوائه وميوله ووجهات نظره ومعاييره الخاصة ، ولكن هناك مع ذلك فارق كبير بين الحب الأعمى والحب البصير ، وما أحسب أن الانسان يستطيع أن يفهم أى شخصية جلّت أو هانت وسمت أو اتضعت الا بقليل أو كثير من الحب والعطف ، فان الكراهة الصماء تسد منافذ الفهم ، وتقيم بيننا وبين الفهم الصادق والتقدير الصحيح حجاباً صفيفاً وسداً منيعاً .

والرجال الذين يصنعون التاريخ ويوجهون الحوادث يتناولون مادة كثيرة التقلت من اليد ، شديدة التمرد على الصانع ، فهي تشمل ارادات البشر وأهواءهم وميولهم

وشهواتهم ، ولا يمكن تشكيلها الا في حدود النزعات الغالبة على العصر ، والاتجاهات السائدة فيه ، والذي يرفض مواجهة هذه النزعات والاتجاهات تكون محاولته عقيمة ومعنى بالاخفاق ، ولكن التوفيق في هذه المحاولة ليس من الأمور الهينة ، وفي بعض الأحيان تكون الظروف القاسية والأحوال العارضة فوق همم الرجال ومن وراء قدرتهم ، وقد كان الموقف في أندلس القرن الخامس الاسلامية شديد التعقيد ، وقد حاول بنو عباد وعلى رأسهم المعتمد توحيد العناصر المتعادية ، والسيطرة على الفرق المتنازعة ، ولكنهم لم تسعفهم القوة اللازمة لذلك ، وكانت الظروف أقوى منهم ، وقد استطاع ذلك المرابطون بقيادة يوسف بن تاشفين لأنهم اعتمدوا على قوة من خارج بلاد الأندلس .

ولابد أن يكون الانسان جامد الحس فاطر العاطفة حتى لا يأسى لمأساة المعتمد ، ولا تهزه أشعاره الباكية ، وأنعامه المشجية ، ويؤثر فيه ما ذاق من الهوان وتعرض له من سوء المعاملة في منفاه هو وزوجته وأولاده ، ولما كان الرجل من أصحاب الأمزجة الفنية فقد استطاع أن يضيف على مأساته الجمال الفني ، ويصورها في شعر أخاذ يصف لنا لواعب نفسه ، وحرقة أساه ، وضيقه بالقيود والكبول ، وقد لقي الرجل من نوازل المحن وخطوب الدهر وتقلب الأيام ما يكاد يسلكه في عداد الشهداء . وقد وفي له اخوانه الشعراء وواسوه في منفاه في عصر قل فيه

الوفاء ، ولم يكن حينذاك يملك لهم نفعا ولا ضرا مما يدل على قوة الأثر الذي تركه في نفوسهم بره وكرمه وأريحيته ونبله .

وإذا كان للمعتمد أخطاء وفيه عيوب فإن له الى جانب ذلك مواقفه المشرفة وصنائعه الجليلة ، وقد كان له من الصفات الانسانية والمروءة والأريحية والمواهب الشعرية والملكات الفنية ما يستوجب التقدير ويستحق الإعجاب ، وأسرة بنى عباد فى اشيلية تذكرنا بأسرة المديتشى فى فلورنسا بايطاليا وما لها من أياد على الفن وتشجيعها لرجالها . وكما كان النزاع بين الأسر الايطالية من أسباب تأخر الوحدة الايطالية فكذلك كان النزاع بين ملوك الطوائف وأمرائها فى الأندلس من أسباب ضياع استقلالها وتغلب الاسبان والبربر عليها .

وتاريخ هذه الفترة حافل بالعبر الصالحة ، والدلالات النافعة ، ويمكن أن تتبين منه أن الدول الاسلامية حينما كانت مجتمعة الشمل موحدة القصد كانت عزيزة الجانب ، مرهوبة السطوة ، يخطب ودها الأصدقاء ، ويتحاشى اثارها الأعداء ، ولكن حينما تصدعت وحدتها ، وتفرق شملها ، واختلفت أهدافها ، وأضلت رجالها المطامع والشهوات ، فأسقطوا المفروضات ، واستباحوا المحرمات ، طمع فيها الطامعون ، وصارت حمى مستباحاً ، ونهباً مقسماً . ومن المأثور عن الفيلسوف الألمانى هيغل قوله المحزن : « الشئ الوحيد الذى تتعلمه من التاريخ أنه ليس هناك أحد يتعلم من التاريخ » . ولكن التاريخ مع ذلك يقدم لنا كنزاً ثميناً من التجارب البشرية ،

ولست أشك في أن الانسانية تسىء الى نفسها اذا أغفلت هذا
الكنز ، ولم تعمل على الاستفادة منه ، والانتفاع بدروسه
وعظاته وعبره ، ولم تكن مأساة المعتمد مقصورة على شخصه ،
وانما كانت مأساة الأندلس الاسلامية برمتها ، وفي اليوم الذي
سقطت فيه دولة بنى عباد ونفى المعتمد من الأندلس طويت
صفحة أيامها السعيدة ، وختم عهدا الزاهر ، ولعل هذا هو
سبب الشعور الخفى الذى جعل مؤرخى الأندلس وأدباءها
وكتابها يحنثون الى ذكرى المعتمد ، قال المقرئ صاحب النفع
معتذرا عن استكثاره من أخبار المعتمد ^(١) . « وقد جمع بنا
القلم فى ترجمة المعتمد بن عباد بعض جموح ، وما ذاك الا لما
علمنا أن نفوس الأدباء الى أخباره رحمه الله تعالى شديدة
الطموح ، وقد جعل الله تعالى له كما قال ابن الأثير فى « الحلة
السيراء » رقة فى القلوب وخصوصا بالمغرب فان أخباره وأخبار
الرميكية الى الآن متداولة بينهم ، وان فيها لأعظم عبرة » .
وقال فى موضع آخر من كتابه ^(٢) « وأخبار المعتمد بن عباد
وما رآه من الملك والعز فى كل حاضر وباد وما قاساه فى الأسر
من الضيق والعسر وسوء العيش أمر عجيب ، يتعظ به العاقل
الأريب ، وأما ما مدحته به الشعراء وأجوبته لهم فى حالى يسره
وعسره ، وملكه وأسره ، وطيه ونشره ، وتجهمه وبشره ، فهو
كثير وفى كتب التاريخ منه نظم ونثر » . ومن دواعى العطف

(١) الجزء السادس من نفع الطيب صفحة ١٩ .

(٢) الجزء السادس من نفع الطيب صفحة ١٠٥ .

عليه شعور متتبعي أخباره وقراء سيرته وأشعاره بأنه كان يستحق معاملة أكرم من المعاملة التي عامله بها أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، وكان أهلاً لمصير أحسن وأرحم من المصير الذي خبّأه له القدر وابتلاه به أدبار الحظ وتقلب الدهر ، وقد أكسبه المصير المحزن عطف الأجيال ، وجعل الناس تغتفر له أخطائه وعيوبه التي كان لعصره أثر كبير في استحداثها ، وتذكر محاسنه ومزاياه التي امتاز بها على معاصريه وجعلت التاريخ يحرص على ذكره ، رحمه الله وغفر له .

سقوط الخلاف الأموي الأندلسية

كان سكان الأندلس مكونين من عناصر مختلفة ليس من اليسير ادماجها في وحدة شاملة ، واخضاعها لنظام عام . وكانت طبيعة البلاد الجغرافية نفسها لا تساعد على ايجاد الوحدة وتيسير الخضوع للسلطة المركزية ، وذلك لأن شبه جزيرة أيبيريا مكونة من أودية وهضبات وسلاسل جبال وأماكن منيعة يستطيع أن يلوذ بها الثائرون والخارجون على النظام ، وتجد الحكومة القائمة مصاعب جمة في التغلب عليهم ، ولذلك كانت الحالة تقتضى على الدوام وجود حكومة مركزية قوية لكبح جماح الأحزاب المتنافرة ، والعصبيات المتنافسة ، والحد من صولة الأهواء المضلة ، والنزوات الخطرة . وقد أمضى الأمير عبد الرحمن الأول الملقب بالداخل حياته في جهاد مستمر ، وحركة دائبة ، لاختماد الثورات ، والضرب على أيدي المخالفين والعصاة ، وظل الى النهاية لا تهد له حركة ، ولا يهدأ له بال في المحافظة على كيان الدولة ، والابقاء على وحدتها ، وقد كلفه ذلك اراقه الكثير من الدماء . وسار خلفاؤه على سنته ، وصادفت أحدهم وهو الخليفة عبد الرحمن الناصر ظروف محرقة قاسية وجدت من عزيمته الماضية وهمته العالية ندا لمقاومتها والتغلب عليها . فأخذ جرة العصاة ، ورد على الدولة وحدتها ، وأعاد اليها هيبتها ، فلما خلفه ابنه

الحكم المستنصر سارت الأمور على ما يرام ، إلا أن هذا الخليفة على رجاحته وفضله استهواه حب الولد ، وأفرط فيه ، فخالف الحزم في توريثه الملك بعده ابنه الغلام الناشئ هشاماً ، وقد مكن ذلك الحاجب المنصور بن أبي عامر من الاستيلاء على السلطة ، والاستبداد بالأمر ، ولا نزاع في أن المنصور كان من أفذاذ الرجال ، وكبار الحكام الأندلسيين ، ولكنه في سبيل تحقيق مظامعه والاستئثار بالسلطة هدم نفوذ الدولة الأموية في الأندلس ، وأضاع هيبتها ، ومهد السبيل للطامعين فيها ، والخارجين عليها .

وقد خلفه ابنه عبد الملك المظفر ، وسار في آثار أبيه ، وجرى على سنته ، ولم يكن من طراز أبيه المنصور ، ولكنه استطاع مع ذلك أن يحافظ على تراثه ، وأحسن السياسة ، فاجتمع الناس على حبه ، ولم يدهنوا في طاعته ، وحكم عبد الملك ستة أعوام وبضعة أشهر ، قضى معظمها في متابعة الغزو ، وكانت وفاته في ١٦ صفر سنة ٣٩٩ ولم يكن قد جاوز الرابعة والثلاثين من عمره .

وخلفه أخوه عبد الرحمن ، وكان يلقب بشنجل ، وكانت أمه ابنة شانجة ملك ناغار ولما كان أشبه الناس بجده لأمه لذلك أطلق عليه هذا اللقب . وكان حينما تولى الحكم في الخامسة والعشرين من عمره ، وكان هذا الشاب منحرف الأخلاق ، سيئ الخلال ، فاجراً مستهتراً ، يقضى معظم وقته في الشراب واللهو . وقد اتبع خطة أبيه وأخيه في الحبر على الخليفة المنكوب هشام

المؤيد ، ولكنه تطلع الى ما لم يقدم عليه أبوه ولا أخوه ، وهو وراثته العرش الأموي . فحمل الخليفة المستكين هشاما الثانى على أن يجعله ولى عهده ، وأيده فى ذلك — وربما زيّنه له — قاضى الجماعة فى قرطبة أبو العباس بن ذكوان وكاتب الانشاء أبو حفص بن برد ، وقد حمل ذلك الشاعر المعاصر ابن أبى يزيد المصرى على هجوهما بهذين البيتين :

ان ابن ذكوان وابن برد قد ناقضا الدين عين عهد
وعاندا الحق اذ أقاما حفيد شنجيه ولى عهد

وقد أثار ذلك بطبيعة الحال غضب أفراد الأسرة الأموية . وأحقدهم عليه ، وقد أفضى به سوء سياسته وقلة بصره بالعواقب الى القتل ، وكان الذى ثار به أحد أفراد الأسرة الأموية التى كبر عليها أن تخرج منها الخلافة ، وتنتقل الى العامريين ، وقد قاد هذه الثورة محمد بن هشام بن عبد الجبار ابن الخليفة الناصر ، وقد خلع هذا الأمير الخليفة هشاما المؤيد من الحكم ، وتولى هو الخلافة ، ولقب نفسه بالمهدى ، وقد استعان على ذلك بالبربر ، وكان البربر أنصار العامريين ، ولكن سوء سياسة عبد الرحمن بن المنصور جعلتهم يتخلون عنه ، ويؤيدون المهدى ، ولم يكن اختيار هذا الرجل للخلافة اختيارا موفقا ، فقد فطر منذ نشأته على الشر والمغامرة .

ولما دخل محمد بن هشام قصر الخلافة فى قرطبة يوم الأربعاء ١٧ جمادى الآخرة سنة ٣٩٩ بعث الى هشام المؤيد يعاتبه على

اِثَارَ بَنِي عَامِر ، وَيَدْعُوهُ إِلَى خَلْعِ نَفْسِهِ ، فَخَافَ هِشَامُ وَبَادَرَ
بِالْقَبُولِ ، وَأَعْلَنَ خَلْعَ نَفْسِهِ .

وَكَانَ رُؤَسَاءُ الْبَرْبَرِ قَدْ لَحَقُوا بِالْمَهْدِيِّ لَمَّا رَأَوْا مِنْ سُوءِ
تَدْبِيرِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْمَنْصُورِ ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَحْسُنْ مُعَامَلَتَهُمْ ،
وَأَهَانَ بَعْضَ رُؤَسَائِهِمْ ، وَكَانَ أَهْلُ قَرْطَبَةَ يَكْرَهُونَ الْبَرْبَرَ ،
فَوَقَعَتْ بَعْضُ الْاِعْتِدَاءَاتِ عَلَيْهِمْ ، وَاتَّهَبَتِ الْعَامَّةُ دَوْرَهُمْ ، وَلَمَّا
شَكَا إِلَيْهِ بَعْضُهُمْ مَا أَصَابَهُ اعْتَذَرَ إِلَيْهِمْ ، وَقَتَلَ مِنْ أَتَمِّهِمْ مِنَ الْعَامَّةِ
فِي أَمْرِهِمْ ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ مَظْهَرُ لِبْغُضِهِمْ ، فَجَاهَرَ بِسُوءِ الْقَوْلِ
فِيهِمْ ، وَبَلَّغَهُمْ أَنَّهُ يَرِيدُ الْفَتْكَ بِهِمْ ، وَاتَّهَى بِهِمُ الْأَمْرَ بِمُبَايَعَةِ رَجُلٍ
آخَرَ مِنَ الْأُسْرَةِ الْأُمَوِيَّةِ ، وَهُوَ سُلَيْمَانُ بْنُ الْحَكَمِ بْنِ سُلَيْمَانَ
ابْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ النَّاصِرِ . فَنَهَضَ بِهِمْ إِلَى الشَّعْرِ وَاسْتَجَاشَ
النَّصَارَى وَأَتَى بِهِمْ إِلَى بَابِ قَرْطَبَةَ لِمُحَارَبَةِ الْمَهْدِيِّ ، وَدَارَتْ بَيْنَ
الْفَرِيقَيْنِ مَعْرَكَةٌ حَامِيَّةٌ ، فِي سَفْحِ جَبَلٍ قَرِيبٍ مِنْ قَرْطَبَةَ يَعْرِفُ
بِجَبَلِ قَنْتَشَ ، وَأَسْفَرَتِ الْمَعْرَكَةُ عَنْ اِقْتِصَارِ سُلَيْمَانَ الَّذِي لَقِبَ
بِالْمُسْتَعِينَ ، وَقَتَلَ الْبَرْبَرُ عِدَدًا جَمًّا مِنْ أَهْلِ قَرْطَبَةَ بَيْنَهُمْ عِدَّةٌ
كَبِيرَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَالْأَئِمَّةِ ، وَكَانَ مُحَمَّدُ الْمَهْدِيُّ قَدْ أَخْفَى هِشَامًا
الْمُؤَيَّدَ ، فَلَمْ يَجِدْ حِيلَةً يَدْفَعُ بِهَا دَعْوَى سُلَيْمَانَ الْمُسْتَعِينَ سِوَى
إِظْهَارِ الْخُلِيفَةِ الْمَخْلُوعِ هِشَامًا الْمُؤَيَّدَ الَّذِي كَانَ قَدْ زَعَمَ أَنَّهُ مَاتَ ،
وَأَجْلَسَهُ فِي مَكَانٍ بَارِزٍ فِي شَرْفَةِ الْقَصْرِ ، وَأَرْسَلَ إِلَى الْبَرْبَرِ
يُخْبِرُهُمْ أَنَّ الْخُلِيفَةَ هِشَامًا مَازَالَ عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ ، وَأَنَّهُ هُوَ الْإِمَامُ
الشَّرْعِيُّ ، وَلَكِنْ الْبَرْبَرُ ظَلَمُوا عَلَى تَأْيِيدِهِمْ لِسُلَيْمَانَ الْمُسْتَعِينَ ،
وَاتَّهَى الصَّرَاعُ بَيْنَ الْمَهْدِيِّ وَالْمُسْتَعِينَ بِتَغْلِبِ الْمُسْتَعِينَ فِي النِّهَاةِ

ودخوله قرطبة بعد مقتل محمد المهدي في شهر شوال سنة ٤٠٣ هـ
وبعد دخول البربر المدينة وقتلهم بأهلها فتكا ذريعا ، وارتكابهم
أشنع ضروب السفك واحراقهم الدور واغتصابهم النساء
والبنات وقتلهم الأطفال والشيوخ . ولما دخل سليمان المستعين
قصر قرطبة استدعى هشاما المؤيد ، وعنفه على موقفه ، فاعتذر
هذا الخليفة الشقي البائس بأنه مغلوب على أمره ، وهنا تختلف
الروايات في مصير هشام المؤيد ، فيقول البعض ان سليمان
أخفاه حيناً ثم قتله ، وفي رواية أخرى أنه فر من محبسه وقصد
الى المرية حيث عاش في بؤس وخمول ، ومن ذلك الحين تبدأ
أسطورة هشام المؤيد وما صنع حولها من الأخبار المستغربة
والروايات العجيبة .

ويقول المقرئ عن المهدي^(١) « ولقد كان قيامه مشئوما على
الدين والدنيا ، فانه فاتح أبواب الفتنة بالأندلس ، وماحى
معالمها ، حتى تفرقت الدولة ، وانتشر السلك ، وكثر الرؤساء ،
وتطاول العدو اليها ، وأخذها شيئا فشيئا حتى محا اسم الاسلام
منها أعادها الله تعالى » . وفي المهدي يقول أحد الشعراء
المعاصرين له :

قد قام مهدينا ولكن	بملة الفسق والمجون
وشارك الناس في حريم	لولاه ما زال بالمصون
من كان من قبل ذا أجما	فاليوم قد صار ذاقرون

(١) نفع الطيب الجزء الثاني صفحة ١١٢ .

وقد وقع خليفته في الخطأ نفسه الذي أودى بعرشه ، وأسفر عن قتله ، وهو العجز عن التوفيق بين العرب والبربر والصقالبة ، وقد أيد البربر سليمان ورفعوه الى العرش ، وأصبحوا أصحاب النفوذ في الدولة ، وتولوا مناصب الحجابة والوزارة ، وتقلدوا البلاد الواسعة مثل باديس بن حَبُوس في غرناطة ، والبرزالي في قُرمونة ، واليفرنى في رندة ، وهرزون في شريش ، واستأثر بنو دَمَر بمنطقة شذونة ومورور ، وأقر سليمان منذر بن يحيى التجيبى على ولاية سرقسطة والثغر الأعلى ، وكان من قواء البربر الذين حاربوا من أجله رجلا ن من آل حمود الأدارسة ، وهى أسرة علوية الأصل ، وهما على والقاسم ، فولى سليمان على بن حمود ثغر سبتة ، وأخاه القاسم ثغور الجزيرة الخضراء وطنجة وأصيلا ، وقوى بذلك نفوذ البربر في ولايات الأندلس الجنوبية .

وخشى الفتيان العامريون عاقبة تزايد نفوذ البربر ، وهؤلاء الفتيان هم الصقالبة الذين كان يستحضرهم المنصور ويلحقهم بجيشه ليتقوى بهم ويحافظ على نفوذه بين العرب والبربر ، ولكى يأمنوا شر البربر ولّى الصقالبة وجوهم شطر الناحية الشرقية من الأندلس ، وبسطوا نفوذهم على بلنسية ومرسية والمرية ودانية والجزائر .

ولم يستطع سليمان المستعين النهوض بأعباء الدولة على الوجه المرضي ، وصف ابن حيان المؤرخ الأندلسى أيامه بقوله^(١)

(١) القسم الاول المجلد الاول من كتاب الذخيرة لابن بسام صفحة ٢٥ .

« كانت كلها شداداً نكدات ، صعاباً مشثومات ، كريهات المبدأ
والفاتحة ، قبيحة المنتهى والخاتمة ، لم يعدم فيها حيف ، ولا
فورق فيها خوف ، ولا تم سرور ، ولا فقد محذور ، مع تطير
السيرة ، وخرق الهيبة ، واشتعال الفتنة ، واعتلاء المعصية ،
وضعن الأمن ، وحلول المخافة » .

وكان سليمان شاعراً ، قال عنه ابن بسام^(١) « هو أحد من
شرف الشعر باسمه وتصرف على حكمه » وذكر له قصيدة
يعارض بها قطعة الرشيد « ملك الثلاث الأنسات عناني » يقول
في مطلعها :

عجبا يهاب الليث حد سناني
وأهاب لحظ فواتر الأجفان
فأقارع الأهوال لا متهيأ
منها سوى الأعراض والمجران
وتملك نفسي ثلاث كالدمى

زهر الوجوه نواعم الأبدان
وعجز سليمان المستعين عن حسم الفوضى السائدة
والاضراب العام ، أغرى بعض القادة والزعماء بالطمع في عرش
الخلافة ، وكان على رأس هؤلاء الطامعين على بن حمود الذي
اختاره سليمان حاكماً لسببته فلم يقنع بها وتطلع الى الخلافة .
ويروى لنا ابن حبان :^(٢) أن هشاماً المؤيد عندما رأى من

(١) القسم الاول المجلد الاول من كتاب الذخيرة لابن بسام صفحة ٢٢

(٢) القسم الاول - المجلد الاول من كتاب الذخيرة صفحة ٢٦ .

اضطراب أمره وتيقنه من انصرام دولته بما منى به قديما وحديثا
من تقاتلوا بنى عمه آل الناصر عليه وقيامهم واحدا بعد واحد في
خلعه صيّر الى على بن حمود ولاية عهده ، وأوصى اليه بالخلافة
من بعده ، وراسله بذلك الى سبته ، يستمد معونته ، ويلتمس
تأييده ، واستكتمه السر الى أوانه .

وكان سليمان قد نظم أبياتا من الشعر استراح بها الى بعض
خواصه وفيها تعريض بالبربر ورغبة في استئصال شأفتهم
والقضاء عليهم وهى قوله ضمن الأبيات المشار اليها ^(١) :

فواعجبا من عشمى مملك
برغم المعالى والعوالى تبربرا
فلو أن أمرى بالخيار نبذتهم
وحاكتهم للسيف حكما محررا
فاما حياة تستلذ بفقدهم
واما حمام لا نرى فيه مأزرا

فلما دعا على بن حمود لنفسه اعصوب عليه البربر الذين
كانوا يتوجسون من سليمان ، وأيده فى دعوته خيران العامرى
صاحب المرية من الصقالبة ، وكانوا ناقلين على سليمان
المستعين ، وكتب اليه خيران أن يعبر اليهم من سبته ، فلبى
الدعوة وعبر الى الجزيرة الخضراء فى أواخر سنة ٤٠٦ ، وسار فى
أشياعه من البربر الى مالقة فسلمها اليه صاحبها عامر بن فتوح .

(١) الجزء الاول من نفع الطيب صفحة ٤٠٠ .

وتقدم خيران في قواته ، والتقى بعلى بن حمود في ثغر المنكب ما بين مالقة والمرية ، وزحف الزعيمان على قرطبة ، وترامت الأنباء الى سليمان المستعين ، فخرج من قرطبة للقائهما في جند البربر ودارت معركة حامية هزم فيها سليمان ودخل على بن حمود قرطبة ، وقتل سليمان بن الحكم صبورا ، ضرب على بن حمود عنقه بيده ، وقتل أخاه وأباه الحكم بن سليمان بن الناصر ، ولما لم يجد هشاما المؤيد أعلن وفاته وبويع بالخلافة ، وتلقب بالناصر لدين الله ، وذلك في شهر محرم سنة ٤٠٧ .

وانقطعت دولة بنى أمية في هذا الوقت وبطل ذكرهم على المنابر في جميع أقطار الأندلس الى أن عادت بعد ذلك حينما نصب المستظهر خليفة .

وأحسن على بن حمود معاشرة أهل قرطبة نحوا من ثمانية أشهر ، وكبح جماح البربر ، ثم انقلب من التجلل الذي كان يظهره لهم ، وانصرف الى حزبه البربري ، وأغضى على سوء ما كانوا عليه من الظلم والحيف ، وصب على أهل قرطبة ضروبا من التنكيل والمغارم ، وانتزع منهم السلاح ، وقبض أيدي الحكام عن انصافهم ، فكرهه أهل قرطبة وسلط عليه صبيان أغمار من صقالبة الأمويين فقتلوه في الحمام طعنا بالخناجر .

ويقول ابن حيان عنه ^(١) « وكان الأغلب على على بن حمود السخاء والشجاعة على عطوله من الفهم والمعرفة ، وبراءته من

(١) القسم الأول - المجلد الأول من الذخيرة صفحة ٨٣ .

الخير جملة » . وقد قتل في شهر ذي القعدة سنة ٤٠٨ هجرية وكانت سنة وقت مقتله خمسا وخمسين سنة ، ولم يمكث في الخلافة سوى عام وتسعة أشهر واجتمع أنصاره من بربر زنانة ، ووجهوا من حينهم الى أخيه القاسم صاحب اشبيلية يومئذ ، فوافى قرطبة رسوله ليقف على صحة وفاة أخيه بالمعانية ، وخاف أن تكون حيلة منه عليه ، فكشِفَ له عنه وتحققه فانكفاً الى القاسم وأكد له وفاة أخيه فأسرع القاسم الى قرطبة ، وأخرج اليه جسد أخيه فصلى عليه ، وأمر بانفاذه الى مدينة سبته ، فدفن بها ، وقبض على الفتيان الثلاثة الذين قتلوا أخاه وأعدمهم لوقته .

ولما قتل الناصر على بن حمود كان ابنه يحيى واليا على سبته ، وولده الآخر ادريس واليا على مالقة ، واختلف البربر على مسألة الخلافة ، فمال أكثرهم الى القاسم لكونه غبن أولا وقدم عليه أخوه الأصغر ، وكان القاسم يكبر أخاه بعشر سنوات ، ولكونه قريبا من قرطبة ، وبويع القاسم بالخلافة بعد ستة أيام من قتل أخيه ، وأحسن السيرة ، وتلقب بالمأمون ، وأحسن القاسم من البربر الميل الى يحيى بن أخيه صاحب سبته فتهالك في اقتناء السودان ، وابتاع منهم كثيرا ، ودرّبهم على أعماله ، وأنفد البرابر من ذلك وانحرفوا عنه .

وتمكنت أمور القاسم ، واستتب له الأمر ، وترفق في معاملة الناس ، ومال الى سياسة اللين والموادعة ، وأخذ يحيى ابن أخيه يعمل على خلع طاعته ، فكتب من سبته الى أكابر البربر بقرطبة

يقول لهم^(١) « ان عمى أخذ ميراثى من أبى ، ثم انه قدم فى ولايتكم التى اتخذتموها بسيوفكم العبيد والسودان ، وأنا أطلب ميراثى ، وأوليكم مناصبكم ، وأجعل العبيد والسودان كما هم عند الناس » ، وصادفت هذه الدعوة هوى فى نفوس البربر لأنهم كانوا ناقلين على السياسة التى اتبعها القاسم ، فوعدوا يحيى بالمساعدة . فجاز البحر من سبته بجمع وافر ، وأقبل الى قرطبة ، وأحس القاسم ضعف موقفه ، ورأى قلة أنصاره ، وتخلّى البربر عن مناصرته ، فأثر الانسحاب وفر الى اشبيلية . ودخل يحيى ابن أخيه قرطبة ، فبايعه البربر والسودان وأهل البلد ، وتلقب بالمعتلى ، واستقبل البربر والأندلسيون خلافته بالاستبشار والارتياح ، وكان المعتلى فارسا شجاعا كريما ، وانما كانت آفته شدة إعجابه بنفسه واصطناع السفلة ، ولما كان مدينا بخلافته الى حد كبير للبربر فقد اشتط عليه أكابرهم ، وطلبوا منه ما وعدهم به من اسقاط مراتب السودان ، ولم يستطع مخالفتهم ، ونزل على أمرهم ، ولكنهم لم يقنعوا بذلك وصاروا يفعلون معه ما يخرق الهيئة ، ويفرغ بيت المال ، وفر السودان الغاضبون الى عمه القاسم باشبيلية ، وتقم عليه بعض البربر لأنه احتجب عنهم وتكبر عليهم ، واختلت أحواله بقرطبة ، وكان القاضى ابن عباد قد بايع للقاسم فى قرطبة ، وتلقب القاسم بالمستعلى ، ولما علم باختلال أمور ابن أخيه ترقب الفرصة للعودة الى قرطبة ، وخشى يحيى عاقبة اضطراب أحواله

(٢) نفح الطيب الجزء الثانى صفحة ٣١ .

وحروجة موقفه فغادر قرطبة ليلا مع خواصه الى مالقة ، فلما بلغ عمه القاسم فراره ركب من اشبيلية الى قرطبة ، وخطب له بها ، وجددت بيعته ، وذلك في شهر ذي القعدة سنة ٤١٣ ، ولم تصلح أحواله مع ذلك في قرطبة ، فقد كان هوى السودان معه ولكن البربر كانوا يميلون الى يحيى ابن أخيه ، أما أهل قرطبة فكانوا يؤثرون عودة الخلافة الى بنى أمية ، وكان القاسم مضطرا الى مداراة البربر والوقوف في جانبهم ، فلما وقع الخلاف بين البربر وأهل قرطبة وثار أهل قرطبة بالبربر أعلنوا خلع القاسم ، وأخرجوه وبرايرته من قرطبة ، فحاصروهم وقتلهم ولكنهم انتصروا عليه ففر مع السودان الى اشبيلية ، وفر البرابرة الى ابن أخيه يحيى بمالقة وكان ذلك في شهر شعبان سنة ٤١٤ .

وكان ابنه محمد بن القاسم واليا على اشبيلية ، وكان ثقته المدبر لأمره محمد بن زيرى من أكابر البرابرة ، وقاضيا محمد بن عباد ، وأطمع القاضي ابن زيرى في تملك اشبيلية ، وكانت أخبار هزيمة القاسم قد سبقته اليها ، فلما وافى باب اشبيلية بمن معه امتنع أهلها عن السماح له بالدخول اليها ، ووثبوا على ولده وأصحابه وحصروهم بدار الامارة ، وأحاطوا بهم ، واشتد الأمر عليهم ، ورضى القاسم من أهل المدينة بسلامتهم اليه جميعا موفورين بماله وأهله ، ولما خرج ولده محمد وأهله ذهب الى شريش ، وملك أهل اشبيلية مدينتهم ، وأغرى بعد ذلك القاضي بن عباد أهل اشبيلية بالوثوب على محمد بن زيرى فخرج ، وصفت

اشبيلية من البربر ، وأسفرت الحرب بين القاسم وابن أخيه يحيى عن هزيمة القاسم ، وحمله أسيراً مقيداً الى مالقة ، وقدم أهل اشبيلية على أنفسهم ثلاثة من أكابر البلد ، أحدهم القاضي أبو القاسم محمد بن اسماعيل بن عباد ، ومحمد بن ريم ومحمد ابن الحسن الزبيدي .

وسئم أهل قرطبة حكم البربر ، فاتفق رأيهم على إعادة الأمر الى بنى أمية ، واختاروا منهم ثلاثة للترشيح للخلافة ، وهم سليمان بن المرتضى ، ومحمد بن العراقي ، وعبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر ، وعقدوا من أجل ذلك اجتماعاً بالمسجد الكبير حضره الوزراء وأعيان الدولة والخاصة والعامة ، وكاد الأمر يتم لسليمان بن المرتضى ، ولكن فوجيء القوم بحضور عبد الرحمن بن هشام في كخلق عظيم من الجند والعامة ، وتم عقد البيعة له ، واتخذ لقب المستظهر ، وذلك في شهر رمضان سنة ٤١٤ وكان المستظهر فتى واعداء غض الشباب ، اذ كانت سنه لا تتجاوز حينذاك الثالثة والعشرين ، ولكن كان له من التجربة والثقافة ما يؤهله للاضطلاع بأعباء الخلافة ، وقد اختار وزراءه من بقايا موالى بنى أمية ، منهم أبو عامر بن شهيد الشاعر اللامع والأديب الذائع الصيت ، ومنهم أبو محمد بن حزم وعبد الوهاب ابن عمه وكلاهما كان من أكمل فتيان عصره فهماً ومعرفة ونفاذاً في العلوم الرفيعة ، ويقول عنه ابن حيان انه^(١)

(١) القسم الاول - المجلد الاول من الدخيرة صفحة ٣٦ .

« كان فتى لو أخطأته المتالف » ولكن الخراب كان قد استولى على الدولة ، وسرعان ما تكاثرت عليه المشكلات ، وتفرّى به الأمر ، وسفك دمه ، وانحسم الأمل من دولته ، وكان قد وثب عليه ابن عمه محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن الناصر ، وبويع في شهر ذي القعدة سنة ٤١٤ . وكانت امارة المستظهر الى أن قتل سبعة وأربعين يوما لم تنتشر له فيها طاعة ، ولا التأمّت عليه جماعة ، وكان على حداثة سنه شاعرا جيد القريحة ، مستجاد الشعر ، والظاهر من مجمل تاريخ خلافته القصيرة المدى أنه لم يعط الفرصة الكافية للكشف عن ملكاته السياسية واظهار قدرته ، وقد روى له ابن بسام في الذخيرة طائفة من شعره وتوقيعاته وهي تدل على رسوخ قدمه في الشعر ، وتمكنه من الأدب .

وتلقب محمد بن عبد الرحمن حينما ولى الخلافة بالمستكفى ، واستقل بأمر قرطبة ، وهو والد الأديبة الأندلسية الشهيرة ولائدة ، وكان المستكفى يوم ولايته في الثانية والخمسين من عمره ، ولكنه كان رجلا سيئ السيرة ، عاجز الرأي ، مستسلما لأهوائه ونزواته ، قال عنه المراكشي صاحب المعجب^(١) « كان في غاية السخف وركاكة العقل وسوء التدبير ، وزر له رجل حائك كان هو المدبّر لأمره والمدير لدولته » . وكان مما أثار عليه غضب أهل قرطبة أنه أمر بخلق ابن عمه محمد العراقي ، ونعاه

(١) المعجب صفحة ٥٦ .

للناس ، واضطهد الكثيرين من أبناء الأسر القديمة في قرطبة ، واعتقل البارزين من وزراء الخليفة السابق ، ومنهم أبو محمد ابن حزم وعبد الوهاب ابن عمه . وخشى أبو عامر بن شهيد وغيره من أعيان قرطبة أن يصيبهم ما أصاب اخوانهم المعتقلين فغادروا قرطبة ولاذوا ببلاط يحيى بن حمود بمالقة وحرصوه على أن يضع حدا للفوضى السائدة في قرطبة ، ولم يكن يحيى ميالا الى العودة الى قرطبة ، ولكن جهودهم مع ذلك لم تذهب أدراج الرياح فقد استفاضت الاشاعات بأن يحيى يتأهب لمهاجمة قرطبة ، وكان القرطبيون قد ضاقوا ذرعا بولاية المستكفى . وساءهم انغماسه في الشهوات ، واغفاله لشؤون الدولة ، فنادوا بخلعه ، وحاصروا قصره ، وقتلوا وزيره الحائك طعنا بالخناجر . وطلب اليه وزرائه وكبراء قرطبة التخلي عن الأمر ، ولما وجد أنه لا يستطيع البقاء تنكر في زى فتاة مغنية ، ووضع على وجهه حجابا ، وغادر القصر في ربيع الأول سنة ٤١٦ هـ واتجه صوب الشجر ومعه أحد قواده ، ونزل بقرية تعرف بشمنت بالقرب من مدينة سالم ، وكره هذا القائد التماذى معه فدس له سما في الطعام ، ولما مات مكانه غسله ودفنه وختمت بذلك حياة هذا الامعة .

وظلت قرطبة قاعدة الخلافة أشهرا بلا خليفة يحكمها مجلس من أعيان البلد ، ولم يكن هذا النوع من الحكم مألوفاً ولا مرجو البقاء ، فقد كان النظام القديم يتساقط وينهار ، ولكن النظام الجديد كان لا يزال حلما لم يتحقق وجنينا في بطن الغيب ،

وكان الرأى العام السائد لا يزال يرى أن النظام الملكى هو النظام الوحيد القمين بالاستقرار والذي يمكن أن تؤمن مغبته ويرجى خيره ، ولكن أين الأموى الذى يصلح للخلافة ؟ لقد كان عبد الرحمن المستظهر أحسن الأمراء الأندلسيين وأسماهم ثقافة وأكثرهم استقامة ، ولكنه لم يجد الى جانبه جيشا يحمى حوزته ويفرض به سلطانه على الدهماء والمشاعيين النزاعين الى السلب والنهب والتخريب فلم يطل عهده ، وذهب ضحية العجز والفوضى ، ورأى أعيان قرطبة أن على بن حمود يستطيع أن يحسم الفوضى ويعيد الأمن والطمأنينة لأن له جيشا من البربر يستطيع أن يقيم به دعائم الحكم ، ويحمى الدولة والنظام القائم . ففاوضه أهل قرطبة وراسلوه فى ملقا ليقبل العودة الى خلافة قرطبة ، فقبل هذا العرض ولكن فى تردد وفتور فقد أدرك أنهم لجأوا اليه مضطرين حينما أعيتهم الحيل فى علاج الموقف وتفريج الأزمة ، وظل مقيما فى ملقا ، واكتفى بارسال جزء من جيشه الى قرطبة ، وأثبتت الأيام أنه كان مصيبا فى سوء ظنه بأهل قرطبة ، فقد ثار القرطبيون فجأة ، وفتكوا بالحامية البربرية ، واجتمعت كلمتهم على رد الأمر للأمويين ، وكان عميد أهل قرطبة فى ذلك والذي تولى الأمر وسعى فى تمامه الوزير أبو الحزم جهور بن محمد ، وراسل جهور من كان يرى مثل رأيه من أهل الشغور والمتغلبين بها على الأمور ، وداخلهم فى هذا الأمر ، واتفقوا بعد مدة طويلة على تقديم أبى بكر هشام بن محمد بن عبد الملك بن الناصر ، وكان هشام

هذا مقيما بحصن يدعى ألبنت ، فبايعوه في ربيع الأول سنة ٤١٨ ، وتلقب بالمعتد بالله ، وكانت سنة يوم بويغ له أربعاً وخمسين سنة ، والعجيب في أمر هذا الخليفة أنه بقى في مقره بألبونت مدة سنتين وسبعة أشهر وفي رواية أخرى أنه لم يستقر بموضع في الثغر بل كان يتنقل من مدينة الى أخرى لأن الرؤساء كانوا يقيمون العقبات في طريق وصوله الى قرطبة ، وتمكن أخيراً من دخول قرطبة في شهر ذى الحجة سنة ٤٢٠ هجرية ، وُسِرَ القرطبيون بمقدمه ، واستقبلوه استقبالا حساسياً رائعاً ، ولكن هذا الرجل - هشام الثالث - لم يكن أهلاً لأن تناط به الآمال ويركن اليه في اصلاح الأحوال ، فقد كان وكيلة خائر العزم ، وأدرك أعيان المدينة في اليوم التالي لقدومه أنهم قد أساءوا الاختيار ، وازدادت الأمور تعقيدا وسوءاً لأنه ألقى زمام الأمور الى يد رجل يدعى الحكم بن سعيد القزاز لم يحسن السياسة ، وأهان زعماء البيوتات الكبيرة ، وأغضب رجال الدين ، واستعان بالسفهاء العارين من الفضائل ، وأحاط الخليفة بحاشية من فاسدى الأخلاق ، فساءت الأمور ، واستقر الراى فى النهاية على الخلاص من بنى أمية جملة ، فقد أعطيت لهم آخر فرصة فأثبتوا أنهم لم يعودوا صالحين لتقلد الخلافة ، وفي شهر ذى القعدة سنة ٤٢٢ حدث شغب فى المدينة ، وقتل الوزير الحكم بن سعيد ، وهوجم قصر الخليفة ، وخلع الخليفة ، وأجلى عن المدينة ، وأبطل رسم الخلافة ، ونفى بنو أمية ، وبخلع هشام المعتد انتهت

الدولة الأموية في الأندلس ، وانقطع ذكرها من منابر الأندلس
والمغرب الأقصى .

وفر الخليفة السابق هشام الثالث الى لاردة ، ونسى أمره ،
وأغفل ذكره ، ولما مات بعد ذلك بخمس سنوات لم يشعر بفقده
ولم يذكر اسمه .

وهكذا غربت شمس الخلافة الأموية الأندلسية ، وبدأ ذلك
العهد المعروف في تاريخ الأندلس باسم عهد ملوك الطوائف ،
وكان أبرز هؤلاء الملوك وأضخمهم دولة وأبعدهم شهرة
وأخلدهم تاريخا ، وأكثرهم مآثر ، بنو عباد ملوك اشبيلية
وعلى رأسهم المعتمد على الله الذي ختمت به دولتهم .

نشأة الأسرة العبادية

كان للخطأ السياسى الخطير الذى تورط فيه الحكم المستنصر بتوريثه عرش الخلافة الأموية فى الأندلس لابنه الغلام الناشئ هشام أفدح العواقب وأسوأ النتائج ، فقد أوسع ذلك المجال للصراع الشديد بين الوزراء ورجال الدولة البارزين على الحكم ، وكان فى وسع الحكم أن يجنب الخلافة الأموية مثل هذه الحالة التى جرت على الدولة المحن وجشمتها الأهوال بترشيح أحد اخوته لوراثة العرش ، وكان فيهم من هو جدير بذلك ، ولكن حب الولد أذهل هذا الرجل الفاضل الطيب النفس الجليل القدر عن كل اعتبار آخر ، وقد مكن ذلك المغامر الشديد البأس الماضى العزم المنصور بن أبى عامر من التغلب على منافسيه والاستئثار بالسلطة ، وكان المنصور حاكما من الطراز الأول ومن أقدر رجال الدولة الذين عرفتهم الحكومات الإسلامية ، ولكنه فى سبيل توطيد سلطانه اعتدى على الصفة الشرعية للخلافة ، وأضعف شعور رجالات الأندلس بالولاء لها ، ونصب لهم القدوة ، وضرب لهم مثلا شرودا فى الاعتداء عليها والاستخفاف بها ، وفضلا عن ذلك فانه رغبة فى استبقاء نفوذه والمحافظة على كيانه استكثر من البربر والصقالبة فى الأندلس للاستعانة بهم فى غزواته المتلاحقة ، ومغالبة أهل

الأندلس ان تنكروا له أو ثاروا به ، وقد استطاع بدهائه وقوة شخصيته أن يسخر العناصر الثلاثة القوية في الأندلس وهى العرب والبربر والصقالبة فى تحقيق غاياته وقضاء لباناته ، ولكن المنصور كان مثل سائر البشر من أبناء الفناء ، والعظمة لا تورث ، فلما انتهت رحلته الدنيوية ، وسقطت الدولة العامرية ، اشتدت الأعاصير السياسية ، وقذف بالدولة فى لجة الفوضى ، وغلب على أمرهم الخلفاء الضعاف الذين تداولوا الحكم بعد العامريين ، ونجمت نواجم الفتنة فى كل ناحية من نواحي الأندلس .

وكان أغلب أهل الأندلس قد أشربت نفوسهم حب الخلافة الأموية وصاروا يرون لزوم طاعتها أمراً واجباً ، وفرضا لازماً ، لأنها رفعت لواء الاسلام فى شبه الجزيرة ، وأحسن خلفاؤها وأمرائها السياسة والنهوض بالأعباء ، ولذلك ساءهم أن يروا انحلال أمر الأسرة الأموية وادبار سلطانها وهى منحدره الى السقوط مشفية على الهاوية ، وأخذوا يتطلعون الى المستقبل فى خوف ويأس .

ولكن الرؤساء والزعماء والقادة كانوا ينظرون الى المسألة من زاوية أخرى ، كانت قوة الخلافة الأموية قادرة على أن تردهم الى الطاعة ، وتأخذهم بالاذعان والخضوع اذا حدثتهم أنفسهم بالخروج على الخلافة والمجاهرة بالعصيان ، فلما رأوا ما توالى على الخلافة من الأحداث العارمة جاشت فى نفوسهم الأطماع ، وحرصوا على اغتنام الفرصة ، والاستفادة من الموقف ، وقتاً ،

اطمأنوا الى أن الخلافة آذنت بالزوال ، ولذلك بدأت خربة
أمرء الطوائف وملوكها قبل سقوط الخلافة الأموية النهائي
بأعوام ، ولما سقطت الخلافة الأموية وعفى على آثارها الزمن
اشتتت تلك الحركة وسارت في طريقها لا تلوى على شيء ، ولا
تصادف عقبة في طريقها ، واقتسم البربر والصقالبة والعرب
تركة الخلافة .

وقد نقل البربر ولاءهم لأسرة المنصور الذي استقدم
الكثيرين منهم وأظلمهم برعايته الى الأسرة الحمودية الادريسية
وأيدوا ممثلها في ذلك العهد وهو الخليفة يحيى بن على بن حمود
الذي أثر الإقامة في ملقا على تولى مقاليد الخلافة في قرطبة
وكان أقوى الخاضعين لهذه الأسرة من البربر أمرء غرناطة وعلى
رأسهم زاوى بن زيرى وابن أخيه حبثوس ، وكانت في حوزتهم
مالقة وما حولها ، كما استأثر زعماء آخرون من البربر بقرمونة
ومورور ورندة .

وكان أبرز زعماء الصقالبة خيران الذى بسط سلطانه على
المرية ، وزهير الذى خلفه بها ، ومجاهد العامرى . صاحب دانية
وجزائر البليار ، وملك الصقالبة بلنسية حيناً من الزمن ،
ولكن في سنة ٤١٢ هجرية تمكن أحد حفدة المنصور ، وهو
عبد العزيز بن عبد الرحمن (شنجول) من الاستيلاء عليها .

وفي سرقسطة أصبح بنو هود أصحاب السلطة وهم ينتمون
الى أصل عربى ، أما طليطلة فقد أصبحت ملكاً لأسرة ذى النون
وهى أسرة من أصل بربرى .

أما قرطبة واشبيلية فقد نشأ فيهما لون من ألوان الحكم الجمهوري ، ففي قرطبة بعد سقوط الدولة الأموية صمم أصحاب الرأي في المدينة على تسليم زمام الأمور الى يد أبي الحزم جهور بن محمد بن جهور ، وهو من أسرة قديمة برزت في عهد الخلفاء ، وكان من المشهود لهم بالكفاية وحسن السمعة ومن الموصوفين بالدهاء وبعد الغور ، وحصافة العقل وحسن التدبير ، وقد جهد في أن لا يتورط في الفتن السابقة ، وقد ولي الوزارة في عهد الدولة العامية ، ويقول عنه المراكشي ^(١) : « انه دبر الأمور تدييراً لم يسبق اليه ، وذلك أنه جعل نفسه ممسكاً للموضع الى أن يجيء من يتفق الناس على امارته فيسلم اليه ذلك ، ورتب البوابين والحشم في القصور على ما كانت عليه أيام الدولة ، ولم يتحول عن داره اليها ، وجعل ما يرتفع من الأموال السلطانية بأيدي رجال رتبهم لذلك وهو المشرف عليهم ، وصير أهل الأسواق جندا له ، وجعل أرزاقهم رءوس أموال تكون بأيديهم محصاة عليهم يأخذون ربحها ورءوس الأموال باقية ، وفرّق السلاح عليهم ، حتى اذا دهمهم أمر في ليل أو نهار كان سلاح كل واحد معه » .

وكان يعاونه في حكم المدينة مجلس من شيوخها ، ولكنه كان مع ذلك صاحب الكلمة الفاصلة والرأي الأعلى في مختلف الأمور ، لأن مجلس الشيوخ كان لا يعصى له أمراً ، ولا يعارض له رأياً ، وكان معروفًا بالحرص على المال ومراعاة الاقتصاد ،

(١) المعجب صفحة ٥٩ / ٦٠ .

ولكن حبه للمال لم يغره بأخذ شيء من أموال الدولة ، وقد توفي في سنة ٤٣٥ ، وخلفه فيما كان يتولاه من أمر قرطبة ابنه أبو الوليد محمد بن جهور ، وجرى في السياسة وحسن التدبير على سنن أبيه .

واستأثر بنو الأفطس بناحية بطليوس وما إليها وبنو رزين بناحية السهلة وبنو الفهرى بناحية البونت .

وكان مصير اشبيلية مرتبطا في أكثر الأوقات بمصير قرطبة ، وقد خضعت لبني حمود العلويين حينما استولوا على قرطبة ، ولما ثارت قرطبة على القاسم بن حمود وطرد منها حاول الالتجاء الى اشبيلية ، وكان بها ابنه وحرس من البربر يقودهم محمد بن زيرى اليفرنى ، وأمر القاسم أهل اشبيلية باخلاء ألف منزل لجيشه ، وأثار هذا الطلب تقمة أهالى اشبيلية لأنهم كانوا يعرفون ما طبع عليه جنود القاسم من الميل الى السلب والنهب والعدوان ، وقد ضربت لهم قرطبة مثالا في طرد البربر والخلاص منهم ، ولكنهم كانوا يخشون بأس الحامية البربرية المقيمة بالمدينة كما يخشون استعانتها ببربر قرمونة القريبة منها ، ولكن قاضى اشبيلية محمد أبى القاسم بن اسماعيل بن عباد نجح في اكتساب ثقة رئيس الحرس البربرى واستماله الى صفه ، وأكد له أنه قد يصبح صاحب اشبيلية اذا كف أذاه عن أهل المدينة وأيدهم في موقفهم من القاسم ، واحتاط القاضى للأمر فعقد اتفاقا مع بربر قرمونة ، وشجع ذلك أهل اشبيلية على مهاجمة ولدى القاسم محمداً والحسن ومحاصرتهما في قصرهما ، فلما جاء

القاسم الى أبواب المدينة وجدها مغلقة في وجهه ، فحاول أن يترضى العامة ويبذل لهم الوعود ولكنهم لم يستجيبوا له ، ولما كان ولداه وأهل بيته محصورين بالمدينة فقد قبل أن يتخلى عن المدينة اذا أسلموا اليه ولديه وأهل بيته وأمواله ، ولما ضمن له الاشيليون تنفيذ هذا الشرط حول ركابه عن المدينة ، واتجه صوب الجزيرة الخضراء واغتتم القاضي بعد ذلك الفرصة للخلاص من الحامية البربرية .

ولما استردت المدينة حريتها اتفق رأى أهل اشبيلية على تقديم رجل منهم يرجع اليه أمرهم وتجتمع به كلمتهم ، فتوارد اختيارهم بعد فحص الرأى وتنقيح التدبير على القاضي أبى القاسم محمد بن اسماعيل ، وكان لما ولى قضاء اشبيلية أحسن السياسة مع الرعية والملاطفة لهم حتى رمقته القلوب ، ورأوا أن يولوه الأمر لما كانوا يعلمون من حصافة عقله وسعة صدره وعلو همته ، وكان واسع الثراء يملك ثلث أراضى اشبيلية ، ولما عرضوا عليه مارأوا تهيب الاستبداد بالأمر وخاف عاقبة الاتفراد بالحكم ، ولم يغب عنه أن بعض المرتسمين في الوزارة كانوا يؤيدونه في ذلك ويحثون على قبول هذا العرض ابقاءً على مايتقلبون فيه من جاه ونعمة وحسداً له لوفرة ثرائه ، وقبول الولاية لم يكن في تلك الأوقات العاصفة المتقلبة من المسائل المأمونة العاقبة ، فاشتراط القاضي لقبوله اشراك طائفة من أعيان المدينة معه في الحكم ، واستقر الرأى على أن يكون منهم أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي العالم النحوى والذى

سبق أن اختاره الحكم ليكون معلما لابنه هشام ، ومحمد بن يريم الألهاني وأبو الأصبع عيسى بن حجاج الحضرمي وأبو محمد عبد الله بن علي الهوزني ، ورجال آخرون من سلالة البيوتات المعروفة في المدينة ، وأخذ يدبر أمور المدينة وهؤلاء المذكورون وزراؤه .

وعمل على التقرب الى العامة ، فلما اتقادت له الأمور أقبل يضم الرجال الأحرار ويشترى العبيد ، وحينما اطمأن الى مكائته وتوطد نفوذه قبض أيدي أصحابه وسما بنفسه وأسقط جماعتهم ولم يكن القاضي أبو القاسم من ذوى النسب الضخم والحسب العريق كما تقل بعض الرواة عن الكتّاب والشعراء الذين كانوا يملقون الأسرة العبادية حينما علا نجمها وعظم شأنها ، وكانت هذه الأسرة تنتسب الى اللخمين الذين كان منهم ملوك الحيرة وعمال الفرس على أطراف العراق ، وكانت دولتهم تسمى دولة آل نصر أو دولة المناذرة ، وكان الشعراء الذين يمدحونهم يتقربون اليهم بالاشارة الى هذا النسب تأكيد لحقيقته ، مثل قول أحدهم في مدحهم :

من بنى المنذرين وهو اتسبب زاد في فخرهم بنو عباد
فتية لم تلد سواها المعالي والمعالي قليلة الأولاد
وقال شاعر آخر في تأييد هذا النسب وربط أصولهم بملوك الحيرة :

من حلبة السبق لا برق يخاطفها الى مداها ولا ريح يجاريها
تردهم نسبة نحو السماء فهم من مائها وعلاهم من دراريها

يشير الى المنذر بن ماء السماء أحد ملوك الحيرة ، وقال
هذا الشاعر نفسه مكررا هذه النعمة التي كانت تروق مسامع
العبادين :

نصر الى ماء السماء نماهموا

نسب على أوج النجوم مخيم

بالبیض والبیضات والحلق اكتسوا

فتوشحوا وتتوجوا ونعموا

ويضرب على هذه النعمة الفتح بن خاقان في المطمح فيقول
في ترجمته لأبي القاسم محمد بن عباد : (١) « هذه بقية منتهاها في
لحم ، ومرتماها الى مفخر ضخم ، وجدهم المنذر بن ماء السماء
ومطلعهم من جو تلك السماء » .

والظاهر أن بنى عباد كانوا يحبون الإشارة الى هذا النسب
وتأكيدهم والمفاخرة به ليثبتوا لأهل الأندلس انحدارهم من سلالة
ملكية حتى يخول لهم ماضى الأسرة ادعاء الملك وتسلم العرش ،
والمعروف عن بدء أمرهم في بلاد الأندلس أن جدتهم عطافا هو
الداخل منهم الى الأندلس في طلائع بلج بن بشر القشيري ،
وكان عطا ف من أهل حمص من صقع الشام ، وموضعه من حمص
العريش وهى آخر الجفان بين مصر والشام ، وقد نزل بالأندلس
بقرية يومين من اقليم طشانة من أرض أشبيلية ، وقد قدم عطا ف
الأندلس على رأس كتيبة من جنود بلج .

وامتد لعطا ف عمود النسب من الولد الى الظافر محمد بن

(١) مطمح الانفس صفحة ١١ .

اسماعيل القاضى ، وقد كان اسماعيل والد القاضى أول من أخرج الأسرة من ظلمات الخفاء وخمول الذكر وسما بها الى مرتبة الأعيان البارزين ، وكان عالماً فقيهاً ، وجندياً بارعاً ، تولى قيادة فرقة فى حرس هشام الثانى ، واختير اماماً لجامع قرطبة ، ثم قاضياً لاشبيلية ، واشتهر بغزارة العلم وجزالة الرأى ومتانة الخلق والاستقامة ، وعرف فى المجتمع الفاسد الذى عاش فيه بالنزاهة والارتفاع فوق الريب والشكوك ، وقد أنصف بالكرم والنجدة فكان غياث الملهوفين ، وملاذ القاصدين ، وأكسبته هذه الخلال البارعة لقب أنبل رجال غرب الأندلس ، وتوفى عام ٤١٠ للهجرة .

وكان ابنه القاضى أبو القاسم محمد نظيره فى الذكاء وسعة المعرفة ، ولكنه قصر عن مستواه الأخلاقى ، فقد كان شديد الطموح ، بعيد المطامع ، لا يتردد فى اختيار الوسيلة الملائمة لتحقيق أهدافه ، وحينما مات والده عمل على أن يخلفه فى خطة القضاء ، وفضل عليه أحد المرشحين ، وكانت اشبيلية حينذاك تحت سيطرة بنى حمود ، فاستنجد أبو القاسم بالقاسم بن حمود ، وكان حاكم اشبيلية ، وتدخل الأمير القاسم فى الأمر ونال أبو القاسم بغيته ، ولكنه مع ذلك لم يحفظ للقاسم بن حمود هذه اليد ولم يرع عهده ، وأعمل الحيلة فى إبعاده عن اشبيلية واخراج ولديه منها والقبض على زمام أمورها .

وقد استبد بالأمر فى اشبيلية بعد أن تخلص من الأعيان الذين اختارهم للاشتراك معه فى الحكم ، وقد مكّن لملكه

بإنشاء جيش حتى ساوى ملوك الطوائف وزاد عليهم بكثافة
سلطانه وكثرة غلمانه ، وقد مكنه هذا الجيش من شن غارات
على أملاك جيرانه ، ولكن هذا الجيش لم يكن كافيا لرد هجوم
خطير على المدينة كما أدرك ذلك سنة ٤١٨ هجرية ، فقد حاصر
يحيى بن على الحمودى اشبيلية فى تلك السنة وعاونه فى حصارها
محمد بن عبد الله البرزالى صاحب قرمونة وأحد زعماء البربر ،
وخشى الاشبيليون دخول البربر المدينة ، فدارت مفاوضات
بينهم وبين يحيى ، وأعلنوا رغبتهم فى الدخول تحت طاعته
ولكنهم اشترطوا ألا يدخل البربر المدينة ، وقبل يحيى هذا
الشرط ، ولكنه اشترط من ناحيته أن يسلموا اليه رهائن من
أبناء أعيان المدينة البارزين ، وأن هؤلاء الشبان سيعرضون
للقتل اذا نكث الاشبيليون العهد وخالفوا شروط الاتفاق ،
فأحجم أعيان اشبيلية عن قبول هذا الشرط ، وكبر عليهم أن
يعرضوا أولادهم للقتل عند أول شبهة تقوم بنفوس البربر ،
ولكن القاضى لم يتمهل فى قبول ذلك وبادر الى تقديم ابنه
عباداً ليكون رهينة ، ولما كان يحيى يعرف مدى نفوذ القاضى
فى اشبيلية ومكاته بين أهلها فقد اكتفى بأخذ ابنه رهينة ،
وارتد جيشه عن اشبيلية ، وقوى هذا الموقف نفوذ القاضى
وزاد الأهالى تعلقاً به وقبولا لحكمه ، وقد مكنه ذلك من اخراج
ابن حجاج والهوزنى من المجلس الاستشارى تمهيدا للانفراد
بالحكم ، ولم يبق معه سوى الزبيدى وابن يريم ولكنه ما عثم
أن عزلهما ، وأرسل الزبيدى الى المنفى ، واختار رجلا من

الشعب اسمه حبيب نشأ في أحواز اشبيلية ، ولم يكن هذا الرجل من أبناء البيوتات ولا من أصحاب المبادئ القويمة ، وإنما كان رجلاً موفوراً الذكاء جم النشاط شديد الاخلاص لسيدته الذي أخذ بضبعه وانتشله من وهدة الخمول وبوأه المنصب العالي وحباه السلطة والنفوذ .

واعترزم القاضي توسيع رقعة أملاكه بضم مدينة باجة اليها ، ولكن ابن الأفطس أمير بطليوس لما سمع بذلك رسل جيشاً يقوده ابنه محمد - وهو الذي خلفه واتخذ لقب المظفر - واستولى على المدينة ، فلما ظهر عند أبوابها الجيش الذي قاده اسماعيل بن القاضي أبي القاسم وجليفه صاحب قرمونة محمد ابن عبد الله البرزالي بدأ حصار المدينة وبالرغم من مساعدة ابن طيفور صاحب مارتلة لمحمد بن الأفطس هزم محمد ووقع أسيراً في يد العدو وأرسل الى قرمونة ، وقتل كبار رجاله وحبس محمد عند صاحب قرمونة ، وقتل في المعركة أخ لابن طيفور ، وأطلق محمد بن عبد الله محمداً بن الأفطس بموافقة القاضي بعد أن اعتقله حيناً من الزمن وعرض عليه يوم أطلقه أن يجتاز على القاضي ابن عباد ليشكره على اطلاق سراحه ، ولكن محمداً كان يكره القاضي كراهة شديدة فأبى ذلك وقال لمحمد بن عبد الله البرزالي : « مقامى في أسرك أشرف عندى من تحمل منته فاما انفردت باليد عندى والا أبقيتنى على حالى » فأعجب ابن عبد الله بمقاله ، ونافس في اسداء اليد اليه وأكرم تشييعه الى بطليوس ، ورجع الى مقاومة القاضي ابن عباد ، وفي سنة ٤٢٦ اتقم محمد

ابن الأفطس لنفسه من القاضي ابن عباد بطريقة غير مشرفة ، فقد وجه ابن عباد مع ابنه اسماعيل حملة لشن غارة على مملكة ليون ، وكان قد تم الاتفاق بين القاضي وبين ابن الأفطس على السماح للجيش الاشبيلي بالمرور من أملاك ابن الأفطس ، فلما أوغل الجيش في بلاده جمع رجاله ورصده في شعب ضيق قريب من حدود مملكة ليون ، وهاجمه على غير انتظار ، وقتل كثيرون من جند اسماعيل ، وجرت عليه في مهربه مع جماعته من أصحابه شدة لجأ فيها الى ذبح خيله والاعتداء بلحومها ، وشق طريقه الى مدينة اشبونة بصعوبة ، ومن ذلك الوقت أصبح القاضي يضرر أشد العداوة لأمير بطليوس .

وقد اعترف ابن عباد بسلطة الخليفة الحمودى ، ولكن هذا الاعتراف مع ذلك لم ينتقص من سلطته ، لأن يحيى بن حمود كان أضعف من أن يستطيع فرض سلطانه وإثبات حقوقه ، ولكن سلطان يحيى أخذ يقوى ، فقد عمل على أن يجمع حوله زعماء البربر جميعهم ، وتزعم الكتلة الافريقية ، وثبت قدميه في قرمونة بعد أن أجلى عنها صاحبها محمد بن عبد الله البرزالى ، وهدد بذلك اشبيلية وقرطبة معا ، وقد أوحى هذا الخطر الى القاضي فكرة جريئة بدا له أنه يستطيع بها توحيد صفوف العرب والصقالبة ومواجهة جماعة البربر ، ولم يجد حيلة أخرى لدفع الكارثة المتوقعة ، ولذلك وضع تصميم خطة تمكنه من أن يضم اليه أعداء الافريقين جميعهم ، واتفقوا أن يتزعم هذا الحزب المناهض للحزب الافريقى ، ولم يكن غافلا عما يعترض

سبيله من العقبات ، فقد كان يعرف سوء ظن زعماء الصقالبة وكبرياء زعماء العرب وفرط تأييدهم على الطاعة والالتقياد اذا وضع نفسه على رأس ذلك الحزب ، ولكنه مع ذلك لم ييأس ، وواتته الظروف لتحقيق آماله الى حد ما .

كانت مسألة موت هشام الثانى المؤيد لا تزال موضع شك ، وحينما دخل على بن حمود قرطبة بعد تغلبه على سليمان المستعين ، سأل سليمان فى مجلس حافل بالوزراء ورجال الدين عما حدث لهشام المؤيد ، فأجاب بأنه قتل ، ولكن سليمان لم يكن قد أبرز جثته حينما قتله لينتفى الشك فى موته ويقطع باليقين ، وطلب اليه ابن حمود أن يدلّه على قبره ، ولما عين مكان القبر فتح وأخرجت الجثة ، وسأل ابن حمود أحد خدم هشام هل الجثة التى وجدت فى قبر مولاه هى جثة هشام ؟ فأجاب الخادم مؤكداً انها جثة مولاه ، وفى رواية أن الخادم كان يعلم أن هشاماً ما زال حياً ولكنه خشى بطش ابن حمود الذى كانت مصلحته تقتضى أن يكون هشام ميتاً ليفوز بلقب الخلافة ، واستدل الخادم على أن الجثة التى فى القبر لهشام لسن له سوداء كان يتميز بها ذلك الخليفة ، وأقر بعض الحاضرين هذه الشهادة تقرباً الى على بن حمود ، وبذلك أصبح الصقالبة أمام أمر واقع وهو الاعتراف بخلافة على بن حمود ، ولما اقتاد الجند الحكم والد سليمان ليقتلوه قاله له ابن حمود : « اذاً لقد قتلت هشاماً أيها الشيخ » فأجاب ذلك الرجل التقى الذى قضى حياته فى العبادة ولم يشترك فى الحوادث السياسية : « لا والله شهيد على

ما أقول ، اثنا لم تقتل هشاما وانه ما زال حيا » وقبل أن يتم كلماته هذه أشار ابن حمود الذي كان يخشى انتشار أمره فهوى بالسيف على سليمان فقتله ، وواضح من ذلك أن موت هشام لم يكن حينذاك من الأمور المقطوع بها مما حمل أحد الرجازين على أن يقول مشيرا الى هذه الحادثة :

ذاك الذي مات مراراً ودفن فانتفض الترب ومزق الكفن

وكان المعروف أن هشاما الثانى المؤيد التعس الحظ هرب من قصره فى أثناء حكم سليمان المستعين ، وفى الأغلب مات مجهولا فى آسيا ، ولكن الشعب الأندلسى كان شديد التعلق بذكرى الدولة الأموية الأندلسية ، ورفض أن يصدق قصة موت هشام ، وصار يتصيد كل اشاعة تحوم حول اسمه مهما تبلغ من الغرابة ومجافاة الواقع ، وذاعت اشاعات كثيرة حول حياته فى الشرق بآسيا ، منها أنه ذهب الى مكة ومعه كيس فيه جواهر وياقوت ونفقة ، وطمع فيه عبيده ، فسرقوه واتهبوا ما عنده ، وظل يومين يعانى الجوع حتى أشفق عليه خزاناق واتخذة معينا له فى عمل الخزف ، وكان يعطيه أثناء ذلك فى كل يوم رغيفا ودرهما ، ولكنه سئم ذلك ، وانضم الى قافلة ذاهبة الى بيت المقدس ، وتعلم عمل الحصر وأصبح حصريا بارعا ، ثم عاوده الحنين الى الأندلس فرجع اليها وظهر أولا فى مالقة ، وفى رواية أخرى أنه استقر فى قرية من قرى اشبيلية يؤذن فى مسجدھا ويعمره ويتقوت من العمل فى الحلفاء ، وهى أخبار غير جديرة بالتصديق ، وانما راق السياسيين الطامعين أن يستغلوا

هذه الأسطورة الهشامية ، واتفق وجود رجل صانع حصر اسمه خلف ، وكان يشبه هشاما شبا عجيبا ، فرأى القاضى ابن عباد أن يفيد من ذلك ، ويهتبل الفرصة ليدفع شر ابن حمود وينظم الناس على حربه ، فخرج الى هذا المشبه بهشام ومعه ولده اسماعيل وجميع خاصته وعبيده ، وحمل معه أثواب الخلفاء وملابسهم وزيهم ومراكبهم ، فلم يشعر الرجل وهو خارج المسجد يعمل فى حلفائه حتى غشيه القوم وأحاطوا به ، فترجل القاضى وابنه وجميع من جاءوا معه وقبلوا الأرض بين يديه ، وترامى القاضى وابنه على رجليه يقبلانها ، فبهت الرجل مما عاين ، وجعل يقول : « لست بالذى تعنون ولا أنا بالذى تطلبون » وهم لا يردون عليه شيئا سوى التضرع والرغبة الى أن أقاموه من مكانه وأركبوه ومشى القاضى وجميع من جاء معه بين يديه ، ولما أتوا اشبيلية صاح صائح « يا أهل اشبيلية اشكروا الله على ما أنعم به عليكم فهذا مولاكم أمير المؤمنين هشام قد صرّفه الله عليكم وجعل الخلافة بيلدكم لمكانه فيكم وتقلها من قرطبة اليكم فاشكروا الله على ذلك » ودخل المدينة على هذه الصورة واستقر فى القصر بقية يومه ، فلما كان من الغد حشر الناس للدخول عليه ، وتسابق اليه الخصاص والعام لبيعته ، وقعد لهم هذا الرجل وبينه وبينهم ستر مسدول يتكلم من ورائه ويقول انه اختار القاضى حاجبا له ، وأظهره لنساء هشام وكن يعرفن المطلوب منهن فأقررن أن الرجل هو الخليفة السابق هشام المؤيد ، وأقر القاضى شهادتهن وأعلن القاضى

مجلس شيوخ قرطبة وزعماء العرب والصقالبة أن هشاما عنده
في قصره ودعاهم الى حمل السلاح للدفاع عنه ونجحت الخطة ،
واعترف بخلافة هشام محمد بن عبد الله البرزالي أمير قرمونة
المخلوع وكان مقيما في اشبيلية ، وعبد العزيز العامري أمير
بلنسية ، ومجاهد العامري أمير دانية وجزائر البليار وأمير
طرطوشة ، ورحب الأهالي في قرطبة بأنباء ظهور هشام وتحمسوا
له ، وكان أبو الحزم بن جهور يحرص على سلطانه في قرطبة
ولذلك لم يصدق هذه الأسطورة ، ولكن لم ير من الرأي
الوقوف في وجه تيار الرأي العام ورأى حاجة العرب والصقالبة
الى التحالف تحت علم زعيم واحد وكان يخشى هجوم البربر
على قرطبة ، لذلك سمح لأهل قرطبة أن يجددوا البيعة لهشام
الثاني سنة ٤٢٧ .

ولم يكن يحيى غافلا عن تحالف العرب والصقالبة عليه
فحاصر اشبيلية وشرع في تخريب المنطقة الواقعة حولها انتقاما
من القاضى الداهية ، ولكنه كان محاطا بطائفة من الخونة
الكارهين لحكمه . وكان بربر قرمونة الذين أكرهوا على قبول
طاعته لا يزالون مواليين لأمرهم السابق محمد بن عبد الله
البرزالي ، وفي سنة ٤٢٧ وفد على قرطبة لمة من أبناء عم محمد
ابن عبد الله وذكروا لابن عمهم والمقاضى ابن عباد أن يحيى
الحمودى منغمس في لهوه وشربه وأنه لا يكاد يفيق من شربه
ويمكن التغلب عليه بهجوم مفاجيء على قرمونة ، وأخذ القاضى
بنصيحتهم وأرسل جيشا يقوده ابنه اسماعيل ومعه محمد بن

عبد الله ، وقدما سرية من الجيش ، وكن باقى الجيش ناحية أخرى ، وطار الخبر الى يحيى وهو على شرابه وقد أخذ منه الشراب ، فوثب قائما يقول ^(١) : « وايباض بختى الليلة وابن عباد زائرى ! » وأمر بالأسراج وتقدم الى أصحابه وغلماناه وبادر الخروج من باب قرمونة وأصحابه يتلاحقون ، والتأمت عدته فى نحو من ثلثمائة فارس أكثرهم دغل السريرة غير راض عن أسلوبه فى الحكم ، وأسفرت المعركة عن قتله وحز رأسه . وطير به الى القاضى ابن عباد فى اشبيلية ، فخر ساجدا وسجد من حضر لسجوده ، واستمرت الهزيمة على أصحاب يحيى حتى ساء ذلك محمد بن عبد الله وبدت عصبية لقومه ، وكلم اسماعيل ابن القاضى فى رفع السيف عنهم ، لأنهم أرغموا على متابعة يحيى . وتم لمحمد ما أراد من حقن دماء قومه ، وأسرع الى قرمونة ورد عليه ملكه .

وزال مؤقتا الخوف من بنى حمود ، ورأى القاضى أن الأحوال مناسبة لحلولة مع المشبه بهشام فى قصر الخلافة بقرطبة ، ولكن ابن جمهور لم يكن مستعدا للتنازل عن تفوذه والغاء وجوده ، فصارح أهل قرطبة بأن الخليفة المزعوم رجل دجال كذاب ومنع الدعاء لهشام على المنابر ، ولما وصل القاضى الى أبواب قرطبة وجدها مقفلة فى وجهه ، واضطر الى الارتداد لأنه لم يكن معه قوة كافية للاستيلاء على مثل هذه المدينة الكبيرة

(١) نقل ابن بسام عن ابن حبان تفاصيل عن هذه الواقعة فى القسم الاول - المجلد الاول من كتاب الدخيرة صفحة ٢٧١ .

المحصنة ، فعقد العزم على أن يوجه جيشه الى محاربة الأمير الصقلبي الوحيد الذي رفض الاعتراف بهشام المزعوم وهو زهير العامري صاحب المرية ، وكان مواليا لبني حمود ، ولما علم زهير بتأهب جيش اشبيلية لمحاربته عقد اتفاقا مع حبثوس صاحب غرناطة ، واستطاع الجيشان - جيش زهير صاحب المرية وجيش حبثوس صاحب غرناطة - أن يردا هجوم الجيش الاشبيلي ، وكان يمكن أن يتحول الجيشان من الدفاع الى مهاجمة اشبيلية وأحوازها ولكن الحظ ابتسم للقاضي في هذا الظرف العصيب فقد حدث خلاف بين الحليفين انتهى بقتل زهير العامري وهزيمة جيشه ، وقد استولى عبد العزيز العامري على المرية بعد مصرع زهير ، وكانت علاقة عبد العزيز العامري باشبيلية مرضية ولذلك حوّل القاضي اهتمامه الى مشكنة البربر ، وكان قد وقع الخلاف بينه وبين محمد بن عبد الله البرزالي صاحب قرمونة ، وكان حبثوس صاحب غرناطة قد مات في تلك الفترة وخلفه ابنه باديس ، وسار باديس في أول عهده سيرة حسنة ولكن سرعان ما تكشفت حقيقة أخلاقه ، وظهرت قسوته ووحشيته حتى تقم عليه أهل غرناطة وعابوا عليه اسرافه في الشراب وفي سفك الدماء .

وبدأ القاضي حركة مقاومة البربر بمهاجمة محمد بن عبد الله في قرمونة ، وقاد جيشه ابنه اسماعيل ، وأحرز انتصارات باهرة واستولى على أشونة واستنجة ، وحاصر قرمونة ، واستنجد محمد بادريس الحمودي صاحب مالقة ، وكان قد خلف أباه يحيى

عليها بعد مقتله ، وبياديس صاحب غرناطة ، وكان ادريس حينذاك مريضا فأرسل جيشا يقوده وزيره ابن بَقْنَة ، وقاد باديس جيشه ، وكان اسماعيل واثقا من قوة جيشه ولذلك أراد الاشتباك مع الجيشين المتحدين في معركة ، ولكن باديس وابن بَقْنَة غلب عليهما الاعتقاد بأن جيش اشبيلية يفوق جيشهما عدداً ، فأحجما عن الاستلحاح له ، وشرعا في الارتحال من نواحي قرمونة ، تاركين صاحبها لمصيره ، وتبع اسماعيل جيش غرناطة في انسحابه ، فاستغاث باديس بالجيش الذي يقوده ابن بَقْنَة واجتمع الجيشان عند استجة وانتظرا قدوم الجيش الذي يقوده اسماعيل ، واعتقد الاشبيليون أنهم يحاربون عدوا آثر الانسحاب من الميدان ولما خاب ظنهم فت ذلك في عضدهم ، وشاعت الفوضى في صفوفهم ، وعبثا حاول اسماعيل أن يستثير حميتهم ، ويعيد النظام الى صفوفهم ، وذهب ضحية شجاعته .

ومات القاضي سنة ٤٣٣ بعد أن وضع أساس دولة بنى عباد وأرسى قواعدها . قال عنه الفتح في المضح وهو يتحدث عن بنى عباد (١) : « والقاضي أبو القاسم هو جدهم وبه سفر مجدهم ، وهو الذي اقتنص لهم الملك النافر ، واختصهم منه بالحظ الوافر ، فانه أخذ الرئاسة من أيدي جابر وأضحى في ظلالها أعيان أكابر عندما أناخت بها أطماعهم ، وأصاغت اليها أسماعهم ، فاقتعد سنامها وغاربها ، وأبعد عنها عجمها وأعاربها

(١) مطمح الانفس صفحة ١١ / ١٢ .

وفاز من الملك بأوفر حصة وغدت سمته بها مختصة ، فلم يح
رسم القضاء ، ولم يتسم بسمة الملك مع ذلك النفوذ والمضاء ،
وما زال يحمى حوزته ويجلو غرته حتى حوته الرجام وخلت
منه تلك الآجام » . وكان القاضي أبو القاسم يعد في عصره من
أهل العلم والأدب والمعرفة التامة بتدبير الملك ، وقد دفن بقصره
في اشبيلية .

عنه المعتضد بالله

كان المنظور أن الذي يخلف القاضي أبا القاسم ابنه اسماعيل الذي قاد الجيوش وخاض غمرات الحروب لتثبيت أركان الدولة وتوسيع رقعتها ، ولكن شاء القدر أن يقتل اسماعيل في أوج مجده وعنفوان قوته وهو يحارب البربر ، وفسح مصرعه الطريق ليرث الولاية أخوه عباد الذي حل محل اسماعيل عند أبيه ، ولقب في أول أمره بفخر الدولة حاجب الخليفة هشام المؤيد ، وقد اشتهر بعد ذلك بلقب المعتضد ولكنه لم يطلق على نفسه هذا اللقب الا بعد زمن من تسنمه الولاية ، وكانت سنة حينما خلف أباه لا تتجاوز السادسة بعد العشرين .

وكان هذا الرجل من أقوى الشخصيات التي عرفها تاريخ الأندلس في عصر ملوك الطوائف ، وقد عرف المعتضد بالدهاء وبعد الغور والشدة المتناهية والقسوة البالغة ، وكان مع ذلك أدبياً يجيد النظم ، ويحسن تذوق الشعر ، ويجيز الشعراء ، ويشجع الأدب والعلم .

قال عنه ابن بسام في الذخيرة « المعتضد بالله عباد ابن ذي الوزارتين القاضي أبي القاسم محمد بن عباد ، أفضى إليه الأمر بعد أبيه وتسمى بفخر الدولة ثم بالمعتضد ، قطب رحي الفتنة ، ومنتهى غاية المحنة ، من رجل لم يثبت له قائم ولا حصيد ،

ولا سلم عليه قريب ولا بعيد ، جبار أبرم الأمور وهو متناقض
وأسد فرس الطلى وهو رابض ، ثار والناس حرب ، وكل شيء
عليه الب ، فكفى أقرانه وهم غير واحد ، وضبط شأنه بين قائم
وقاعد حتى طالت يده واتسع بلده ، وكثر عديده وعدده .

وذكره المؤرخ الأندلسي الشهير ابن حيان وقد عاصره فقال
حينما بلغت قرطبة أخبار موته سنة احدى وستين وأربعمائة :
« نعى المعتضد عباد زعيم جماعة أمراء الأندلس في وقته ، أسد
الملوك ، وشهاب الفتنة ، وداحض العار ، ومدرك الأوتار ، وذو
الأنباء البديعة ، والحوادث الشنيعة ، والوقائع المبيرة ، والهمم
العلية ، والسطوة الأيية ، فرماه الله بسهم من مراميه المصمية
أحمد ما كان في اعتلائه وأرقى ما كان الى سمائه وأطمع ما كان
في الاحتواء على الجزيرة توفاه الله من علة ذبحة قصيرة الأمد » .

ويحدثنا ابن بسام عن صورته وأدبه فيقول : « كان عباد
أوتى من جمال الصورة وتمام الخلقة ، وفخامة الهيئة وسبابة
البنان وثقوب الذهن ، وحضور الخاطر ، وصدق الحس ، مافاق
به على نظرائه ، ونظر مع ذلك في الآداب قبل ميل الهوى به
الى السلطان أدنى نظر بأذكى طبع حصل منه لثقوب ذهنه على
قطعة وافرة علقها من غير تعهد لها ، ولا امعان في غمارها ولا
اكثار من مطالعتها ولا منافسة في اقتناء صحائفها ، أعطته تيجتها
على ذلك ما شاء من تحجير الكلام وقرض قطع من الشعر ذات
طلاوة ، في معان أمدته بها الطبيعة ، وبلغ فيها الإرادة ، واكتبتها

الأدباء للبراعة ، جمع هذه الخلال الظاهرة والباطنة الى جود
كف بارى بها السحاب .

ويقول عنه الفتح في المطمح : « ارتقى الى أبعد غايات الجود
بما أناله وأولاه ، لولا بطش في اقتضاء النفوس كدّر ذلك
المنهل ، وعكّر أثناء ذلك صفو العل والنهل ، وما زال للأرواح
قابضاً وللوثوب عليها رابضاً ، يخطف أعداءه اختطاف الضائر
من الوكر ، ويتتصف منهم بالدهاء والمكر ، الى أن أفضى الملك
الى ابنه المعتد . »

وقد شبهوه لشهامته وصرامته وشجاعة قلبه وحدة نفسه
بأبى جعفر المنصور ثانى خلفاء بنى العباس ، وكان رجلاً غامضاً
لا يسبر غوره ولا يحاط بمده يأخذ بالحزم في توقع الحوادث
واستطلاع الأمور ويسلك في عداد الماكرين الموسومين بفرط
الدهاء وكانت له نظرة فاحصة تصل الى أعماق السرائر وخفايا
النفوس ، وبالرغم من أنه كان شجاعاً مقداماً فانه لم يقدر جيشه
سوى مرتين ، وكان وهو مخدر في عرين قصره باشيلية يضع
الخطط المحكمة لقواده ، وروى عنه في أثناء محاربته لبربر
قرمونة أنه^(١) كان له بها عين يوافيه بأخبار البربر ويطلعه على
الأحوال السائدة بالمدينة ، وأراد المعتضد أن يكتب الى ذلك
الرجل كتاباً في بعض أمره ، فاستدعى رجلاً من أهل اشيلية
شديد البله كثير الغفلة ، وأمره بخلع ثيابه ، وألبسه جبة جعل

(١) المعجب في تلخيص أخبار المغرب صفحة ٩٩ .

في جيبيها كتابا وخاط عليه ، وقال له « اخرج الى قرمونة ،
فاذا وصلت بقربها فاجمع حزمة حطب وادخل بها البلد ، وقف
حيث يقف أصحاب الحطب ، ولا تبعها الا لمن يشتريها منك
بخمسة دراهم ، وكان قد قرر هذا كله مع صاحبه الذي
بقرمونة ، فخرج البدوي كما أمره المعتضد ، فلما قرب من
قرمونة جمع حزمة من الحطب ، ولم يكن قبل هذا يعاني جمعه ،
فجمع حزمة صغيرة ودخل بها البلد ووقف في موقف الخطابين ،
فجعل الناس يمرون به ، ويسومون منه حزمته ، فاذا قال
لا أبيعها الا بخمسة دراهم ضحك من يسمع هذا القول منه ومر
عنه ، فلم يزل كذلك الى أن جنته الليل والناس يسخرون منه ،
فبعضهم يقول هذا آبنوس ! ويقول الآخر لا بل هو عود
هندي ! وما أشبه ذلك ، حتى مر به صاحب المعتضد ، فقال له
« بكم تبيع حزمتك هذه ؟ » فقال « بخمسة دراهم ! » فقال
« قد اشتريتها فأحملها الى البيت » ، فقام يحملها والرجل بين
يديه حتى بلغ بيته ، فوضع الحزمة ودفع اليه الخمسة الدراهم ،
فلما أخذها وهم بالانصراف قال له « أين تريد في هذا الوقت
وقد علمت خوف الطريق ؟ فبت الليلة عندي ، فاذا أصبحت
رجعت الى منزلك » ، فأجابه ، وأدخله الرجل الى بيت وقدم
له طعاماً ، وسأله كأنه لا يعرفه « من أين أنت ؟ » فقال « أنا
من بادية اشيلية » فقال له « يا أخى ، ما الذى جاء بك الى هذا
الموضع وقد علمت نكد البربر وشؤمهم وهوان الدماء عليهم ؟ »
فقال « حملنى على هذا الحاجة » ولم يظهر له أن المعتضد

أرسله ، فلم يزل الرجل يحادثه الى أن أخذ النوم ، فلما رأى غلبة النوم عليه قال له « تجرد من ثوبك هذا فهو أهنا لنومك وأروح لجسمك ! » فتجرد الرجل ونام ، وأخذ صاحب المعتضد الجبة ففتق جيبيها ، واستخرج الكتاب فقراه وكتب جوابه ، وجعله في جيب الجبة وخاط عليه كما كان ، فلما أصبح الرجل لبس جبته ، ورجع الى اشبيلية ، وقصد باب دار الامارة واستأذن ، فأدخل على المعتضد ، فقال له « اخلع تلك الجبة وكساه ثيابا حسنا فرح بها البدوى ، وخرج من عنده فرحا يرى أنه قد خلع عليه ولم يعلم فيم ذهب ولا بهم جاء ! وأخذ المعتضد الكتاب من جيب الجبة فقراه وتمم ما أراده من أمره . وكانت حيل المعتضد لا تنفذ ، والويل لمن كان يتعرض لغضبه ونقمته فليس ينجيه منه شيء ولا يعصمه من أذاه عاصم ، وسيتبعه بنقمته الى آخر الدنيا ، روى عنه أنه^(١) وضع يده على بعض مال لرجل أعمى من بادية اشبيلية ، وذهب باقى مال الرجل حتى افتقر ، ورحل الى مكة ، فلم يزل يدعو على المعتضد بها أن بلغه عنه ذلك ، فاستدعى بعض من يريد الحج وناول له حقاً به دنائير مطلية بالسّم ، وقال له لا تفتح هذا حتى تدفعه الى فلان الأعمى بمكة ، وسلم عليه عنّا ! فاتفق أن سلك الرجل ومعه الحق ، فحين وصل الى مكة لقي الأعمى ودفع اليه الحق وقال له : « هذا من عند المعتضد » فأنكر ذلك

(١) المعجب في تلخيص أخبار المغرب صفحة ٩٨ .

الأعمى وقال « كيف يظلمنى بأشيلية ويتصدق على بالحجاز ؟ »
فلم يزل الرجل يخفضه الى أن سكن وأخذ الحق ، فكان أول
شئ فعله أن فتح الحق وعمد الى دينار من تلك الدنانير فوضعه
في فمه ، وجعل يقلب سائرهما بيده الى أن تمكن منه السم فما
جاء الليل حتى مات .

وكان للمعتضد من وثاقة الجسم وقوة البنية ما مكنه من أن
يضطلع بأعباء الحكم الثقال مع الافراط في الشراب والانغماس
في أنواع المتعة ، وكان هذا الطاغية الجبار يتلطف مع نسائه
ويستميلهن بالقول اللين ، ومن شعره في تقسيمه زمنه شطرين :
شطر لتدير الملك وشطر للمرح واللهو وادمان الخمر :

لعمرك انى بالمدامة قوال

وانى لما يهوى الندامى لفعال

قسمت زمانى بين كد وراحة

فللراى أسحار وللطيب آصال

فأمسى على اللذات واللهو عاكفا

وأضحى بساحات الرياسة أختال

ولست على الادمان أغفل بغيتى

من المجد انى فى المعالى لمحتال

اذا نام أقوام عن المجد ضلة

أسهد عينى أن تنام بى الحال

وان راق أقواما من الناس منطق

يروق بدا منى مقال وأفعال

وكان كلفاً بابتناء القصور العالية ، واعتماد العمارات المغلة ،
واقتناء الملابس الفاخرة وغالى الأعلاق ، وارتبط الخيول
السابحة ، واتخذ من الرجال الذادة عدداً ليس بالقليل ودرّبهم
على الحرب لتمنع بهم ويعز على من رame ويطول ، واتخذ فى
ساحة قصره خشباً جلّلهاء برءوس الملوك والأمراء الذين
قتلهم عوضاً عن الأشجار التى تكون فى القصور وكان يقول :
« فى مثل هذا البستان فليتنزه » .

وقد استهل حكمه بالخلّاص من حبيب وزير أبيه فقتله ،
وسار بعد ذلك على السياسة التى بدأها أبوه القاضى ، واتخذ
موقف المدافع عن العرب ضد البربر ، واستأنف الصراع الذى
بدأه أبوه مع أسرة برزال أصحاب قرمونة ، وكان هناك باعث
شخصى يدفعه الى محاولة استئصال شأفتهم ، فقد أخبره قراء
الطوالع أن الذين سينتزعون الملك من أسرته ويستذلون ذريته
قوم ليسوا من اسبانيا ، ولذلك بذل جهده فى محاربة البربر .
وقد قتل محمد بن عبد الله البرزالى فى كسين سنة ٤٣٤ ، وخلفه
ابنه اسحق واستمر النزاع بينه وبين المعتضد .

ولم يكتف المعتضد بمناوشة البربر فى الجنوب بل أخذ
كذلك يمد أملاكه فى الغرب ، فانتزع مارتلة من يد ابن طيفور
سنة ٤٣٦ ، وهاجم بعد ذلك فتحاً بن يحيى أمير لبلة وكان ابن
يحيى من العرب لا من البربر ، ولكن المعتضد فى سبيل توسيع
أملاكه لم يقم وزناً لهذا الاعتبار ، وقد استنجد ابن يحيى
بالمظفر صاحب بطليوس فأجاره وجمع جيشه وأقبل الى لبلة

ناصر له ودافع ابن عباد عنها ، وشرع المظفر في تكوين حلف لمقاومة المعتضد من باديس صاحب غرناطة ومحمد بن ادريس صاحب مالقة ومحمد صاحب الجزيرة الخضراء وأشفق أبو الوليد ابن جهور الذي خلف أبه أبا الحزم في الاشراف على حكومة قرطبة سنة ٤٣٥ من تلك الحركة على عادته من التخوف من أمثال هذه الحركة ، وجهد جهده في التوفيق بين الطرفين المتنازعين وأرسل رسله تخوفهم سوء العاقبة ، ولكنه لم يوفق في مسعاه ، ولج الفريقان في العناد ، وأعد البربر خطة للزحف على اشبيلية حينما تجتمع أشتات الجيوش ، ولكن المعتضد أفسد عليهم تديرهم ، فقد انتهر فرصة غياب المظفر وهاجم أحواز بطليوس ، وقاد الجيش على خلاف عادته الى لبلة ، وهاجم أعداءه في مضيق على مقربة من أبواب المدينة ، واضطر ابن الأفطس الى التراجع ، ولكنه أعاد تنظيم صفوفه وهاجم جيش المعتضد ، وجعله يعود أدراجه وتمكن المظفر من الانضمام الى حلفائه ، وأخذ الحلفاء في تخريب نواحي اشبيلية ، ولكن الظاهر أن المعتضد استطاع بدهائه أن يحمل ابن يحيى على ترك حلفائه ، ولعله حذره عاقبة انتصار البربر ، ومهما يكن من الأمر فإن ابن يحيى كوّن حلفا مع المعتضد ، وكان في أيام تورطه في حرب المعتضد قد أودع مالا عند المظفر ، فعاقب المظفر ابن يحيى بمصادرة هذا المال ، وأغارت خيله على لبلة فاستغاث بالمعتضد ، فلاحقت به خيله ، واقتتل مع خيل المظفر وهزمتها ، ولم يكتف المعتضد بذلك بل أرسل ابنه اسماعيل

على رأس جيش للتخريب فيما حول يابرة ، وأراد المظفر أن يستنهض عزيمة رعيته لمحاربة المعتضد فقلد كل من يستطيع القتال سلاحا ، وجاء مدد من حليفه اسحق صاحب قرمونة ، فاعتزم الخروج للقاء جيش المعتضد ، وعبثا حاول بربر قرمونة أن يثنوا عزمه ، وحذروه من ضخامة جيش المعتضد ، ولكنه لم يعبأ بنصحهم وركب رأسه وهزم هزيمة شنعاء ، وفقد في الميدان ما لا يقل عن ثلاثة آلاف قتيل منهم اسحق أمير قرمونة الذي كان يقود جيش أبيه ، وقد حز رأسه وأرسل الى المعتضد ، واعتصم المظفر ببطليوس وجعل يشكو الى حلفائه فلا يجد ظهيرا ولا نصيرا ، وسعى ابن جمهور أمير قرطبة بينهما بالصلح كعادته سنة ٤٤٣ ، ولما سكنت الحال بين المعتضد وابن المظفر فرغ المعتضد لحرب الأمراء الأصاغر بالغرب كابن يحيى وابن هارون وابن مرين والبكرى ، وكان ابن يحيى أمير لبلة قد أصبح وحيدا بعد تخليه عن حلفائه ، وكان يعلم أنه لا قبل له بمداغة المعتضد فلم يحاول الدفاع عن المدينة وقصد قرطبة ليقضى بقية أيامه بها ، وترفق به المعتضد فأرسل معه ثلة من فرسانه لتشيعه في طريقه الى قرطبة .

وأدرك عبد العزيز البكرى صاحب ولبة وجزيرة شلطيـش أنه قد حان وقته وجاء دوره فحاول أن ينقذ ما يمكن اتقاذه فكتب الى المعتضد يهنئه بانتصاره ويذكره بصلات المودة القديمة بين الأسرتين ويعلن قبوله سيادة المعتضد على ولبة على أن يتنازل له عن جزيرة شلطيـش ، وقبل المعتضد هذا العرض ،

وقصد ولبة وطلب لقاء عبد العزيز ، ولكن عبد العزيز حمل أمواله الى الجزيرة لأنه وجد من الحزم أن لا ينتظر قدوم المعتضد ، فعاد المعتضد الى قرطبة وأوصى أحد قواده أن يمنع عبد العزيز من مبارحة الجزيرة ويمنع الناس من الذهاب اليها ، ولما علم بذلك عبد العزيز اتفق مع القائد على أن يبيع سفنه ومعداته الحربية لصاحب اشبيلية لقاء ستة آلاف مثقال وحصل على اذن بالارتحال الى قرطبة ، وانتوى المعتضد أن يرسل بعض أعوانه لينهبوا ما معه من المال في أثناء سفره الى قرطبة ، ولكن عبد العزيز أدرك غايته وصحب معه حرسا أرسله اليه أمير قرمونة ووصل قرطبة سالما ومعه أمواله .

وجه المعتضد هجومه بعد ذلك على مدينة شلب وهي قاعدة كورة أكشونية وبقبلى مدينة باجك ، ولها بسائط فسيحة ، وبضائع عريضة . ولها غلات وجنات يقول عنها صاحب الروض المعطار انها (١) : « حسنة الهيئة بديعة البناء » وكان أهلها وسكان قراها في تلك الفترة عرب من اليمن وغيرها وكلامهم بالعربية الصريحة ، وهم فصحاء يقولون الشعر وهم نبلاء خاصتهم وعامتهم وكانت تحكسها أسرة من بنى مزينة العرب ، وكان لهذه الأسرة أملاك واسعة في هذا الجزء من شبه الجزيرة ، وقد تقلدوا مناصب هامة في عهد الخلافة الأموية ، وقد استماتوا في الدفاع عن مدينتهم . ولكن جيش اشبيلية شدد الحصار على المدينة وكان يقوده قيادة اسمية محمد بن المعتضد - وهو الذي

(*) الروض المعطار صفحة ١٠٦ .

لقب فيما بعد بلقب المعتضد على الله - وكانت سنة حينذاك لا تتجاوز الثالثة عشرة - وقذف ابن مزينة بنفسه في معمران المعركة مستهدفا الموت ، ولكن المعتضد أبقى على حياته واكتفى بإبعاده عن المدينة واستولى على المدينة وأقام ابنه محمدا حاكما عليها ، ووجه الأمير جيوشه الى مدينة شنتريّة وهى من مدن أكشونية وواقعة على المحيط الأطلسى - أو البحر الأعظم كما كان يسميه العرب - وبازائها جزائر فى البحر وكان صاحبها سعيد بن هارون وقد استقل بها منذ موت سليمان المستعين وقد خلفه ابنه محمد عليها بعد موته ، ولما هاجمه الاشبيليون لم تطل مقاومته ، وضم المعتضد ناحية شنتريّة الى ناحية شلب ، وجعل ابنه محمدا واليا على المنطقتين وذلك سنة ٤٤٤ هجرية .

وبهذه الفتوحات المتوالية السريعة مد المعتضد حدود سيطرته الى الغرب امتداداً كبيراً ، وكان يحاول توسيع أملاكه فى الجنوب ولكن البربر كانوا يعترضون طريقه ويقفون به بالمرصاد ، وقد سالموه وسالمهم فى تلك الفترة واعترفوا له بسلطانه أو بسلطان هشام الثانى المؤيد الذى كان ينوب عنه ويتولى حجابته ، ولكن المعتضد لم يكن الرجل الذى يكتفى بالسيادة الاسمية ، وكان هدفه القضاء على أمراء البربر والاستيلاء على أملاكهم ، ولكنه كان يتمهل ويستأنى فى تنفيذ خطته ويلتزم الحذر ولا يريد أن يتورط فى مثل هذا العمل الضخم الا بعد أن يأخذ له أهبطه ويستكمل عُدّته .

وقام بعد ذلك بمغامرة تدل على أنه فى بعض الأحيان كان

يخالف ما عرف عنه من فرط الحذر وأخذ الحيطة ، والواقع أن المعتضد على دهائه وحذره لم يكن تنقصه الشجاعة ، ففي إحدى ليالى سنة ٤٤٤ بعد أن شرب مع رجاله وندمائه خرج فى جنح الليل لا يصحبه سوى خادمين وقصد مدينة مورور لزيارة صاحبها ابن نوح ومدينة رندة لزيارة صاحبها ابن أبى قره ، وكان هذان الزعيمان البربريان يعترفان بسيادة اشبيلية وخلافة هشام الثانى ولكن البربر بوجه عام كانوا يضمرون للمعتضد العداء الشديد والكراهة الصماء ، وقد قوبل فى مورور بحفاوة بالغة وأكد له ابن نوح سروره بالزيارة المفاجئة ولم يقصر فى اكرامه ، ولكن المعتضد لم يخاطر بنفسه لكرم الوفادة وتبادل التحايا فقد كان يحاول الوقوف بنفسه على أحوال المدينة ويستميل بعض أعيان البربر وسرعان ما أدرك أن العنصر العربى من أهل المدينة ناظم على حكم البربر متطلع الى الخلاص منهم وأن العرب ينتظرون الفرصة المناسبة لتحرير أنفسهم من سيطرة البربر وأنه يستطيع الاعتماد عليهم فى الوقت المناسب ، ووزع سرا بعض المال على طائفة من البربر البارزين ولم يفتن ابن نوح لهذه الدسائس التى كانت تحاك حوله .

وتابع المعتضد رحلته الى رندة ، وتلقاه أميرها ابن أبى قره بالحفاوة والترحيب ولقى فيها نجاحا أكثر مما لقيه فى مورور لأن عرب رندة كانوا أشد سخطا على حكم بنى أبى قره لأنهم على ما يظهر كانوا أكثر منهم اضطهادا للعرب ، وكاد يفقد حياته فى رندة ثنا لهذه المغامرة ، فقد شعر بأنه فى حاجة ماسة الى

الراحة بعد أن تناول الطعام وعب في الشراب ، وقال لابن أبي
قرة أنه يريد أن يستجم قليلا ، وقاده ابن أبي قرة الى الفراش .
وتظاهر المعتضد بالنوم ولكنه كان يسمع حديث القوم ، فقال
بعض القوم لبعض : « هذا كبش سمين حصل لكم ، والله لو
أنفقتم عليه ملك الأندلس ما قدرتم على حصوله في أيديكم ،
وهو شيطان الأندلس ، وإذا قتل خلصت لكم البلاد » فقام
رجل منهم يدعى معاذ بن أبي قرة وكان من كبرائهم فقال : « والله
لا فعلنا هذا ولا رضينا به ، رجل قصدنا ونزل بنا ، ولو علم
أنا نرضى فيه بقبيح لما أتانا مستأمنا إلينا ، كيف تتحدث
القبائل ؟ اننا اذا قتلنا ضيفنا وخفرتنا ذمتنا فعلى من يرضى هذا
لعنة الله » وسمع المعتضد هذا الحديث كله ، ونهض من الفراش
وأقبل على القوم فقاموا له بأجمعهم اجلالا وقبّلوا رأسه
وجددوا السلام عليه ، فقال لحاجبه : « أين نحن ؟ » فقال له :
« في منزلك وبين أهلك واخوانك » فقال : « ائتوني بدواة
وقرطاس » .

فأتوه بهما ، فكتب أسماء القوم ، وكتب لكل واحد بخلة
ودنانير وأفراس وعبيد وجوار ، وأمر أن يرسل كل واحد
منهم رسولا ليقبض ذلك ، ثم ركب وخرج القوم يشيعونه الى
قرب اشبيلية ، فصرفهم ودخل مدينته ، وأرسلوا من قبض نهم
ما كتب به ، ثم أغفلهم ستة أشهر ، وكتب اليهم يستدعيهم
لوليمة ، فجاءه ستون رجلا منهم ، فأنزلهم عند رجاله وأنزل
معاذاً عنده ، ودعا معهم ابن خزرون صاحب أركش - وهي مدينة

واقعة على نهر وادي لكّة - وشريش القريبة منها وأعد لهم استقبالاً فخماً ، وكما كانت العادة المتبعة دعاهم لدخول الحمام ، واختلق عذراً لابقاء معاذ معه ، وذهب زعماء رندة ومورور وأركش الى الحمام الذي أعد لهم وكان يماثل نظائره في البلاد الإسلامية فهو مشيد من الحجارة وأرضه وحيطانه مغطاة بالرخام وله قبة بها نوافذ ركب بها زجاج غير شفاف ، وكانت مسالك الهواء فيه متصلة بمستوقد وتتخلل الحيطان ولذلك كانت حرارته مرتفعة ، وفي أثناء استمتاع البربر بالحمام سمعوا صوتاً خفيضاً كأنه صوت البنائين وهم يباشرون عملهم ، ولكنهم لم يعيروا اهتماماً ، وبعد قليل أخذت الحرارة تشتد وترتفع وأحسوا بالضيق ، وحاولوا فتح الباب فوجدوه مسدوداً في وجوههم قد بنيت عليه حائط وسدت المنافذ جميعها فماتوا جميعاً مختنقين

وعز ذلك على معاذ بن قره فقال له المعتضد : « لا ترع فانهم قد حضرت آجالهم وقد أردوا قتلى ولولاك ما كنت ناجياً منهم ، وإنما جعل الله صيانة دمي بك ، فان أردت أن أقاسمك في جميع ما أنا فيه فعلت ، وان أحببت الرجوع الى بلدك رددتك على أجمل الوجوه وأحسنها وأسرها ، فقال له معاذ : « بأي وجه أرجع أنا دونهم » . فأمر له المعتضد بألف دينار وعشر أفراس وثلاثين جارية وعشرة أعبد وأنزل في قصر من أعظم قصوره ، وأقطعه في كل عام اثني عشر ألف دينار ، وكان ينفذ اليه في كل يوم التحف والطرف ، ولم يكن يحضر أحد مجلسه قبله ، الى أن مات المعتضد ، فأوصى ولده بمعاذ

وقال له : « يا بنى احفظنى فيه » فجرى ابنه المعتمد على عادة
أبيه ، وعاش معاذ فى اشبيلية حتى انقرض دولة بنى عباد .
وأرسل المعتضد بعد هذه الفعلة الشنعاء جيشا للاستيلاء
على مورور ورندة وأركش وشريش ، وساعد العرب الكارهون
للبربر وحكهم هذا الجيش ولذلك لم يجد مقاومة تذكر فى
اقتحام هذه المدن والاستيلاء عليها ، وكان المنظور أن يجد هذا
الجيش صعوبة فى أخذ رندة لأن أبانصر خلف أباه بها والمدينة
واقعة على جبل شاهق ومحفوفة بأجرف صعبة التسلق وهى
لذلك تعد من المدن المنيعه ، ولكن العرب المقيمين بها ثاروا
بالبربر وأثخنوا فيهم قتلا وهلك أبو نصر نفسه وهو يحاول
الهرب والتماس النجاة فقد تسلق حائطا وزلقت قدمه وسقط
فى هاوية عميقة لقى بها حتفه .

وسر المعتضد سرورا عظيما باستيلائه على رندة ، وبادر
الى تحصينها لتزداد مناعة ولما تم تحصينها ذهب اليها ليشرف
بنفسه على تحصينها واستفزه الطرب وتملكه لزهو فنظم أبياتا
من الشعر يقول فيها :

لقد حصنت يا رندة	فصرت لملكنا عقدة
أفادتنيك أرماح	وأسياف لها حدة
وأجناد أشداء	اليهم تنتهى الشدة
غدرت يرونى مولى	لهم وأراهم عدة
وتبلى به ضلالتهم	ليزداد الهوى حدة
فكم من عدة قتلت	ت منهم بعدها عدة
نظمت رءوسهم عقدا	فحلت لبه السدة

وكان المعتضد كلفا بنظم الشعر في مناسبة تغلبه على البلاد
التي يستولى عليها فلما حسب أن اقليم رية قد أصبح ضمن
أملاكه نظم هذه الأبيات :

أريـة أنت فائدة الزمان فقد قفت الممالك في معان
وقد رمناك من بلد بعيد فأدناك الاله بلا توان
بذلنا جهدنا عزما وحزما ووطنا الكماة على الطعان
وأجهدنا العزائم والمساعي وأعملنا الحسام مع السنان
ليهنىء أهل مالقة انتصارى واعزازى لهم بعد الهوان
سينقذهم وينميهم جميعا رضاع الخير ان درت لبانى
وأرقبهم ذرى درج المعالى كما أجنيثهم ثمر الأمانى
وأضعاف الذى يبدى لسانى اليهم ما يجن لهم جنانى
ألم أعتقهم من ذل كفر جرى فى ضيمهم ملء العنان
وأكتفى من هذه القصيدة بهذه الأبيات التى تدل على فرط
سروره أكثر مما تدل على شاعريته بل ربما أثارت شكوكنا فى
امتياز شاعريته .

وبقدر ما أدخل هذا النجاح على نفس المعتضد من السرور
والابتهاج أثار ثائرة باديس بن حبوس صاحب غرناطة ، وحينما
بلغه نبأ مصرع زعماء البربر فى حادثة الحمام شق ثيابه وأطبق
عليه الحزن وتملكه الغضب ، وحينما علم أن أهل رندة من العرب
قاموا قومة رجل واحد وعمدوا الى قتل البربر تمادى به الكرب
وخشى أن يكون عرب غرناطة متآمرين مع ابن عباد على حياته
وعرشه وساءت حالته النفسية الى حد أن وسوست له نفسه

بقتل العرب المقيمين في داخل مملكته ، ولم يشنه عن هذا الخاطر
النكد الا نصيحة المقربين منه ومستشاريه وحينما التجأ الى
حماء البربر النازحون من مورور وأركش وشرش ورندة صمم
على معاقبة حاكم اشبيلية عدو البربر ، وقام على رأس جيشه
بهجوم على منطقة اشبيلية ومعه البربر النازحون ، ونشبت
معارك بين الاشبيليين ورجال باديس لم يسجل التاريخ أخبارها
وتدل شواهد الأحوال على أنها كانت معارك شديدة دامية لأن
البربر كانوا موتورين وأهل اشبيلية كانوا يكرهون بربر
غرناطة بوجه خاص ويعدونهم من أعداء الاسلام ، وقد عبر عن
عواطفهم أبوبكر بن عمار وهو يمدح المعتضد بقصيدته المشهورة
التي يقول في مطلعها :

أدر الزجاجة فالنسيم قد انبرى
والنجم قد صرف العنان عن السرى
وذلك بقوله في هذه القصيدة :
شقيت بسيفك أمة لم تعتقد
الا اليهود وان تسموا بربرا
أثرت رمحك من رءوس كماتهم
لما رأيت الغصن يعشق مشرا
وخضبت سيفك من دماء نحورهم
لما عهدت الحسن يلبس أحمر
وكانت حالة اللاجئين تبعث على الشفقة ، فقد أبى المعتضد
رجوعهم الى بلادهم ورفض باديس إقامتهم في غرناطة ، ولما

جأوزوا بحر الزقاق الى سبته منعهم حاكمها سقوت من الاقامة بها ، وكانت افريقية تعاني مجاعة وقحطا فى ذلك الوقت مما أدى الى هلاك أكثرهم .

وفى سنة ٤٥٠ استولى المعتضد على الجزيرة الخضراء ، وقد انتزعها من يد القاسم بن حمود أضعف أمراء البربر فى ذلك الوقت .

ووجد المعتضد أنه لا حاجة به الى الخليفة هشام الدعى أو خلف الحصرى فقد اتسع ملكه وثبتت قوائم عرشه فأعلن وفاته ، وقد يكون الرجل قد مات موتا طبيعيا وقد يكون المعتضد قد رأى أن يتخلص منه بالقتل ، ومهما يكن من الأمر فانه دعا وجوه حضرته ونعى لهم امامهم وكشف لهم مقدم وفاته من علة زمانية ووصف أن الحالة التى كان بسبيلها من اشتداد الفتنة عاقته يومئذ عن البوح بوفاته ، فلما سكنت الحال وجب التصريح ، وهكذا انتهت هذه التمثيلية التى قال فيها شيخ مؤرخى الأندلس ابن حيان وفقهها الكبير ابن حزم انها أخلوقة كبرى وأكذوبة لم يعرف الدهر لها نظيرا ، ولقد وجد القاضى أبو القاسم وابنه المعتضد فى هذه الأسطورة سندا للسياسة التى جريا عليها وكثيرا ما استعانت السياسة بالأسطورة ، وتشبه قصة خلف الحصرى من بعض الوجوه قصة الشاب البولندى الذى ادعى أنه الأمير ديمترى بن ايفان الرابع من الأسرة المسكوفية ودخل موسكو دخول الظافر سنة ١٦٠٥ ولما أظهر ميله الى البولنديين ثار به الروسيون وقتلوه .

واحتفل المعتضد بدفن جثة خلف الحصرى أو هشام المزيم
احتفالاً فخياً ومشى في جنازته بوصفه الحاجب وقد خلع
طيلسانه وأرسل البرد بنعيه الى حلفائه فى شرق الأندلس وطلب
اليهم اختيار خليفة جديد لليباعوه ، ولم يفكر أحد بضیعة الحال
فى أن يخطو خطوة فى سبيل تنفيذ ذلك ، فاعتنم المعتضد هذه
الفرصة وأعلن أن الخليفة السابق عهد اليه أن يكون أميراً على
الأندلس جميعها بعده ، ووقف المعتضد جهودده بعد ذلك على
تحقيق هذه الغاية ، وعقد العزم على أخذ قرطبة لكنه صادف
فى هذا السبيل خيبة أمل شديدة .

بدأت جيوشه تشن غارات متوالية على قرطبة ، وفى سنة
٤٥٥ أمر اسماعيل أكبر أولاده وقائد جيوشه أن يستولى على
مدينة الزهراء ، فلم يخف اسماعيل الى طاعة أمر أبيه وكان قد
بدأ منذ زمن يظهر استياءه من والده وتقمته عليه ويشكو
قسوته فى معاملته وتعريضه للمهالك والقذف به فى المواقف
الخطرة والمعارك الطاحنة وحصار المعقل المنيع دون امداده
بالعدد الكافى من الجند وتزويده بالمعدات المناسبة ، وكان فى
اشبيلية رجل مغامر يدعى أبو عبد الله البرليانى ، وقد هجر
هذا الرجل مالقة حينما استولى عليها باديس ، وكان يطمع فى
أن يكون حاجباً ويريد الوصول الى ذلك بأية طريقة ، وأراد
أن يستغل الخلاف بين اسماعيل وأبيه لتحقيق أطماعه ، فعمل
على توسيع شقة الخلاف وأخذ يحرض اسماعيل على الخروج
على طاعة أبيه وزين له الاستقلال باحدى الامارات التابعة لأبيه

مثل الجزيرة الخضراء ، وكان غضب اسماعيل حينما تلقى أمر أبيه بمهاجمة الزهراء في حاجة الى قليل من التحريض ليبلغ الذروة وينتهى الى الغاية ، وطلب اسماعيل من أبيه أن يعده من الجند بأكثر من العدد الذى وكل اليه قيادته ، ورفض المعتضد اجابة هذا الطلب ، وعبثا حاول اسماعيل أن يوضح له أن القوة التى يقودها ليست كافية للاستيلاء على الزاهرة ومنازلة حكومة قرطبة ، وأن باديس وهو حليف أمير قرطبة لن يقصر فى مساعدة أهل قرطبة ويعرض ذلك جيشه للوقوع بين نارين ، ولكن المعتضد أصر على رأيه ولم يقدر الحجاج التى قدمها نجله ، واتهمه بالجن ، وهدده بالقتل اذا امتنع عن تنفيذ الأمر الذى أصدره اليه .

وخرج اسماعيل من حضرة والده غاضبا ثائرا فلما استشار البزليانى فى الأمر أقنعه بأن ساعة تنفيذ الخطة التى اتفقا عليها قد دنت ، فلما كان الجيش على مسيرة يومين من اشبيلية أبلغ قادة الجند أن أباه أرسل يستدعيه لأمر هام ، وقفل راجعا مع البزليانى وصحب ثلاثين فارسا من فرسان الحرس وقصد اشبيلية ، ولم يكن المعتضد فى اشبيلية وانما كان فى حصن الزاهر الواقع على الضفة المقابلة من نهر الوادى الكبير ، ووجد اسماعيل أن قلعة اشبيلية قليلة الحراس فاستولى عليها فى جنح الليل وأوقر ظهور البغال بالنفائس التى أخذها من قلعة أبيه ، ولكى يمنع تسرب الأخبار الى أبيه أمر باغراق الزوارق الراسية

الى جانب الحصن ، وحمل معه والدته وبعض نساء القصر .
ومضى مسرعا الى الجزيرة الخضراء .

وبالرغم من تكتمه واخفاء حركاته فان أحد الفرسان نقل
الخبر الى والده لأنه لم يكن راضيا عن سلوكه ، وقد سبح في
النهر لابلأغه ذلك ، فأنفذ المعتضد في اثره كتائب من الفرسان
لتأخذ عليه مسالكه وبعث بالرسل الى حكام الحصون والقلاع ،
ووافتهم أوامره في الوقت المناسب ، ووجد اسماعيل أن أبواب
الحصون جميعها مقفلة في وجهه ، ولما كان يخشى أن يقع في يد
القشتاليين فقد التمس الحماية من حسداى حاكم أحد الحصون
الواقعة في اقليم شذونة ، ووافق حسداى ولكنه اشترط أن
يظل اسماعيل ورجاله عند سفح الجبل ، ونزل اليه في جماعة من
جنده ونصح له بالعودة الى طاعة والده والسعى في مصالحته
والتماس عفوه ، ورأى اسماعيل أن خطته لم تنجح فقبل مشورة
حسداى ونزل على رأيه ، وأذن له حينذاك حسداى بدخول
الحصن وعامله المعاملة اللائقة بمكاته وبأدر بالكتابة الى
المعتضد ، وذكر له أن اسماعيل نادم على ما فعل وأنه يرجو
صفحته ويلتمس رضاه ، وتلقى حسداى رسالة من المعتضد
أعرب فيها عن استعدادة لقبول عذر نجله والصفح عنه فعاد
اسماعيل الى اشبيلية ورد والده اليه أملاكه ولكنه أقام حوله
حراسة شديدة ، وأمر بقتل البزلياني والذين اشتركوا معه ،
وكان اسماعيل يعلم شدة حرص والده على الانتقام ولذلك
أدرك أن العفو عنه لم يكن سوى شرك استدرجه به والده

وصمم على قتل أبيه ، واستمال بعض الحراس والخدم ، وجمعهم بالليل وقدم لهم الشراب ليزيدهم جرأة وتسلق معهم ناحية من القصر رآها صالحة للمفاجأة وجال في ظنه أنه سيجد والده يغط في النوم فيجهز عليه ، وكان المعتضد كان يتوقع مثل هذه المفاجأة فانه سرعان ما ظهر على رأس حرسه ففر المتآمرون وحاول اسماعيل أن يتسلق سور المدينة ولكن الحراس تعقبوه وأسروه ، واشتد الغضب بأبيه فجره الى داخل القصر وأمر الخدم والحراس بالخروج وقتله بيده ، ونكل بشركائه وأصدقائه وخدمه وحتى بنساء حريمه ، ولما هدأت ثورته ، وزالت حدة غضبه استولى عليه حزن شديد ويأس مؤلم ، وقد أخطأ ابنه وتم له حقه ولكنه لم ينس حبه له فقد كان المعتضد على جبروته وقسوته شديد الحب لأفراد أسرته وبخاصة نجله سماعيل الذي كان يعهد فيه العقل الرشيد والتفكير الناضج والشجاعة في خوض الغمرات ومعاناة الحروب ، ويرى فيه الإنسان الجدير بوراثه عرشه وأكمان خطته وإتمام رسالته وقد علت سنه ، وأفادت هذه الحادثة أهل قرطبة فقد تركها المعتضد آمنة في سلام .

وقد ترك مصرع اسماعيل جرحا عميقا في نفس أبيه ، ولكن المعتضد لم يكن الرجل الذي يستسلم للحزن وينسى مطامعه ، وكان دأبه أن يسير الى تحقيق أهدافه بخطى ثابتة غير مترددة وكانت محاولاته وجهوده متجهة الى تحقيق غرض لا يتغير وهو بسط سلطانه على الأندلس جميعها ، وقد وصل بالمثابرة الدائمة

والكد المتواصل الى تحقيق جانب من أطماعه : ولكن كان لا يزال أمامه الكثير .

وكان العرب في مالقة قد ضاقوا ذرعا بحكم باديس : وكانوا يعرفون أن المعتضد طاغية جبار مثل باديس ولكنهم كانوا يفضلون طاغية من جنسهم على طاغية من جنس آخر ، ولذلك فافوضوا المعتضد ودبروا معه مؤامرة ، وكان باديس يشجعهم على المضي في الاستعداد لهذه المؤامرة بادمائه الشراب وتهاونه في شئون الدولة . وفي اليوم المحدد لتنفيذ المؤامرة اشتعلت نيران الثورة في عاصمته وفي خمسة وعشرين حصن من حصوده . وفي الوقت نفسه عبرت الحدود جيوش اشبيلية يقودها محمد المعتمد بن المعتضد لمساعدة الثائرين ، وأذهلت المفاجأة البربر فاستحرف فيهم القتل ولم ينج منهم الا من ابتدر الفرار ، وفي أقل من أسبوع أصبحت الولاية برمتها في يد أمير اشبيلية ، ولم يمتنع عن التسليم سوى حصن مالقة ، وكان هذا الحصن شديد المناعة وواقعاً على قمة جبل وحراسه من الزنوج ، وكان في وسعه أن يقاوم زمناً طويلاً ، ولذلك كان يخشى أن يفيد باديس من تأخير التغلب على هذا الحصن ويحجى لمساعدة المدافعين عنه . وكان هذا رأى زعماء الثائرين وقد نصحوا محمداً المعتضد بتشديد الحصار على الحصن وأن لا يغفل عن مراقبته ولا يضع ثقته في جماعة البربر المحيطين به والذين يشكون جزءاً من جيشه ، ولكن المعتمد لم يعر نصيحتهم الاهتمام الكافي وعكف على الشراب والاستمتاع وأعجب أهالي المدينة بدمائة خلقه

وكريم خلاله ، واغتر هو بما قاله زعماء البربر في تهوين أمر الحصن وكانوا يخدعونه لميلهم الخفى الى باديس ، وأدخلوا في روعه أن الحصن لا يلبث أن يفتح أبوابه وتستسلم حاميته ، وأهمل جيش المعتمد الحراسة ولم يتخذ الحيطة اللازمة ، وكانت عواقب هذا الإهمال شديدة الشؤم فقد طير حراس الحصن الخبر الى باديس ووصفوا له حال جيش المعتمد ، وذكروا له أن مفاجأة الجيش الأشبيلي ميسورة وأرسل باديس كتائبه فلم تجد مجالا للحرب والنزال وانما أصابت فرصة للقتل والابادة فقد كان جنود اشبيلية متفرقين في ارتياد الملذات ، وأصحاب المعتمد كانوا عاكفين على الشراب ، وهرب المعتمد الى رندة ، وأخفقت الحملة ، واسترد باديس ولايته وعاد الى قاعدته .

وغضب المعتمد غضبا شديدا على ابنه الذى أضاع ولاية وبدد جيشا ، وأمر باعتقاله في رندة ونسى ندمه على قتل أكبر أبنائه وهم بقتل المعتمد لإهماله وتقاعده وإضاعة فرصة ثمينة لا تسنح في كل وقت ، وهى الاستيلاء على مالقة .

وكان المعتمد يجهل المدى الذى وصل اليه غضب أبيه فأخذ يرسل اليه القصائد يمدح فيها كرمه ، ويلتمس عفوّه ، ويستميل قلبه ، ويطلب رضاه ويهون عليه الخسارة بالاشادة بسابق انتصاراته ، وباهر فتوحاته ، وحاول أن يبرىء نفسه ويلقى عبء اللوم على البربر الخونة ووصف ما اتقاه من الحزن لاخفاق الحملة وما ألم به من الكرب ، وأنه قد أصبح زاهدا في كل متع

الدنيا ولا يرجو شيئاً سوى عفو والده ، وقال في أولى هذه القصائد التي استعطف بها أباه :

سكن فؤادك لا تذهب بك الفكر
ماذا يعيد عليك البث والحذر
وازجر جفونك لا ترض البكاء لها
واصبر فقد كنت عند الخطب تصطبر
وان يكن قدر قد عاق عن وطير
فلا مرد لما يأتى به القدر
وان تكن خيبة في الدهر واحدة
فكم غزوت ومن أشياحك الظفر
ان كنت في حيرة من جرم مجترم
فان عذرك في ظلماتها قمر
كم زفرة في شغاف القلب صاعدة
وعبرة من شئون الدهر تنحدر
فوض الى الله فيما أنت خائفه
وثق بمعتضد الله يغتفر
واصبر فانك من قوم ذوى جلد
اذا أصابتهم مكروهة صبروا
من مثل قومك من مثل الهمام أبى
عمرو أييك له مجد ومفتخر
سميدع يهب الآلاف مبتدئاً
ويستقل عطاياه ويعتذر

له يد كل جبار يؤيدها
لولا نداها لقلنا انها حجر
يا ضيغماً يقتل الفرسان مفترساً
لا توهننى فانى الناب والظفر
وفارسا تحذر الأبطال صولته
صن عبدك القن فهو الصارم الذكر
هو الذى لم تشم يمينك صفحته
الا تأتى مراد وانقضى وطير
قد أخلفتني ظروف أنت تعلمها
وغال مورد آمالي بها كدر
فالنفس جازعة والعين دامعة
والصوت منخفض والقلب منكسر
وحلت لونا وما بالجسم من سقم
وشبت رأساً ولم يبلغنى الكبر
ومت الا ذمءاً فى يمسكه
أنى عهدتك تغفو حين تقتدر
لم يأت عبدك ذنباً يستحق به
عتباً وها هو ناداك يعتذر
ما الذنب الا على قوم ذوى دغل
وفى لهم عهدك المعهود اذ غدروا
قوم نصيحتهم غش وحبهم
بغض ونفعهم - ان صرفوا - ضرر

يُمَيِّزُ الْبَغْضُ فِي الْأَلْفَاظِ أَنْ نَنْظُرُوا
وَيَعْرِفُ الْحَقْدُ فِي الْأَلْحَاضِ أَنْ نَنْظُرُوا
أَنْ يَحْرِقَ الْقَلْبَ نَفْثٌ مِنْ مَقَالِهِمْ
فَإِنَّمَا ذَاكَ مِنْ نَارِ الْقَلْبِ شَرُّ
مَوْلَايَ دَعْوَةُ مَمْلُوكٍ بِهِ ظَمًا
بِرَحٍّ وَفِي رَاغِبِيكَ السَّلْسِلُ الْخَصْرُ
أَجِبْ نِدَاءَ أَخِي قَلْبٌ تَمْلِكُهُ
أَسَى وَذِي مَقْلَةٍ أَوْدَى بِهَا السَّهْرُ
لَمْ أَوْتَ مِنْ زَمَنِي شَيْئًا أَلَذَّ بِهِ
فَلَسْتُ أَعْهَدُ مَا كَأَسَ وَلَا وَتَرُ
وَلَا تَسْلُكُنِي دُلَّ وَلَا خَفَرُ
وَلَا سَبِي خَلْدِي عُنْجُ وَلَا حُورُ
رِضَاكَ رَاحَةٌ تَقْسِي لَا فَجَعْتُ بِهِ
فَهُوَ الْعِتَادُ الَّذِي لِلدَّهْرِ يَدْخُرُ
هُوَ الْمَدَامُ الَّتِي أَسْلُو بِهَا فَاذَا
عَدِمْتُهَا عَبَثْتُ فِي قَلْبِي الْفَكْرُ
أَجَلَ وَلِي رَاحَةٌ أُخْرَى كَلَفْتُ بِهَا
لَنْظَمِ الْكَلَى فِي الْقَنَا وَالْهَامُ تَنْتَشِرُ
مَا تَرَكَى الْخَمْرُ مِنْ زَهْدٍ وَلَا وَرَعٍ
فَلَمْ يَفَارِقْ لِعَمْرِي سَنَى الصَّغْرِ
وَإِنَّمَا أَنَا سَاعٌ فِي رِضَاكَ فَانْ
أَخْفَقْتُ فِيهِ فَلَا يَفْسَحُ لِي الْعَمْرُ

ما سرنى وأحاشى عصر عطفكم
يوم أخل به فى عينى القصّر
كم وقعة لى فى الأعداء واضحة
تفنى الليالى وما يفنى لها الخبر
لا زلت ذا عزة قعساء شامخة
لا يبلغ الوهم أدناها ولا البصر
ولا يزل وزر من حسن رأيك لى
آوى اليه فنعم الكهف والوزر

وكان المعتضد ممن يهزمهم الشعر ويؤثر فى نفوسهم ، ولم
يكن المعتمد يطيل فى قصائده وأكثر شعره مقطوعات يث فيها
خوالج نفسه ولكنه تعمد الاطالة فى هذه القصيدة على غير عادته
لأنه عرف شدة غضب أبيه ، وأراد أن يستلين قلبه ، ويلتمس
عفوه ، ولم يكتف بهذه القصيدة التى استوفى بها شرح قضيته ،
ووصف حالته ، بل اتبعها بمقطوعات أخرى يكرر اعتذاره
ويعترف بخطئه ويرجو الصفح والغفران منها قوله :

أيا ملكا يجلب عن الضريب	ومن يلتذ غفران الذنوب
ومن فى كفه بؤسى وثعمى	تصرف فى العدو وفى الحبيب
تسخطك الممض أعل نفسى	وما لى غير عفوك من طيب
ولست بسكر ذنبى ولكنى	ى قد جئت فى حال المريب
فان عاقبتنى فجزاء مثلى	وان تصفح فليس من الغريب
بقيت مؤيدا ما لاح برق	وما غنى الحمام على قضيب

ومنها هذه المقطوعة التي أرسلها اليه ليسترضيه بها في
هذه المناسبة :

مولاي أشكو اليك داءً أصبح قلبي به جريحاً
ان لم يرحه رضاك عنى فليست أدرى له مريحاً
سخطك قد زادني سقاماً فابعث اليّ الرضا مسيحاً
واغفر ذنوبي ولا تضيق عن حملها صدرك الفسيحاً
لو صور الله للمعالي جسماً لأصبحت فيه روحاً

وقد استطاع المعتمد بهذه الأشعار البليغة المؤثرة أن يستل
الغضب من نفس أبيه ويستعيد رضاه عنه فسمح له بالعودة الى
اشبيلية ، والأشعار التي كان يرسلها المعتمد الى أبيه تدل بوجه
عام على ما كان يكنه لأبيه من الاجلال والاعظام ، وفي أكثر
المقطوعات التي كان يوجهها الى أبيه كان يجعل نفسه في مكان
العبد الشاكر ويرخص قدره ليعلبي من قدر أبيه ، من ذلك قوله :

ألا يا مليكا ظل في الخطب مفزعاً

ويا واحدا قد فاق ذا الخلق أجمعاً

ترفق بعبد وده لك شيمة

إذا كان ود من سواه تصنعاً

أقلني تجد عبدا شكورا وصارماً

يحز من الأعداء ليتاً وأخدعاً

وهو لم يكتف بأن يجعل نفسه في مخاطبته لأبيه « عبدا »
وكأنه استكثر أن يكون عبدا فجعل نفسه « عبيدا » في قوله :

مولاي يا ذا الأيادي كواكفات الغوادي

أنا عبيد معد لحسم داء الأعادي

وبعث الى آييه مرة أبيتا من الشعر يطلب بها جواداً فرأى
أن يقرن هذا الطلب بذكر « العبودية » فقال :

لعبدك هممة هامت بركض الضمر القود

وواضح أن المعتمد كان يشعر بأن آباه الطاغية الجبار يروقه
مثل هذا الخضوع ، وكان يمثل هذا الشعر يتقى غضباته ويأمن
شره ، واقدام المعتضد على قتل ابنه اسماعيل بيده جعل أقرب
الناس اليه وخاصته يخشون بأسه ويهابون سطوته .

وفي عهد المعتضد قويت حركة الاسترداد الاسبانية فقد
استطاع فرناندو الأول ملك قشتالة وليون أن يوجه جيوشه
لمحاربة مسلمى الأندلس ، وكانت تحدد رجاله الروح الحربية
والحماسة الدينية ولذلك أحرز انتصارات باهرة ، ولم يكن في
وسع أحد من ملوك الطوائف أن يكون له نداء أو أن يثبت أمام
هجوم جيوشه ، ولم يجد المظفر صاحب بطليوس والمأمون سيد
طليطلة وحاكم سرقسطة حيلة يدفعون بها شر فرناندو ويستبقون
بها نفوذهم سوى أن يقدموا له كميات وافرة من الذهب
والفضة والأحجار الكريمة والاعتراف بسلطانه وأداء الجزية
السنوية له .

وفي سنة ٤٥٥ء جاء دور المعتضد ، فأخذت جنود فرناندو
تعيث فساداً في منطقة اشبيلية ، وتحرق القرى ، وكان المعتضد
أقوى ملوك الأندلس المسلمين ولكنه لم يكن له طاقة على
مقاومة جيش فرناندو ، ولذلك وجد من الحزم أن يصنع كما
صنع أضرابه من ملوك الطوائف ، فزار معسكر فرناندو وقدم

له الهدايا الثمينة وتوسل اليه أن يبقى عليه ملكه ، ولم تكن سن المعتضد حينها مثل بين يدي فرناندو قد تجاوزت السابعة بعد الأربعين ، ولكن لا كباب على العمل واحتسب التبعات الثقال ومعاناة الهسوم التي تخترم الجسيم نحافة والافراط في الشهوات أنهكت جسمانه . وهدت وثيق بنيانه ، فبدا أمام فرناندو شيخا أبيض الشعر متغضن الجبين قد علاه وقار الشيخوخة وجلله الشعر الأبيض مهابة مما أثر في نفس فرناندو وجعله يستجيب لرجائه ويكتفى بقبول الهدايا الثمينة وفرض الجزية السنوية .

وكان المعتضد في السنوات الأخيرة من حياته ، كاسف البال مكروبا قد أطبقت عليه الشجون وتناهتته الخطوط السوداء ، ولم يكن يخشى على عرشه الذي ارتكب كل ضروب القسوة لتثبيت قوائمه من القشتاليين أو غيرهم من سكان الجزيرة ، فقد أخبره المنجمون وأصحاب الملاحم وقراء الطوالع أن خالعه أو خالعي ولده ومخرجيه من ملكه قوم يأتون من العدو ، وقد اعتقد في بادئ الأمر أن هؤلاء القوم هم جيرانه من البربر الوافدين على الأندلس ولكن بعد أن تغلب عليهم وابتز ملكهم وظن أنه قد كذب المنجمين وأبطل أحكام قراء الطوالع وجد أنه قد أخطأ في حسابه ، ففي الجانب الآخر من مضيق بحر الزقاق ظهر زعيم ديني جليل الشأن عظيم الخطر تجمعت حوله جموع غفيرة من بربر الصحراء الكبرى ، وقويت حركته ، وتفاقم خطره ، وبلغ المعتضد نزول هذا الزعيم ورجاله من قبيلتي لمتونة ومسوفة -

وهما من قبائل البربر - رحبة مراکش ، فكثرت مخاوفه ، ودخل عليه بعض وزرائه وفي يده كتاب قد أطلال فيه النظر ، فاذا به من سقّوت المنتزى يومئذ بسبته يذكر أن القوم الملتصين المدعوين بالمرابطين قد وصلت مقدماتهم رحبة مراکش ، فقال له الوزير المذكور حينما شاهد فرط اهتمامه بهذا الخبر : « وأين رحبة مراکش ؟ ودخلوها فكان ماذا ؟ ان بيننا وبينهم اللجج الخضر والمهامه الغبر والليالى والأيام والجماهير العظام » .

فأجابه المعتضد « هو والله الذى أتوقعه وأخشاه ، وان طالت بك حياة فستراه ، اكتب الى عاملنا على الجزيرة باحتراس جبل طارق حتى يأتيه أمرى » وأخذ يرش فى تحصينه ووضع أرساده هناك وعيونه .

وجمع ولده وجعل ينظر اليهم مصعداً ومصوباً ويقول : « ياليت شعرى من تناله معرة هؤلاء القوم أنا أو أتم ؟ » فقال له أبو القاسم - المعتضد - « جعلنى الله فداك وأنزل بى كل مكروه يريد أن ينزل بك ! » ويقول المراكشى الذى روى لنا هذه الرواية^(١) : « انها كانت دعوة وافقت المقدار » .

والواقع أن المعتضد كان لا يغفل عن مراقبة التيارات السياسية والأحداث الهامة التى تقع فى عصره ، وقد ترامت اليه أخبار حركة المرابطين وتقدمهم السريع ، وكان هو من أسبق أمراء الأندلس الى تقدير خطورة هذه الحركة وادراك ما تنطوى

(١) المعجب صفحة ١٠١ .

عليه من تهديد للأمراء والملوك الأندلسيين ، ولذلك أوصى عامله
على الجزيرة الخضراء أن يكون شديد اليقظة ، كامل الأهبة ،
وأن يديم مراقبة حركة المرابطين .

وتداعت بنيته القوية ، ودب فيها المرض ، وأصابته علة
الذبحة فلم تطل مدتها ، ولما أحس بتداني حمامه استدعى مغنيا
يغنيه ليَجعل أول ما يبدأ به فألا ... فأول ما غنى :

نطوى الليالى علماً أن ستطوينا فشعشعها بماء المزن واسقينا
فتظير من ذلك ، ولم يعش بعدها سوى خمسة أيام ، وقيل
انه ما غنى منها الا بخمسة أبيات ، وشاءت الأقدار أن يذهب
المعتضد الى قبره مكلوم الفؤاد موجه النفس فقد فجع بابنة له
غضة السن صغيرته أصابها الحنّاق فشيّعها الى القبر دافع العين
مسلوب العزاء متأجج الحشرات وعزاه عن فقدها الشاعر
الأندلسى الكبير الوزير ابن زيدون بقصيدة بليغة يقول منها :

سرّك الدهر وساء	فاقن شكرا وعزاء
كم أفاد الصبر أجرا	واقضى الشكر نماء
أنت ان تأس على المف	قود الفا واجتباء
فاسل عنه غيرة واح	تتمل الرزء اباء
أيها المعتضد المن	صور ملّيت البقاء

ولكن هذه الدعوة التى أرسلها شاعره لم تستجب فان
بقاءه لم يطل بعد ابنته العزيزة عليه ، وقد توفيت يوم الخميس
وكان قد مضى يومان على سماعه المقطوعة التى تغنى بها المغنى
وتشاءم المعتضد منها ، وشيّعها الى القبر مساء يوم الجمعة ،

وبعد انتهاء الاحتفال بالجنائز شكا ألما شديدا في رأسه وأصابه
في عقبه نزيف كاد يذهب بحياته ، وأراد الطبيب أن يفصده ،
ولكنه تمرد على أمر الطبيب وأمره أن ينتظر الى الغد التالي ،
وزاد هذا التأخير حالته خطورة واشتد النزيف في اليوم التالي
وهو يوم السبت ثم فقد النطق ، ولفظ النفس الأخير ^(١) يوم
الاثنين غرة جمادى الآخرة سنة ٤٦١ ودفن ثانيا يوم بمدينة
اشبيلية ، وقام بالمملكة بعده ابنه أبو القاسم محمد الذي اتخذ
فيما بعد لقب المعتمد على الله ، وفي ذلك يقول الحصرى ^(٢) :

مات عباد ولكن بقى الفرع الكريم
فكان الميت حى غير أن الضاد ميم
وقد رثاه ابن زيدون بقصيدة طويلة حسنة النظم جيدة
السبك مثل سائر شعر هذا الشاعر القدير قال في مطلعها :

هو الدهر فاصبر للذى أحدث الدهر
فمن شيم الأحرار في مثلها الصبر
ستصبر صبر اليأس أو صبر وحشة
فلا تؤثر الوجه الذى معه الوزر
حذارك من أن يعقب الرزء فتنة
يضيق بها عن مثل ايسانك العذر
إذا آسف الشكل اللبيب فشفته
رأى أقدح الثكلين أن يذهب الأجر

(١) وفيات الأعيان الجزء الرابع صفحة ١١٥ .

(٢) نفع الطيب الجزء الخامس صفحة ٣٧٧ .

مُصاب الذي يأسى بموت ثوابه
هو البرّاح لالميت الذي أحرز القبر
حياة الورى نهج الى الموت مهيع
لهم فيه ايضاع كما يوضع السفر
اذا الموت أضحي قصد كل معمر
فان سواء طلال أو قصر العسر
وعرج على ذكرى المعتضد فقال :

ألم تر أن الدين ضيم ذماره
فلم تغن أنصار عديدهم كثر
بحيث استقل الملك ثاني عطفه
وجرر من أذياله العسكر المجر
أنفس نفس في الورى أقصد الردى
وأخضر علق نلهدى أفقد الدهر
أعبادي آوفي الملوك لقد عدا
عليك زمان من سجيته القدر
فهاه عداه أنّ عليك حليّه
وذكرك في أردان أيامه عطر
غشيت فلم تغش الطراد سوابح
ولاجردت بيض ولا أشرعت سمر
لئن كان بطن الأرض هنيء أنسه
بأنك تأويه لقد أوحش الظهر

ولا ثنت المحذور عنك جلالة
ولا عدد دثر ولا نائل غمر
واتقل الى ذكر خليفته المعتضد محمد أبى القاسم المعتمد
فقال :

فهل علم الشَّلَوُ المقدس أننى
مسوغ حال ضل فى كنهها الفكر
وان مكانى لم يضعه محمد
خليفتك العدل الرضا وابنك البر
وأرغم فى برى أنوف عصاة
لقاؤهم جهنم ولحظهم شزر
اذا ما استوى فى الدّست عاقد حَبوة
وقام سماطا حفله فلى الصدر
وفى نفسه العلياء لى متبواً
يساجلنى فيه السماكان والنسر
لك الخير ان الرزء كان غيابة
طلعت لنا فيها كما طلع البدر
فقرت عيون كان أسخنها البكا
وقرت قلوب كان زلزلها الذعر
ويختم ابن زيدون قصيدته العصماء بمدح المعتمد قائلاً :
عطاء ولا من وحكم ولا هوى
وحلم ولا عجز وعز ولا كبر

قد استوفت النعماء فيك تمامها^(١) علينا فمنا الحمد لله والشكر

(١) قال ابن بسام في الذخيرة (في القسم الأول - المجلد الأول صفحة ٣٦٩)
بعد أن أورد طائفة من أبيات القصيدة التي أشرت إليها وذكرت ما يناسب
المقام من أبياتها : « وبلغنى أنه وجد لابن زيدون اثر موت عباد (المعتضد) شعر
يقول فيه :

لقد سرنا أن النعمى موكل بطاغية قد حمّ منه حمام
تجانب صوب المزن عن ذلك الصدى ومر عليه العيث وهو جهّام

والمعروف عن حياة الشاعر ، النثر القدير ابن زيدون أنه نشأ في قرطبة ، ونبغ في
الادب ، وتقلد الوزارة لأبى الوليد بن جهور أحد أمراء الطوائف ، وظل موضع ثقته
زمنًا طويلا ، وتمكن من دولته ، واعتمد عليه في السفارة بينه وبين ملوك الأندلس ،
واتفق أن نقم عليه أمرا فحبسه ، وتغير قلبه عليه ، وحاول ابن زيدون أن يسترد
مكانته عنده فاستعطفه برسائل عجيبة ، وقصائد بديعة ، ولكنها لم تنجح ، فهرب
من سجنه ، ولاذ بحمى المعتضد صاحب اشبيلية ، فتلقاه بالقبول والاكرام ، وأنزله
منزلة الوزير ، وجعله من خواصه ، يجالسه في خلواته ، ويركن الى اشاراته ، ولما
توفي المعتضد وخلفه ابنه المعتمد جرى على سنة أبيه في اكرام ابن زيدون ، وقيّاه
ظل رعايته ، ولم يقبل الوشاية فيه كما سرى القارىء في الفصل القادم ، ولما توفي
ابن زيدون في سنة ٤٦٣ قرب المعتمد ابنه أبا بكر ومنحه ثقته ثم اختاره وزيرا له
وظل أبو بكر بن زيدون في دست الوزارة حتى قتل يوم اقتحام المرابطين مدينة
اشبيلية سنة ٤٨٤ ، وواضح من ذلك أن الأسرة العبادية أكرمت ابن زيدون وولده
أبا بكر فأوت الأول وهو طريد شريد هارب من السجن مفضوب عليه من أميره
وسيده ورقت بابنه الى مراقى الوزارة ، فاذا صحت نسبة البيتتين اللذين رواهما
ابن بسام لابن زيدون فهو موقف منه يدعو الى شيء من التعجب ولا يدل على خلق
كريم ، وقد كان للمعتضد أعداء كثيرون وربما يكون أحدهم قد نظم هذين البيتتين
ودسهما على ابن زيدون ، ويا حبذا لو كان ابن بسام نفسه قد صارحنا برأيه في
هذا الموضوع في إحدى تعليقاته التي كثيرا ما كان يوردها في كتابه القيم ورحض
عن الشاعر عار مثل هذا الموقف المتناقض .

المعتمد على الله وابن عمته

ولد المعتمد سنة ٤٣٢ بمدينة باجّة ، إحدى مدن غرب الأندلس ، وهى من أقدم مدائنها وكانت بها معقل موصوفة بالمنعة والحصانة ، وكان فى التاسعة بعد العشرين حينما خلف أباه المعتمد على عرش اشبيلية ، وقد حاول أبوه أن يدرّبه على الحكم وقيادة الجيوش فى بواكير نشأته ، فقلده وهو فى الثانية عشرة من عمره على الأكثر الحكم بمدينة أوثبة وهى مدينة مستنعة بين جبال ضيقة المسالك تعد من المدن البرية البحرية (١) وبينها وبين البحر - المحيط الأطلسى - نحو ميل ، وأسند إليه بعد ذلك قيادة الجيش الذى حاصر مدينة شلب ، وبهذه المدينة الواقعة فى قاصية غرب الأندلس عرف المعتمد هذا المغامر الذى كان يكبره بتسع سنوات وكان له تأثير بعيد المدى فى حياته ، وهذا المغامر هو محمد بن عمار ، وكان يكنى أبا بكر ، وأهله من شلب من قرية من أعسائها يقال لها شنبوس ، وكان مولده ومولد آبائه بها ، وكان هذا الرجل حامل البيت ، ليس له ولا لأسلافه نصيب من شيوع الذكر ولا عراقاة الأصل ، وقد ورد مدينته شلب طفلاً ، فنشأ بها وتلقى الأدب على جماعة من علماءها

(١) كتاب الروض المطار للحميرى صفحة ٣٥ .

ومتأديها ، ثم رحل الى قرطبة فتأدب بها ، وكان من أصحاب المواهب الأدبية ، فمهر في صناعة الشعر ودراسة الأدب ، وكان قصاراه التكسب بهما ، وقد ظل يتنقل في نواحي الأندلس يلتمس الرزق ، وينشد بسطة الكف ، وينظم عقود الثناء لكل من يستطيع أن ينفحه بالقليل من المال الذي يقيم به أوده ، وكان شعراء عصره المشهورون لا يتنازلون الا لمدح الأمراء الأعماد ، والأعيان الغطاريق ، وكبار الوزراء والحجباء وعلية القوم من ذوى الأحساب والأنساب ، ولكن هذا الشاب الخامل لذكر المتواضع النشأة كان في حاجة الى ما يتبلغ به ويسد خلته ، فلم يزل يجول في الأندلس مسترفداً لا يبالي ممن أخذ ولا من استعطف من أعيان أو سوقة .

روى عنه المراكشي ^(١) أنه ورد في بعض سفراته شلب لا يملك الا دابة لا يجد علفها ، فكتب بشعر الى رجل من وجوه أهل السوق ، فكان قدره عند ذلك الرجل أن ملأ له المخلاة شعيراً ووجه بها اليه ، فرآها ابن عمار من أجل الصلات وأسنى الجوائز .

ولم يزل ابن عمار يعاني هذه الحالة الخشنة ويتجرع مرارتها ويتقلب في بلاد الأندلس للاستجداء والاستعطاف الى أن ورد سدة المعتضد فامتدحه بقصيدة ننانة تدل على أنه في ذلك الوقت كان قد أتقن صناعة الشعر يقول في مطلعها :

(١) المعجب للمراكشي صفحة ١١٤ .

أدر الزجاجة فالنسيم قد أنبرى
والنجم قد صرف العنان عن السرى
والصبح قد أهدى لنا كافورة
لمّا استرد الليل منا العنبرا

والظاهر أنه كان قد استكمل ثقته بنفسه في نظم الشعر فقد
عارض بهذه القصيدة قصيدة أبي الطيب المتنبي في مدح الوزير
الكاتب الأديب ابن العميد التي يقول في مطلعها :
باد هواك صبرت أم لم تصبرا
وجواك ان لم يجر دمعك أو جرى

وقد استحسن المعتضد هذه القصيدة ، وكان المعتضد
حسن التذوق للشعر ، يرتاح لجيده ويجيز عليه ويشجع قائله
ويظلمهم برعايته ، فأمر لابن عمار بعد سماعه هذه القصيدة بمال
وثياب ومركب ، وأن يكتب اسمه في ديوان الشعراء ، فكان
كذلك وأتاح له ذلك فرصة الاتصال بالمعتمد وهو شاب ناشئ
نزاع الى الأدب أوتى الموهبة الشعرية ، وتوثقت بينهما
الصداقة ، وكان ابن عمار على ما يبدو شائق الحديث ، جذاب
الشخصية ، طب باستهواء النفوس ، واختلاب الألباب ، وقد
عركته الحوادث ، وصقلته التجارب ، فلما ولي المعتمد الحكم في
مدينة شلب استوزر ابن عمار ، وأولاه ثقته ، ووكل اليه
أموره ، وأكد بينهما الود أن الاثنین كانا من هواة الشعر
والأدب ، وغواة المغامرات والانطلاق وراء المتع واللذات ،
ومدينة شلب التي كانت ميدان لهوهما تعد جنة بلاد البرتغال ،

ولقد كانت ذكرى تلك الأيام انهائة السعيدة التي قضياها في تلك المدينة ما تنفك تطالعهما بأخيلتها لمحبة ، ولم يكن الحب قد وجد سبيله بعد الى قلب المعتمد فاتجهت عواطفه كلها الى تأكيد هذه الصداقة وتقويتها واستدامتها . وكان هناك بضيعة الحال فرق كبير بين نشأة هذين الصديقين . فالمعتمد نشأ في ظلال الملك ومقاصير العز ، وصاحبه نشأ محروما مصدوما ، وتعرض لألوان من الشدائد ، وعرف ضيق الرزق وذل الحاجة فلما قرب به المعتمد واصطفاه وأخذ بضيعة كانت آثار ما عاياه من البؤس والعيشة الضنك لا تزال عالقة بنفسه مخلقة فيها من العقد ما ينغص عليه متعه . ويبقى على حياته ظلالة كامدة اللون . وقد قرَّبه المعتمد أشد تقرب ، وخلط به نفسه حتى كان كما يقول المراكشي ^(١) : « يشاركه فيما لا يشارك فيه الرجل أخاه ولا أباه » ، ويروي لنا المراكشي خبرا عجيبا حدث لهما وهما ينعمان معا في شلب ، ذلك ان المعتمد استدعاه ليلة الى مجلس انسه على ما دنت العادة جارية به ، الا أنه في تلك الليلة زاد في تحفي به ، وبر له على المعتاد ، فلما جاء وقت النوم أقسم المعتمد عليه : « لتضعن رأسك معي على وساد واحد ! » فكان ذلك . قال ابن عسار : « فهتف بي هاتف في النوم يقول : « لا تغترأيها لمسكين ، انه سيقتلك ولو بعد حين ! » قال : « فاتبعت من نومي فزعا وتعوذت ثم عدت ،

(١) المعجب صفحة ١١٧ .

فهتف بى الهاتف على حالته الأولى ، فاتتبهت ثم عدت فسمعتة
ثالثة ، فاتتبهت فتجردت من ثيابى والتفتت فى بعض الحصر ،
وقصدت دهليز القصر مستخفيا به ، وقد أزمعت على أنى إذا
أصبحت خرجت مستخفيا حتى آتى البحر فأركبه وأقصد بلاد
العدوة فأكون فى بعض جبال البربر حتى أموت ، فاتتبه المعتمد ،
فافتقدنى فلم يجدنى ، فأمر بطلبى ، فطلبت له فى نواحي القصر ،
وخرج هو بنفسه يتوكأ على سيفه والشمعة تحمل بين يديه ،
فكان هو الذى وقع على ، وذلك أنه أتى دهليز القصر يفتقد
الباب هل فتح ، فوقف بازاء الحصار الذى كنت فيه ، فكانت
منى حركة فأحس بى ، وقال ما هذا يتحرك فى هذا الحصار ؟
ثم أمر به فنفض ، فخرجت عريان ليس على الا سراويل ! فلما
رأنى فاضت عيناه دموعا وقال : « يا أبا بكر ، ما الذى حملك
على هذا ؟ فلم أر بدا من أن أصدقك ، فقصصت عليه قصتى من
أولها الى آخرها . فضحك وقال : « يا أبا بكر ، أضغاث
أحلام ، هذه آثار الخمار ، ثم قال لى : « وكيف أقتلك ؟ رأيت
أحدا يقتل نفسه ؟ وهل أنت عندى الا كنفسى ؟ فشكر له ابن
عمار ، ودعا له بطول البقاء ، وتناسى الأمر فنسيه » .

وكان ابن عمار يصحب المعتمد فى غدواته وروحاته ،^(١)
وقد ركب المعتمد فى بعض الأيام قاصدا الجامع وابن عمار
يسايره ، فسمع أذان المؤذن فقال المعتمد :

(١) نفع الطيب الجزء الخامس صفحة ١٤٩ .

هذا المؤذن قد بدا بأذانه.

فقال ابن عمار :

يرجو بذاك العفو من رحمانه .

فقال المعتمد :

طوبى له من شاهد بحقيقة .

فقال ابن عمار :

ان كان عقد ضميره كلسانه .

وفي هذه المحاولة الشعرية العابرة يظهر لنا جانب من الفرق بين العقليتين أو المزاجين ، العقلية الواثقة المطمئنة والعقلية المتوجسة المشككة ، والتجارب التي مر بها ابن عمار تركت في نفسه مرارة ، وأعقبته سوء ظن بالطبيعة الانسانية ، ولم يغير هذه الحالة ما أحاطه به المعتمد من الود وما اختصه به من الرعاية ، والشك وسوء الظن اللذانى غلبا على ضبعه كانا يجعلانه لا يثق الا بنفسه ، وقد قوَّى في نفسه هذه النزعة أن الرجل كانت فيه طبيعة المغامرين الوصوليين ، فاتجاه تفكيره ومحور سياسته اقتناص الفرص واتزاع المناسبات لتوطيد مكائده واعلاء شأنه ، فالدنيا وجدت لتحقيق غاياته ، واشباع شهواته ، والناس خلقوا ليستغلهم ويسخرهم في سبيل مطامعه ، وهو القائل في مطلع إحدى قصائده المشهورة :

علىَّ والا ما بكاء الغمائم

وفيَّ والا ما نياح الحمائم

وعنى أثار الرعد صرخة طالب
لثأر وهز البرق صفحة صارم
وما لبست زهر النجوم حدادها

لغيرى ولا قامت له فى مآتم

فهو مثل للفردية الشديدة التى غلبت على ذلك العصر
المضطرب المائج الذى كان كل انسان طموح فيه يحاول أن
يصنع القيم حسب مشيئته وضوعا لأهوائه ، فالخير هو كل ما
أعانه على النجاح ، والشر هو كل ما أقام فى طريقه العقبات ،
وكانت فى الرجل كفاية وذكاء وسعة حيلة ودهاء ، ولكنه مع
فرط ذكائه وعظيم دهائه كانت شدة تكالبه على النجاح السريع
ربما أذهلته عن اعتبارات قد تفسد عليه أمره ، وكانت العتة
النفسية التى منى بها فى ابان نشأته وأيام بؤسه وشقوته تتلوى
فى أعماق نفسه كالأفعى وتنثت سمومها وتجعله لا يصفى أى
انسان الود ولا يخلص له الصداقة .

وكان المعتمد حينما يزور اشبيلية يذهب اليها مع صديقه
ابن عمار الذى ألف صحبته وتعود ملازمته له ، واشبيلية تعد
من عواصم الأندلس الجميلة الجميلة الموفية على نهر الوادى
الكبير وهو يجرى فى غربيها ، ^(١) وكان ملوك اسبانيا قبل
لفتح الاسلامى يتداولون بمسكنهم أربعاً من المدن الاسبانية
وهى : اشبيلية وماردة وقرطبة وطليطلة ، ويقسمون أزمانهم على

(١) الروض المعمار صفحة ٢٠ .

الكنونة بها ، ويطل على أشبيلية جبل الشرف وهو كريم التربة دائم الخضرة يمتد فراسخ طولا وعرضا . ويقول عنه صاحب الروض المعطار : « لا تكاد تشمس منه بقعة لالتفاف زيتونه واشتباك غصونه » ، ووفرة الخيرات بالمدينة وكثرة مشاهداتها الجميلة كانا يجعلان أهلها مياالين الى اللهو والمرح ، وقد (١) جرت مرة مناظرة بين يدى ملك المغرب المنصور يعقوب بين الفقيه أبى الوليد بن رشد والرئيس أبى بكر بن زهر ، فقال ابن رشد لابن زهر فى تفضيل قرطبة : « ما أدرى ما تقول ، غير أنه اذا مات عالم بأشبيلية فأريد بيع كتبه حملت الى قرطبة حتى تباع فيها ، وان مات مطرب بقرطبة فأريد بيع آلاته حملت الى اشبيلية » .

ويروى لنا المقرئ أنه قيل لأحد من رأى مصر والشام (٢) : « أيهما رأيت أحسن ؟ أهذان أم اشبيلية ؟ فقال بعد تفضيل اشبيلية : « شرّفها غابة بلا أسد ونهرها نيل بلا تمساح » . وكان الصديقان فى اشبيلية يسترسلان كدأبهما فى اللهو والاستمتاع ، واتفق مرة أنهما كانا يتنزهان فى مرج الفضة - أحد متنزهات المدينة التى كان يغشاها الناس لجمال مناظره وطيب هوائه وحسن موقعه ، وجلسا الى جانب نهر الوادى الكبير فى أمسية رق فيها نسيم وطاب الهواء ، وشاء القدر أن يلقى المعتمد المرأة التى صار لها تأثير كبير فى حياته ، كانت

(١) نفح الطيب الجزء الاول صفحة ١٤٧ .

(٢) نفح الطيب الجزء الاول صفحة ١٤٩ .

النسمات تحرك مياه النهر حركات خفيفة ، فقال المعتمد لصديقه الشاعر أجز : « صنع الريح من الماء زرد » فأطال ابن عمار الفكرة ، ولم يكن في نظمه للشعر ممن أوتوا البديهة الحاضرة ^(١) ، وكانت امرأة من الغسالات على مقربة منهما ، وسمعت ما قاله المعتمد لابن عمار ، ولما عجز ابن عمار عن الإجابة قالت المرأة على البديهة : « أى درع لقتال لو جمد »

فتعجب المعتمد من حسن ما أتت به مع عجز ابن عمار ، ونظر اليها فاذا هى حسناء فاتنة ، فأعجب بها وأخذ بجمالها ، فسألها : « أذات زوج هى ؟ » فقالت : « لا » فلما ذهبت فى سبيلها قال لخدام كان يتبعه : « سل عن هذه الفتاة واعرف مكان أهلها » وعلم أنها جارية رميك بن حجاج وأن اسمها اعتساد ، فلما عاد الى قصره استدعى صاحبها واشتراها منه ، وتزوجها ، وكانت أحظى نسائه عنده ، وقد كانت الرميكية معاصرة لولادة بنت المستكفى ، وربما كانت تقصر عنها فى الأدب والشعر ، ولكنها لم تكن أقل منها فى الحديث الطلىّ الجذاب والنكات البارة ، وربما كانت تفوقها فى المعايضة والمداعبة واكتمال الأنوثة ، وكان المعتمد كثيرا ما يأنس بها ويستطيب حديثها ويستظرف نوادرها ، ولم تكن لها معرفة بالغناء وإنما كانت مليحة الوجه حسنة الحديث حلوة النادرة

(١) نقل المقرئ رواية هذا الحديث عن المسهب فى أخبار المغرب فى الجزء الخامس صفحة ٢٤٢ من النفع ، وذكر أن صاحب البدائة نسبها الى بعض أدباء الاندلس .

كثيرة الفكاهة ، وكان لها في ذلك نواذر محكية ، ومن مشهور أخبارها مع المعتد قصة المعروفة في قولها « ولا يوم الطين » وذلك أنها رأت الناس يمشون في الطين ، فاشتتت المشى في الطين ، فأمر المعتد فسحقت أشياء من الضيب ، وذُرَّت في ساحة القصر حتى عمته ، ثم نصبت الغرايل وصب فيها ماء الورد على أخلاط الطيب ، وعجنت بالأيدى حتى عادت كالطين وخاضتها مع جواريتها ، وغاضبها في بعض الأيام ، فأقست أنها لم تر منه خيرا قط ، فقال لها : « ولا يوم الطين ! » فاستحيت واعتذرت .

وقد كانت نزواتها واسرافها في دلالها باعث تعب ومتعة لمحبتها المأخوذ بحاسنها . فسن نزواتها المسرفة أنها شاهدت وهي في قرطبة من نوافذ القصر في الشتاء الساء وهي تندف بالثلج وكان هذا المنظر نادر الحدوث في منطقة يقل فيها اشتداد الشتاء فبكت وسالت الدموع على وجنتيها فسألها المعتد في رفق واين عن سبب بكائها فجابتة وهي تجهش بالبكاء : « انك طاغية جبار غشوم ، انظر الى جمال ندف الثلوج البارقة اللينة العالفة بغصون الأشجار ، وأنت أيها الناصر للجليل لا يخطر ببالك أن توفر لى مثل هذا المنظر الجميل كل شتاء ولا تصحبني الى بلد يتساقط فيه الثلج في الشتاء » فمسح المعتد دموعها وقال لها في لين ورقة : « لا تحزني ولا تستسلمي لليأس يا سلوة النفس ومنية القلب فاني أعدك وعدا صادقا أنك سترين هذا المنظر الذي أدخل على قلبك السرور كل شتاء » وأمر بزرع أشجار اللوز

على جبل قرطبة حتى اذا نوّر زهره بدت الأشجار وكأنها محملة
بقطع الثلج الناصعة البياض .

وكانت أخبار نزواتها وتدلّيه في حبها واستجابته لنزواتها
تشيع وتستفيض فينقم عليها رجال الدين بوجه خاص ، وكانوا
يرون أنها العقبة بينهم وبينه وأنها تورطه في الكثير من ضروب
الخلاعة والاستهتار ، ولا يذكرون اسمها الا مصحوبا باستنزال
اللعنات ، وكانت هي لا تحفل بهم ولا تعلم ما تخبئه لها الأقدار ،
وأنهم سيكونون يوما ما أصحاب الكلمة الحاسمة في تقرير
مصيرها ، وأنهم سيكونون هم الذين يضحكون أخيرا
ويشستون كثيرا .

وكان المعتمد مع فرط حبه لها لا يزال يخص وزيره المحبوب
وصديقه المقرب بجانب كبير من وده وعطفه ، وقد أرسل اليها
مرة هذه الأبيات التي يتضمن الحرف الأول في كل بيت منها
حرفا من حروف اسمها وهو مع صديقه ابن عمار :

أغائبة الشخص عن ناظري

وحاضرة في صميم الفؤاد

عليك سلام بقدر الشجو

ن ودمع الشئون وقدر السهاد

تملكت منى صعب المرا

م وصادفت ودى سهل القياد

مرادى لقياك في كل حين

فياليت أنى أعطى مرادى

أقيمى على العهد ما بيننا
ولا تستحيلى لطول البعاد
دست اسمك الحلو فى طيه
وألفت فيه حروف « اعتماد »
وذيل الكتاب بقوله انه سيعود اليها « ان شاء الله ربى أو
شاء ابن عمار » .

ولما علم ابن عمار بالأمر وجّه اليه هذه الأبيات :
مولاي عندي لما تهوى مساعدة
كما يتابع خطف البارق السارى
ان شئت فى البحر فاركب ظهر سابحة
أو شئت فى البر فاركب ظهر طيار
حتى نحل وحفظ الله يكلؤنا
رحاب قصرك واتركنى الى دارى
وقبل خلع نجاد السيف فاسع الى
ذات الوشاح وخذ للحب بالثار
ضمما ولثماً يغنى الحلى بينهما
كما تجاوب أطيار بأسحار

وبينما كان ينعم صاحبنا بحب زوجته وصداقة صديقه
الشاعر الذى أصبح كما يقول المراكشى « ألزق بالمعتمد من
شعرات قصه وأدنى اليه من جبل وريده » وكانت زوجته تغريه
بالانطلاق فى المتعة ، وصديقه الأوسع منه تجربة والذى كان
لا يقل عنه تعطشاً فى ارتياد المتع يزين له الاسراف فى اللهو

تناثرت الأقاويل عنهما وكثرت ، وأغضب ذلك المعتضد ، فاقتضى نظره التفريق بين الصديقين حتى يقطع دابر تلك الأقاويل ويصون سمعة ولده ، ونفى ابن عمار ، فما زال مغتربا في أقاصى بلاد الأندلس الى أن توفي المعتضد بالله .

وكان هذا التفريق شديد الوقع في نفس المعتمد ، ولكنه كان يعرف أن المعتضد لا يرجع في كلمة صدرت منه ، ولا ينقض قراراً أمضاه .

وقضى ابن عمار أياما مسجلة مسلة في الشمال وبخاصة في سرقسطة ، وتمكن بها من المؤتمن يوسف بن أحمد بن هود ، ولما خلف المعتمد والده وهو في التاسعة والعشرين من عمره بادر الى استدعاء صديقه المنفى ، وسأله أن يختار المنصب الذى يرضيه ، فاختار ابن عمار أن يكون والى المنطقة التى ولد بها ونشأ فى نواحيها ، وقد كان يتطلع اليها وهو فى منفاه كما هو واضح فى قصيدته التى بعث بها الى المعتمد من سرقسطة ، والتى يقول فى مطلعها الذى سبق أن ذكرته : « علىّ والا ما بكاء الغنائم » وفيها يقول عن منشأ طفولته ومسرح نشأته التى ذاق فيها البؤس والنعيم ونعم بصداقة المعتمد :

أشلب ولا تنساب عبرة مشفق

وحمص ولا تعتاد زفرة نادم

كساها الحيا برد الشباب فانها

بلاد بها علق الشباب تمائنى

تذكرنى عهد الصبا فكأنما
قدحت بنار الشوق بين الحيازم
ليالى لا ألوى على رشد لائم
عناني ولا أثنيه عن غى هائم
أنال سهادى من جفون نواعس
وأجنى عذابى من غصون نواعم
هو العيش لا ما أشتكيه من السرى
الى كل ثغر أهل مثل طاسم
وكان المعتمد قد تلقب فى بادىء الأمر بالمؤيد ، ولذلك قال
له ابن عمار فى أحد اعتذاراته اليه :
ألا ان بطشاً « للمؤيد » يتقى
ولكن عفواً « للمؤيد » أرجح
وقال الدانى يمدحه :
كان المؤيد بستانا بساحتها
يجنى النعيم وفى عليائها فلكا
ثم تلقب بالمعتمد من أجل جاريته وزوجته اعتماد الرميكية
وبرغم أسف المعتمد على أن يكون هذا الصديق العزيز
عليه الأثير فى نفسه بعيدا عنه ، فانه رأى أن يضحي برغبته فى
قربه منه بالاستجابة لطلبه ، وقد ودعه وهو يرتحل الى شلب
بهذه الأبيات :

ألا حى أوطانى بشلب أبا بكر
وسلمهن هل عهد الوصال كما أدرى

وسلم على قصر الشراجيب من فتى
له أبدا شوق الى ذلك القصر
منازل آساد وبيض نواعم
فناهيك من غيل وناهيك من خدر
وكم ليلة قد بت أنعم جنحها
بمخضبة الأرداف مجذبة الخصر
وبيض وسمر فاعلات بمهجتي
فعال الصفاح البيض والأسل السمر
وليل بسد النهر لهواً قطعته
بذات سوار مثل منعطف النهر
نضت بردها عن غصن بان مُنَعَم
نضير كما انشق الكيمام عن الزهر
وباتت تسلينى المدام بلحظها
فمن كأسها حيناً وحيناً من الثغر
وتطربنى أوتارها وكأننى
سمعت بؤوتار الطلى نغم البتتر
ويقول الفتح عن قصر الشراجيب الذى ذكره المعتمد^(١).
« انه متناه فى البهاء والاشراق مباه لزوراء العراق ، ركضت فيه
جياذ راحاته وأومضت بزوق أمانيه فى ساحاته ، وجرى الدهر
مطيعا بين بؤكره وروحاته أيام لم تحل عنه قوائمه ولا خلت من
أزاهير الشباب كوائمه » .

(١) قلائد العقيان صفحة ٣٣ ، ونفح الطيب جزء ٢ صفحة ١٨٣ .

ودخل ابن عمار شلب في موكب فخم وجملة عبيد وحشم وأظهر نخوة لم يظهرها المعتمد على الله حين وليها أيام أبيه المعتضد بالله ، وكان أول شيء سأل عنه الرجل صاحبه صاحب الشعر ، فقد سأل عنه ابن عمار قائلاً « ما صنع فلان ؟ أهو حي ؟ » فأجابوه « نعم » فأرسل اليه بمخلاته بعينها بعد أن ملأها دراهم ، وقال لرسوله « قل له لو ملأتها براً ملأناها تبراً » .

على أن المعتمد لم يطق الصبر على فراق صديقه الشاعر الأملعي والماكر الداهية فما عثم أن استدعاه ، واختاره كبير وزرائه ، وكانت المشكلات المعقدة التي تواجه المعتمد تجعله في حاجة الى صديق يضع فيه ثقته ، ويستشير في أموره .

ولم يمنع المعتمد اشتغال الوزير الشاعر بسياسة الدولة وحمله أعباء الحكم من استدعائه من الحين الى الحين الى مجالس لهوه ، وإشراكه معه في سويغات أنسه وطربه ، دخلت عليه يوماً باكورة نرجس فكتب الى ابن عمار يستدعيه :

قد زارنا النرجس الذكى	وآن من يومنا العشى
وعندنا مجلس أنيق	وقد ظمنا وفيه رى
ولى خليل غدا سميى	يأليته ساعد السميى
فأجابه ابن عمار :	

لييك لبيك من مناد	له الندى الرحب والندى
هنا بالباب عبد قن	قبلته وجهك السنى
شرفه والداه باسم	شرفته أنت والنبي

واصطبج المعتمد يوم غيم مع زوجته اعتماد الرميكية .
واحتجب عن ندمائه ، فكتب اليه ابن عمار :

تجهم وجه الأفق واعتلت النفس
لأن لم تلح للعين أنت ولا الشمس
فان كان هذا منكما من توافق
وضمكما أنس فيهنكما الأنس
فأجابه المعتمد بقوله :

خليلى قولاً هل على ملامة
اذا لم أغب الا لتحضرني الشمس
وأهدى بأكواس المدام كواكبا
اذا أبصرتها العين هشت لها النفس
سلام سلام أتما الأنس كله

وان غبتما أم الربيع^(١) هي الأنس
وغاب عنه ابن عمار حيناً من الزمان ، وربما كان هذا في
احدى السفارات التى كان يرسله فيها أو المهمات التى كان يكل
اليه القيام بها فلما عاد كتب اليه :

لما نأيت نأى الكرى عن ناظرى
ورددته لما انصرفت اليه
طلب البشير بشارة يجرى بها
فوهبت قلبى واعتذرت اليه

(١) أم الربيع هي اعتماد الرميكية وكان يروق المعتمد أن يشير الى اسمها
بهذه الكنية .

وأهدى الناس في يوم عيد الى المعتمد مما يهدى للملوك
في الأعياد ، فاقترع ابن عمار على ثوب صوف بحرى أصفر
وكتب معه :

لما رأيت الناس يحتفلون في (١)

أهداء يومك جنته من بابه

فبعثت نحو الشمس شبه اهابها

وكسوت متن البحر بعض ثيابه

واستصحب المعتمد ذات ليلة ابن عمار على مألوف عادته
وخرجا يتجولان في اشيلية وهما متكران لمشاهدة أحوال
الرعية ، فمرا باب شيخ كان كثير التندر والتهكم والاتيان
بالحركات التي تثير الضحك ، فقال المعتمد لابن عمار تعال
نضرب على هذا الشيخ الشاذ الغريب الأطوار بابه حتى نضحك
منه ، فلما ضربا عليه الباب قال : « من هذا ؟ » .

فقال ابن عباد : « انسان يرغب أن تَقْد له هذه الفتيلة » .

فأجاب الشيخ : « والله لو ضرب ابن عباد بابي في هذا
الوقت ما فتحت له » .

فأجاب المعتمد : « انى ابن عباد نفسه » .

فقال الشيخ : « مصفوع ألف صفقة » .

فضحك المعتمد حتى كاد يسقط على الأرض ، وقال لابن

(١) المطرب من أشعار أهل المغرب لابن دحية صفحة ١٧٢ .

عمار « امض بنا قبل أن يتعدى الصفع من القول الى الفعل ،
فهذا شيخ ركيك العقل » .

ولما كان من غد تلك الليلة وجّه له ألف دينار ، وقال
لموصلها « قل له هذه حق الألف صفة التي كانت البارحة » .
وهكذا كان المعتمد ان لم يتدفق كرما أينما حل تدفق
شاعرية ، روى له الشقندي أنه مر على كرمة فتعلقت بردائه ،
وغيره من الناس يكتفى بجذب رداءه ويمضي في سبيله ، ولكن
المعتمد لا يستهين بمثل هذه التجربة ، وقد سجلها شعراً في قوله :
مررت بكرمة جذبت ردائي فقلت لها عزمت على اذائي
فقلت لم مررت ولم تسلم وقد رويت عظامك من دمائي

المعتمد بن شُعراء، بلاطه وجواري قصره

غير عجيب أن يكثُر وفود الشعراء على اشبيلية وعلى عرشها
ملك كريم وشاعر مطبوع وكبير مستشاريه وشيخ وزرائه
كذلك شاعر طائر الصيit بارز المكانة بين شعراء الأندلس
المعدودين ، وكان الشعاريير والمتشاعرون والنظامون لا يجترئون
على الدنو من ساحة المعتمد فقد كان شاعرا ناقدا للشعر .

ومن أشهر شعراء بلاطه الشاعر الأندلسي المعروف أبو الوليد
ابن زيدون ، وكان قد لجأ الى اشبيلية بعد هروبه من سجن
أبي الوليد بن جهور كما سبق أن ذكرت ، ولم يعيش أبو الوليد
طويلا في عهد المعتمد فقد توفي سنة ٤٦٣ هـ ومن مدحه للمعتمد
قوله :

مهما امتدحت سواك قبل فانما
مدحى الى مدحى لك استطراد
تغشى الميادين الفوارس حلبة
كيما يعلمها النزال طراد
وقوله وهو لا يخلو من مبالغة :
وطاعة أمرك فرض أرا
ه من كل مفترض أوكد

هى الشرع أصبح دين الضمير

فلو قد عصاك لقد أحدا

وظاهر من المساجلات الشعرية التى دارت بينهما أن المعتمد
كان شديد الإعجاب بابن زيدون عظيم التقدير لأدبه وشخصه ،
كتب إليه مرة معاتبا قصيدة يقول فى مطلعها :

وعدت وأخلفتى الموعدا وخالفت بالمنتهى المبتدأ^(١)
وأطمعتنى ثم أياستنى ويمنعنى الود أن أحقدا
وأضعفت بالمطل حبل الرجا ء فرث وأعهد محصدا
وعاد ضياء ارتقابى ظلما وأصبح مصباحه أرمدا
ومنها فى مدح ابن زيدون :

لك العلم مهما أرد بحره لأروى به أحمد الموردا
وفيك تجمعت المأثرا ت طراً فصرت بها مفردا
شمائل تنثر شمل الهمو م نثر بالرائى شمل العدى
فمتعنى الله باللحظ من ك ولازلت لى مؤنسا سرمدا
ودمت ودمنا على حالنا كما يصحب الفرقد الفرقدا
فلولاك كانت ربوع السرور مئى تجاوب فيها الصدى
فأجابه ابن زيدون بقصيدة يقول فى مطلعها :

أفاض سماحك بحر الندى وأقبس هديك نور الهدى
وفى ديوان المعتمد قصائد أطلق عليها اسم^(٢) « المعميات » ،
وكانت هذه المعميات تدور بين المعتمد ووزيره الشاعر ابن

(١) ديوان المعتمد بن عباد صفحة ٥٤ / ٥٥ .

(٢) ديوان المعتمد بن عباد صفحة ٧٧ .

زيدون ، وكان أحدهما يرسل الى الآخر قصيدة يشير بها الى بيت أو بيتين من الشعر رامزاً الى كل حرف باسم طير من الطيور ، ولذلك كان يسمى هذا البيت بالمطيّر ، وكانا يقصدان بهذه المعميات التسلية ، وقد استهل ابن زيدون إحدى هذه القصائد المعميات بقوله في مدح المعتمد :

يأيها الظافر نلت المنى ولا ينلنا فيك محذور
ان الخلال الزهر قد ضمها ثوب عليك الدهر مزرور
لا زال للمجد الذي شدته ربيع بتعميرك معمور
ولما توفي المعتضد وأفضى الأمر الى المعتمد حاول أعداء ابن زيدون الذين كانوا يحسدونه على مكائته عند المعتضد وينقمون عليه نفوذه أن يفسدوا ما بينه وبين المعتمد ، فرموا اليه برقعة بها قصيدة يحرضونه فيها على ابن زيدون وغيره من رجال الدولة في عهد أبيه ومطلعها :

يأيها الملك العلي الأعظم
اقطع وريدى كل باغ ينأم
واحسم بسيفك داء كل منافق
يبدى الجميل وضد ذلك يكتم
ويحذر المعتمد ناظم القصيدة الذي أخفى اسمه بأن التهاون في الصغائر قد يجر الى الكبائر بقوله :
كم سقط زند قد نما حتى غدا
بركان نار كل شيء يحطم

وكذلك السيل الجفاف فانما
أولاه طل ثم ويل يسجم
ويشير عليه بأن يسلك سلوك أييه المعتضد في الفتك
بالمخالفين والقضاء على المتهمين فيقول :
واذكر صنيع أبيك أول مرة
في كل متهم فانك تعلم
لم يبق منهم من توقع شره
فصفت له الدنيا ولذّة المطعم
فعلام تنكل عن صنيع مثله
ولأنت أمضى في الخطوب وأشهم
فاجعله قدوتك التي تقتادها
في كل من يبغي ورأيك أحكم
فلما قرأه المعتمد عفا عما أرادوه ، وأبى قبول السعاية في
فاتحة أمره ومستهل حكمه ، ووقع على ظهر الرقعة بهذه
الآيات :

كذبت مناكم صرحوا أو جمجموا
الدين أمتن والسجية أكرم
ختم ورمتم أن أخون وانما
حاولتم أن يستخف يلمنم
وأردتم تضيق صدر لم يضق
والسمر في ثغر النحور تحظم

وزحفتكم بمحالكم لمجرب
ما زال يثبت للمحال فيهمزم

أنى رجوتكم غدر من جربتكم
منه الوفاء وظلم من لا يظلم

أنا ذاكم لا البغى يشر غرسه
عندى ولا مبنى الصنيعة يثلم

كفّوا والا فارقبوا لى بطشة
يلقى السففيه بمثلها فيحلم

ولما بلغ ابن زيدون ما راجعهم به وتحقق حسن مذهبه وعلم
أن سعايتهم قد أخفقت قال يمدح المعتد من قصيدة بلغت خمسين
بيتا :

ما كان حلم محمد ليحييله
عن عهده دغل الضمير مذمم

ملك تطلع للخواطر غرة
زهراء زين بها الزمان الأدهم

خلق تود الشمس لو صيغت له
تاجا ترصع جانبيه الأنجم

سدت الجميع فليس منهم منكر
ان صرت فذهم الذى لا يتأم

فستى أودى فرض أنعسك التى
وبلت كما يبيل السحاب المشحم

أعطيتنى متن السماك برتبة
علياء منكب عزها لا يزحم
وتركت حسادى عليك وكلهم
شاكى حشى يدوى وأنف يرغم
نصح العدى فى زعمهم فوقمتهم
والغش فى بعض النصائح مدغم
وثناهم ثبت قناة أناته
خلقاء يصب متنها اذ يعجم
وزهاهم نظم الهراء فكفهم
نظم عقود السحر منه تنظم
أشرعت منه الى الغواة أسنة
نفذت وقد ينبو الطير اللهزم
لى منك فليذب الحسود تلظيا
لطف المكانة والمحلى الأكرم
الفخر ثغر من حياضك باسم
والمجد برد من وفائك معلم
فاسلم مدى الدنيا فأنت جلالها
وتسوغ النعمى فانك منعم
ومن فحول شعراء الأندلس الذين وفدوا على المعتمد
وغشوا ساحته عبد الجليل بن وهبون ، وكان من أهل مدينة
مرسية ، وأنشد يوما بين يدى المعتمد بعض الحاضرين بيتير
لعبد الجليل هذا قالهما قديما قبل وصوله الى المعتمد وهما :

قل الوفاء فما تلقاه في أحد
ولا يسر مخلوق على بال
وصار عندهم عنقاء مغربة

أو مثل ما حدثوا عن ألف مثقال

فأعجب المعتمد بهما ، وقال « لمن هذان البيتان ؟ » فقالوا
له « هما لعبد الجليل بن وهبون أحد خدم مولانا ! » فقال:
المعتد عند ذلك « هذا والله اللؤم البحت ، رجل من خدامنا
والمنقطعين إلينا يقول « أو مثل ما حدثوا عن ألف مثقال ! »
وهل يتحدث أحد عنا بأسوأ من هذه الأحدثوة ؟ » وأمره
بألف مثقال ، فلما دخل عليه يشكر قال له المعتمد :
« يا أبا محمد ، هل عاد الخبر عيانا ؟ » .

فقال ابن وهبون : « أي والله يا مولاي » ودعا له بطول
البقاء .

فلما هم بالانصراف قال له المعتد : « يا عبد الجليل الآن
حدث بها لا عنها » .

ودخل ابن وهبون يوما على المعتمد وهو ينشد قول المتنبي
في سيف الدولة الحمداني :

إذا ظفرت منك العيون أثاب بها معبي المطى ورازمه
وجعل المعتد يردده استحسانا له ، فقال ابن وهبون بديها :
لئن جاد شعر ابن الحسين فأنما

تجيد العطايا واللّهي تفتح الله

تنبأ عجباً بالقريض ولو درى
بأنك ترويه إذا لتألها
فأمر له المعتمد بمائتي دينار .

وجلس المعتمد يوما والبزاة تعرض عليه ، فاستحث الشعراء
في وصفها ، فقال ابن وهبون بديها :

للصيد قبلك سنة مأثورة لكنها بك أبدع الأشياء
تمضى البزاة وكلما أمضيتها عاطيتها بخواطر الشعراء
ومما يروى من بدائع بدائمه أن المعتمد جلس للشراب
والغيث ينهمر ، وبين يديه جارية تسقيه فاتفق أن لعب البرق
بحسامه فارتاعت الجارية لحظفة البرق فقال المعتمد :

روّعها البرق وفي كفها برق من القهوة لماع
عجبت منها وهي شمس الضحى كيف من الأنوار ترتاع
واستدعى عبد الجليل بن وهبون وأنشده البيت الأول
مستجيزا ، فقال عبد الجليل :

ولن أرى أعجب من آنس من مثل ما يمسك يرتاع
فاستحسنه المعتمد وأجازه ^(١) وكان في قصر المعتمد فيل
من الفضة على شاطئ بركة يقذف الماء ، وفيه يقول ابن وهبون :
ويفرغ فيه مثل النصل بدع من الأفيال لا يشكو ملالا
رعى رطب اللجين فجاء صلدا تراه قلما يخشى هزالا

(١) الجزء الخامس من نفع الطيب صفحة ٣٩٥ .

ويدكر لفتح في لقلائد^(١) أن بن وهبون أخرج المعتمد
وأضجره حتى أبعدده وهجره فذهب الى المرية ، فلما كان يوم
العيد حضر المعتصم صاحب المرية شعراؤه وبعث في عبد الجليل
فتأخر ، وقال « أبعد المعتمد أحضر منتدى أو أستنصر جودا ؟
وهل تروق الأعياد الا في فنائه أو تحسن لأمداح لا في سنائه ؟ »
ثم قال :

دنا العيد لو تدنو لنا كعبة المنى
وركن المعالى من ذؤابة يعرب
فوا أسفا للشعر ترمى جماره
ويابعد ما بينى وبين المحصب
ومن مدحه للمعتمد قوله :

تأتى البلاد فتندى منك أوجهها^(٢)
حتى يقول تراها هل هسى المظر
ما القفر الا مكان لا تحل به
وحيثما سرت سار البدو والحضر
ومن شعراء المعتمد أبو بكر الدانى المعروف بابن اللبائنة
وكان المعتمد يميزه بالتقريب ويستعذب شعره ، ويوليه انعاما
واحسانا ، ولما نكب المعتمد وفي له الدانى بالرحلة اليه في
المغرب ، ومن شعره في مدح المعتمد :

(١) قلائد العقيان صفحة ٢٥٤ .

(٢) المطرب لابن دحية صفحة ١١٩ .

ملك اذا عقد المغافر للوغى
حلّ الملوك معاقد التيجان
واذا غدت راياته منشورة
فالخاققان لهن فى خفقان
ومن قصيدة له يمدحه ويذكر أولاده الأربعة : الرشيد
والراضى والمأمون والمؤمن :

يعيثك فى محل يعينك فى ردى
يروحك فى درع يروك فى برد
جمال واجمال وسبق وصوله
كشمس الضحى كالمزن كالبرق كالرعد
بمهجته شاد العلا ثم زادها
بناءً بأبناء جحاجة ألد
بأربعة مثل الطباع تركبوا
لتعديل ذكر المجد والشرف العد

وقد ألف الدانى كتابا عن الدولة العبادية أسماه « الاعتماد
فى أخبار بنى عباد » كما ألف كتابا فى أخبارهم بعد نكبتهم
سمّاه « نظم السلوك فى مواعظ الملوك » ضمنه مقطعات
وقصائد فى البكاء على أيام بنى عباد وانتشار نظامهم .

وكان فى طليعة الشعراء الوافدين على المعتمد الشاعر
الصقلى الكبير أبو محمد عبد الجبار بن حمديس الصقلى ، وقد
فارق بلده سرقوسة من جزيرة صقلية حينما استولى
النورمانيون على الجزيرة سنة ٤٧٠ هجرية ودخل ابن حمديس

الأندلس سنة ٤٧٠ ، وقد استدعاه المعتمد من قرطبة الى اشبيلية ،
وحكى ابن حديس عن علاقته بالمعتد قال « لما قدمت وافداً
على المعتمد بن عباد أقمت بأشبيلية مدة لا يلتفت الى ولا يعاب
بى ، حتى قنطت لحيتى مع فرط تعبى ، وهست بالنكوص
على عقبى ، فانى لكذلك ليلة من الليالى فى منزلى اذا بعلام معه
شمعة ومركوب ، فقال لى « أجب السلطان » فركبت من فورى
ودخلت عليه ، فأجلسنى على مرتبة فنك ، وقال لى « افتح
الطاق التى تليك » ففتحتها ، فاذا بكور زجاج على بعد والنار
تلوح من بابيه ، وواقدة تفتحهما تارة وتسدهما أخرى ، ثم دام
سد أحدهما وفتح الآخر ، فحين تأملت هما قال لى أجز ! .

انظرهما فى الظلام قد نجما

فقلت :

كما رنا فى الدجنة الأسد

فقال :

يفتح عينيه ثم يطبقها

فقلت

فعل امرىء فى جفونه رمد

فقال :

فابتزه الدهر نور واحدة

فقلت :

وهل نجا من صروفه أحد

فاستحسن ذلك وأمر لى بجائزة سنية وألزمى خدمته .

ومن شعره يصف داراً بناها المعتمد^(١) :
 ويا حبذا دار قضى الله أنها
 يجدد فيها كل عز ولا يبلى
 مقدسة لو أن موسى كلمه
 مشى قدما في أرضها خلع النعلا
 وما هي الا خُطّة الملك الذي
 يحط اليه كل ذى أمل رَحلا
 اذا فتحت أبوابها خلت أنها
 تقول بترحيب لداخلها أهلا
 وقد نقلت صنّاعها من صفاته
 اليها أفانينا فأحسنت النقلا
 فمن صدره رحبا ومن نوره سنى
 ومن صيته فرعا ومن حلمه أصلا
 نسيت به ايوان كسرى لأتني
 أراه له مولى من الحسن لا مثلا
 ومن قصصه مع شعرائه أن جارية مشت بين يديه وعليها
 قميص لا تكاد تفرق بينه وبين جسدِها وذوائبها تخفى آثار
 مشيها ، فسكب عليها ماء ورد كان بين يديه ، وقال لبعض
 خدمه سر الى أبى الوليد البطليوسى المشهور بالنحلى وخذه
 باجازه هذا البيت ولا تفارقه حتى يفرغ منه :

(١) نفح الطيب الجزء الخامس صفحة ١٥٠ ، جزء ٦ صفحة ٧ .

عُلِّقَتْ جَائِلَةُ الْوَشَّاحِ غَزِيرَةٌ
 تَخْتَالُ بَيْنَ أَسْنَةِ وَبَوَاتِرِ
 فَأَجَابَ النِّحْلَى لِأَوَّلِ وَقُوعِ الرِّقْعَةِ بَيْنَ يَدَيْهِ :
 رَأَيْتُ مُحَاسِنَهَا وَرَقَ أَدِيمِهَا
 فَتَكَادُ تَبْصُرُ بَاطِنًا مِنْ ظَاهِرِ
 وَتَمَاطِلُ كَالْغَصَنِ فِي دَعْصِ النِّقَا
 تَلْتَفُّ فِي وَرَقِ الشَّبَابِ النَّاضِرِ
 يَنْدِي بِمَاءِ الْوَرْدِ مُسْبِلَ شَعْرِهَا
 كَالطَّلِّ يَسْقُطُ مِنْ جَنَاحِ الطَّائِرِ
 تَزْهِي بِرَوْتِهَا وَعِزِّ جَمَالِهَا
 زَهْوِ الْمُوَيْدِ بِالثَّنَاءِ الْعَاطِرِ
 مَلِكُ تَضَاءَلَتِ الْمُلُوكُ لِقَدْرِهِ
 وَعَنَا لَهُ صَرْفُ الزَّمَانِ الْجَائِرِ
 وَإِذَا لَمَحْتَ جَبِينَهُ وَيَمِينَهُ
 أَبْصَرْتَ بَدْرًا فَوْقَ بَحْرِ زَاخِرِ
 فَلَمَّا قَرَأَهَا الْمُعْتَمِدُ اسْتَحْضَرَهُ ، وَقَالَ لَهُ « أَحْسَنْتَ ، أَوْ مَعْنَى
 كُنْتَ ؟ » .
 فَأَجَابَ النِّحْلَى : « يَا قَاتِلَ الْمَحَلِّ أَمَا تَلَوْتَ » وَأَوْحَى رَبُّكَ
 إِلَى النِّحْلِ « ؟ » .
 وَأَهْدَيْتَ لِلْمُعْتَمِدِ شَمْعَةً ، فَوَصَفَهَا ^(١) أَبُو الْقَاسِمِ بْنُ مَرْزُقَانَ
 الْأَشْبِيلِيَّ وَهُوَ أَحَدُ الشُّعْرَاءِ الَّذِينَ اسْتَظَلُّوا بِرِعَايَتِهِ :

(١) نفح الطيب الجزء الخامس صفحة ٢٦٠ / ٢٦١ .

مدينة في شمعَة صُورت قامت حماة فوق أسوارها
وما رأينا قبلها روضة تتقد النار بنوارها
تصير الليل نهارا اذا ما أقبلت ترفل في نارها
كأنها بعض الأيادي التي تحت الدجى تسرى بأنوارها
من ملك معتمد ماجد بلاده أوطان زوارها
وحدث مرة أن جلس المعتمد في مجلس احتفل في تنزيده
واحضار بعض الطرائف الملوكية فيه ، وكان في جملة تلك
الطرائف تمثال جمل من البلور ، وله عينان يا قوتيتان ، وقد حلّى
بنفائس الدر ، وكان حاضر هذا المجلس الشاعر أبو العرب
الصقلی ، وأنشد المعتمد قصيدة ، فأمر له المعتمد بذهب كثير
مما كان بيده من السكة الجديدة ، وطمحت عين أبي العرب الى
تمثال الجمل فقال معرضا بذلك : « ما يحمل هذه الصلة الا
جمل ! » . فقال له المعتمد : « خذ هذا الجمل فانه حمّال
أثقال » . ^(١) فارتجل أبو العرب شعرا يقول فيه :

أهديتنى جملا جونا شفعت به
حملا من الفضة البيضاء لو حملا
تتاج جودك في أعطان مكرمة
لا قد تصرف من منع ولا عقلا
فاعجب لشأني فشأني كله عجب
رفهتني فحملت الحمل والجملا

(١) نفع الطيب الجزء الخامس صفحة ٣٩٣ .

وكان المعتمد في بعض الأوقات يتولى هو بنفسه اجازة ما
يسمع من الشعر ، غثنى مرة بين يديه بقول ابن المعتز ^(١) :

وخبارة من بنات المجوس ترى الزق في بيتها سائلا
وزنًا لها ذهباً جامداً فكالت لنا ذهباً سائلا
فقال المعتمد بديها يجيزه :

وقلت خذى جوهراً ثابتاً فقالت خذوا عرضاً زائلاً
ولم يكن مجلسه يخلو بطبيعة الحال من مباحثات أدبية
والتقادية ، وتناولت تلك الأحاديث مرة قول المتنبي الذي كان
يعجب النقاد القدامى الى حد أن قالوا عنه انه أمير شعره وهو
قوله :

أزورهم وسواد الليل يشفع لى

وأثنى وبياض الصبح يغرى بى

فقال المعتمد : « ما قصر المتنبي في مقابلة كل لفظة بضدها ،
الا أن فيه تقدماً خفياً ، ففكروا فيه » فأخذ الحاضرون وهم من
علية الشعراء والأدباء يفكرون في البيت ويحيلون فيه بصيرتهم
الناقدة ، وأطالوا الفكر ، ولكنهم لم يفتنوا الى ما لحظه
المعتمد ، فقالوا له مقرين بعجزهم : « ما وقفنا على شيء »
فقال المعتمد : « الليل لا يطابق الا بالنهار ، ولا يطابق بالصباح .
لأن الليل كلى والصبح جزئى » فتعجب الحاضرون وأثنوا على
تدقيق انتقاده .

(١) نفع الطيب الجزء الخامس صفحة ١٤٩ .

وقد حاول صلاح الدين الصفدى — وهو من أقدر كتاب العصر المغولى ومن أوسعهم اطلاعا وأكثرهم تأليفا للكتب فى شتى الموضوعات وعلى أساليب حسنة — أن ينقض رأى المعتمد فقال : « ليس هذا بنقد صحيح ، والصواب مع أبى الطيب لأنه قال « أزورهم وسواد الليل يشفع لى » فهذا محب يزور أحبابه فى سواد الليل خوفا ممن يشى به ، فإذا لاح الصبح أغرى به الوشاة ، ودل عليه أهل النميمة ، والصبح أول ما يغرى به قبل النهار ، وعادة الزائر المريب أن يزور ليلا ، وينصرف عند انفجار الصبح خوفا من الرقباء ولم تجر العادة أن الخائف يتلبث الى أن يتوضح النهار ، ويمتلىء الأفق نورا ، فذكر الصبح هنا أولى من ذكر النهار » .

وهو رد لا يخلو من الوجاهة وقوة الحجة ، ولكنه مع ذلك لم يحس صميم الموضوع الذى لحظه المعتمد ، وهو فساد مطابقة الليل بالصبح . فإن الذى يقابل الليل هو النهار ، والنهار نفسه يشل الصبح وما بعد الصبح . ورأى المعتمد ينم على ملاحظة دقيقة وبراعة ناقدة .

وكان المعتمد اذا خرج للنزهة بظاهر اشبيلية يخرج فى بعض الأوقات مع خواص شعرائه وندمائهم ، واتفق أن خرج مرة وأبعد فى المسابقة بالخيول ، فجاء فرسه بين البساتين سابقاً ، فرأى شجرة تين قد أينعت وزهت وبرزت منها ثمرة قد نضجت فسدد اليها عصا كانت فى يده فأصابها ، وثبتت على أعلاها ،

فأطربه ما رأى من حسنها وثباتها ، والتفت ليخبر من لحقه من أصحابه ، فرأى ابن جامع الصباغ أول من لحق به فقال له أجز : كأنها فوق العصا

فقال :

هامة زنجى عصى .

فزاد طربه وسروره بحسن ارتجاله ، وأمر له بجائزة سنية ، وكان ابن جامع هذا من أرباب المهن ، وكان يحترف الصباغة . واشتهر بسرعة الخاطر ، وحسن الارتجال ، وسما به أدبه الى مجالسة المعتمد ومصاحبة والظفر بأعجابه وتقديره .

وكان المعتمد بوجه عام يعجب بالنبوغ فى مختلف صورته . ويميل بطبيعته الى العطف على كل من أوتى موهبة ، ويحرص على تشجيعه ، وتوجيهه الوجهة الصالحة ، وقصته مع السارق الاشبلى الذى اشتهر باسم البازى الأشهب تكشف لنا بوضوح عن هذا الجانب من أخلاق المعتمد ، فقد اشتهر هذا الرجل بالافتنان فى أساليب السرقة والسطو ، وكان له فيهما كنز غريبة ، وكان مسلطا على أهل البادية يهتبل غرتهم ، ويستغل سذاجتهم ، ويستلب أموالهم ، ويسرق متاعهم ، وبلغ من براعته فى السرقة والاحتيال أنه سرق وهو مصلوب ، وذلك لأن المعتمد أمر بصلبه على ممر أهل البادية لينظروا اليه ويعرفوا شخصه بعد أن كثرت الشكوى منه وعم أذاه ، وبينما هو فوق خشبته على تلك الحال اذ جاءت اليه زوجته وبناته وجعلن يبكين حوله ويقولن « لمن تتركنا نضيع بعدك ؟ » واذا بيدوى على بغل

وتحتة حمل ثياب وغيره من السلع التي جاء بها لبيعها في سوق المدينة ، فصاح به البازي الأزرق قائلا : « يا سيدى انظر في أية حالة أنا ، ولى عندك حاجة فيها فائدة لى ولك » .

فقال البدوى : « وما هى هذه الحاجة ؟ » .

فقال البازي الأزرق : « انظر الى تلك البئر القريبة ، فانى لما أرهقنى الشرط فى الطلب رميت فيها مائة دينار ، فعسى تحتال فى اخراجها ، وهذه زوجتى وبناتى يمسن بفلك خلال ما تخرجها » .

فعمد البدوى الى حبل ودلى نفسه فى البئر بعد ما اتفق معه على أن يأخذ النصف منها ، فلما حصل فى أسفل البئر قطعت زوجة السارق الحبل ، وبقي البدوى حائرا يصيح من أعماق البئر ، وأخذت زوجة البازي الأزرق ، ما كان على البغل مع بناتها وفربت به ، وكان ذلك فى حمارّة الصيف والطريق يكاد يكون خاليا من المارة ، وظل الرجل يرسل صيحاته المزعجة مستغيثا حتى سمع استغاثته أحد المارة فى الطريق واحتال مع آخر على اخراجه من البئر ، وكانت امرأة البازي الأزرق وبناته قد غبن عن العين وخلصن بما حملن من المتاع ، وسئل البدوى عن حاله فأجاب : « هذا الفاعل الصانع احتال علىّ حتى مضت زوجته وبناته بثيابى وأسبابى » . واشتهرت القصة وذاعت وبلغت مسامع المعتمد ، فتعجب منها ، وأمر باحضار البازي الأشهب ، وقال له : « كيف فعلت هذا مع أنك فى قبضة الهلكة ؟ » .

فقال البازى الأزرق : « يا سيدى لو علمت قدر لذتى فى السرقة خليت ملكك واشتغلت بها » .

فلعنه المعتمد وضحك منه ، وكان قد أعجب بذكاء الرجل وسعة حيلته ، ورأى أن يستصلحه ويوجه ذكاءه ، وجهة نافعة . فقال له : « ان سرّحتك وأحسنّت اليك وأجريت عليك رزقاً يقلّك أتتوب عن هذه الصنعة الذميمة ؟ » .

فقال البازى الأزرق : « يامولاي كيف لا أقبل التوبة وهى التى تخلصنى من القتل ؟ » .

فعاهد المعتمد وقدمه على رجال أنجاد ، وصار من جملة حراس أحواز المدينة .

وهذه التفاتة نفسية جميلة من المعتمد ، تتجه الى اصلاح المجرم عن طريق رفع مستواه ، وتهذيب نفسه ، واشعاره بالتبعة ، لا عن طريق الامعان فى عقوبته ، والتكيل به ، وهى تدل على نزعة انسانية وطبيعة نزاعة الى الخير كلفة بالاحسان والبر .

وكان المعتمد فى حريمه وبين نسائه وجواريه كما كان بين شعرائه وخاصته ، يقربهن ويفرط فى تدليلهن ، ويعاملهن على قدم المساواة فلا يسترهبهن بجبروته وصولته بل يرق لهن ويلين ويعلم ويفضى ويحتمل قسوتهم وفى بعض الأحيان حماقاتهن ويستعطفهن بالشعر البليغ والكلم العذب . وقد روى ^(١) الفتح

(١) فلانْد العقيان صفحة ٨ / ٩ والنفع الجزء السادس صفحة ٦ .

عن دخر الدولة — أحد أبناء المعتضد — أن المعتمد استدعاه في ليلة قد ألبسها البدر رثواءه ، وأوقد فيها أضواءه ، وهو على البحيرة الكبرى في قصره والنجوم قد انعكست فيها تخالها زهرا ، وقابلتها المجرة فسالت فيها نهرا ، وقد أرجت نوافج الند ، وماست معاطف الرّند ، وحصد النسيم الروض فوشى بأسراره وأفشى حديث آسه وعراره ، ومشى مختالا بين لبّات النّور وأزراره ، وهو وّجيم ، ودمعه منسجم ، وزفراته تترجم عن غرامه ، وتجمجم عن تعذر مرامه ، فلما نظر إليه استدناه وقرّبه ، وشكا إليه من الهجران ما استغربه وأنشده :

أيا نفس لا تجزعي واصبري والا فان الهوى متلف
حبيب جفاك وقلب عصاك ولاح لحاك ولا ينصف
شجون منعن الجفون الكرى وعوضنها أدمعا تنزف
وانصرف دخر الدولة دون أن يعلمه المعتمد بقصته أو يكشف له عن غصته .

وقد اتسع قلب المعتمد لحب الكثيرات من جواريه وتدله في حب بعضهن من هؤلاء جاريتة جوهرة ، فقد فتن بها وتملكه حبها فقال فيها : في احدى نوبات غضبها عليه وهجرها له :

سرورنا بعدكم ناقص والعيش لاصاف ولاخالص^(١)
والسعد ان طالعنا نجمه وغبت فهو الآفل الناكص
سموك بالجواهر مظلومة مثلك لا يدركه غائص

(١) نفح الطيب الجزء الخامس صفحة ٢٣٢ / ٢٣٣ .

ولما تمادت في الغضب ، وأسرفت في الهجران وجه اليها هذه
الآيات :

جوهرة عذبنى منك تمادى الغضب
فزفرتى في سعد وعبرتى في صيب
يا كوكب الحسن الذى أزرى بزهر الشهب
مسكنك القلب فلا ترضى له بالوصب
وجرى بينه وبينها عتاب ورأى أن يكتب اليها يسترضيها
ويستلين قلبها فأجابته برقعة لم تعنونها باسمها فقال :
لم تصف لى بعد ولا فلم لم أر فى عنوانها جوهرة
درت بآنى عاشق لاسمها فلم ترد للغيظ أن تذكره
قالت اذا أبصره ثانيا قبّله والله لا أبصره
وكانت جواريه يثقن بحبه لهن ، ويطمعن فى حلمه عليهن ،
وهو يستطيب منهن هذا الدلال وتلك المعابثة ، فهو يقول فى
جاريته سحر التى أفرطت فى التجنى عليه حتى سأل الله الصفح
عنها :

عفا الله عن سحر على كل حالة
ولا حوسبت عما بها أنا واجد
أسحر ظلمت النفس واخترت فرقتى
فجمعت أحزاني وهن شوارد
وكانت شجونى باقترابك نرجأ
فها هن لما أن نأيت شواهد
فان تستلذى برّد مائك بعدنا .

فبعدك ما ندرى متى الماء بارد .

وفي جاريته وداد يقول المعتمد :

اشرب الكأس في وداد ودادك وتأنس بذكرها في انفرادك
قمر غاب عن جفونك مرآة وسكناه في سواد فؤادك
على أن زوجته وريحانة نفسه اعتماد الرميكية ظلت الحبيب
الأول ومالكة زمامه ، وبرغم تدله في حب الكثيرات من جواريه
فانهن لم يستطعن أن يزحزن زوجته الحبيبة عن مكانها وقد
عبر عن ذلك في قوله :

فما حل حل من فؤاد خليله محل « اعتماد » من فؤاد محمد
ولما طافت بنفسها الشبهة مرة رأى أن يرد عليها ثقتها به
بقوله :

تظن بنا أم الربيع سامة
ألا غفر الرحمن ذنبا تواقعه
أأهجر ظيما في ضلوعي كناسه
وبدر تمام في جفوني مطالعه
وروضة حسن أجتنيها وباردا
من الظلم لم تخطر على مشاعره
إذا عدت كفى نوالا تفيضه
على مقنعيها أو عدوا تقارعه
وفي مقطوعة أخرى يقول لها :

حب اعتماد في الجوانح ساكن
لا القلب ضاق به ولا هو راحل
وفي ديوانه مقطوعات من الشعر الغنائي عذبة الجرس ،
حلوة النغم ، أغلب الظن أنها قيلت في جواريه الكثيرات اللواتي

كان ينعم بقربهن في قصوره ، ويروقه منهن القرب والصد ،
والاقبال والنفور مثل قوله :

يا بديع الحسن والاحد . ان يا بدر الدياجي
يا غزالا صاد مني بالطللى ليث الهياج
قد غنينا بسنا وجهه بك عن ضوء السراج
وقوله :

أنا في عذاب من فراقك نشوان من خمر اشتياقك
لا تحسبى أنى سلو لك وارتشافك واعتناقك
صب الفؤاد الى لقاء ت لما توالى من فراقك
هذى جفونى أقسمت لا ملتقى ما لم تلاقك
فصلى جميل الظن بى وثقى فقلبى فى وثاقك

وربما كانت شاعرية المعتمد وعطفه على الشعراء وتقديره لهم
واعلاؤه لشأنهم يزرى به فى أمم أخرى غير الأمة الاندلسية فى
عصره ، أما فى زمنه فانه كان للشعر عند الأندلسيين حظ عظيم
وللشعراء من ملوكهم جميعا وجاهة ، وكان هذا هو الغالب ألا
أن يختل الوقت ويغلب الجهل فى حين ما ، ومما أورده المقرئ فى
النفع أنه ^(١) : « اذا كان الشخص بالأندلس نحويا أو شاعرا !
فانه يعظم فى نفسه لا محالة ويسخف ويظهر العجب ، عادة قد
جبلوا عليها » .

ونرى من ذلك أن الشعر زاد المعتمد جلالة فى النفوس ،
وحبا فى القلوب ، ولم يزر به ، وينقص من قدره ، بل زاده علوا
وانافة على معاصريه من الملوك والأمراء .

(١) الجزء الاول من نفع الطيب صفحة ٢٠٧ .

الاستيلاء على قرطبة

كان الميل الى اللهو والتسلى وحب الاستمتاع يطغيان على وقت المعتمد ويستأثران به الى حد كبير ، والأرجح أن هذا الحرص على اجتناء المتع والتنقل بين الغرام بجواريه الحسان وشعرائه الهائمين فى كل واد والذين كانوا لا يقلون عنه اقبالا على المتعة وجريا وراء اللذة ، بل لعل بعضهم مثل عبد الجليل بن وهبون قد بلغ به الانطلاق وراء اللذات الى حد الاستهتار والمجون ، أقول ان الأرجح أن هذا كله كان يشغله فى بعض الأوقات عن أعمال الدولة وشئون الحكم ، ولكن المعتمد مع ذلك كله لم يكن منصرفا الانصراف كله الى اللهو والمتعة ، وكانت خطورة الظروف التى تمر بها الأندلس الاسلامية فى تلك الأيام تستوجب ذلك ، ولم يكن فى المعتمد صرامة أبيه المعتضد ، ومضاء عزيمته ، وقوة ارادته ، وشدة طموحه ودهائه وبعد غوره ومتابعته بدقة وعناية وصبر البرنامج الذى فرضه على نفسه ، ووضع تحقيقه نصب عينه ، ولكن المعتمد مع ذلك كان لا يخلو من الطموح والشعور بالتبعة والحرص على توسيع أملاكه وبسط نفوذ أسرته ، وكانت الأسرة العبادية منذ نشأتها تطمع فى بسط سلطانها على الأندلس الاسلامية جميعها ، وتوحيدها تحت علم واحد ، ولو أنها استطاعت تحقيق هذا الهدف لكان

ذلك على الأرجح خيرا للأندلس ، وربما كان جنبها الكثير من الرزايا والنكبات التي حلت بها ، ولكن الظروف كانت أقوى من تلك الأسرة ، والعقبات القائمة في سبيل ضم أشتات الولايات المتناثرة لم يكن من اليسير تذليلها ، كان الأمر في حاجة إلى عاملين هامين ، مواتاة الظروف وظهور أحد العبقرين الذين لا يظهرون الا في الفترات النادرة .

وقد تطلع جد المعتمد القاضي أبو القاسم وأبوه المعتضد الى الاستيلاء على قرطبة لأهمية ذلك لمن يريد بوجه خاص ان ييسط سلطانه على الأندلس الاسلامية ، فقد كانت قرطبة قاعدة الخلافة طوال العهد الأموي ، وكانت لها شهرتها الذائعة ، وذكرياتها التاريخية ، ومكاتها الأدبية ، وقد مهد المعتضد السبيل للاستيلاء عليها وكانت الظروف مواتية ، ولو امتد به طلق العمر لاستطاع على الأغلب الاستيلاء عليها ، وحقق بذلك ، أملا طالما راوده ، ولكن الموت أعجله قبل أن يظفر ببيغيته .

وقد سبق أن ذكرت أن أهل قرطبة حينما يشسوا من ورثة الخلافة الأموية الأندلسية ونفضوا أيديهم من الولاء لهم وطردها آخرهم من مدينتهم أقاموا حكما كثير الشبه بالحكم الجمهوري ، وكان صاحب الرأي الأعلى فيه أو ما يصح أن ندعوه برئيس الجمهورية هو الرجل السديد الرأي الراجح الفكر العف اليد أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور ، وقد ظل يسوس الأمور خير سياسة ، ويدبرها أحسن تدبير حتى طواه دهره في سنة ٤٣٥ فخلفه ابنه أبو الوليد محمد بن جهور الذي

جرى على سياسته واقتفى أثره غير مغل بشيء منه فحسنت
أحوال قرطبة ، واستتب بها الأمن ، وثقلت أعباء الرياسة على
أبى الوليد فرأى فى سنة ٤٥٦ هجرية أن يقسم السلطة التى له
بين ولديه عبد الرحمن وهو كبير جماعتهم وأخيه عبد الملك وهو
أشهمهم فؤادا وأصلبهم عودا ، وكان قد أشار عليه بعض حلفائه
من رؤساء الأندلس بإيثار عبد الرحمن منهما بوصفه الأكبر ،
فتمسك أبو الوليد بحظه من ارضاء ولده الصغير عبد الملك ،
فمال الى قسمة الرياسة بينهما طوال حياته ، ومتّع نفسه بهواها
فى صغير ولده وصدق قول الشاعر الأندلسى ابن الجزيرى :

واذا الفتى فقد الشباب سماله حب البنين ولا كحب الأصغر

فارتع ولديه هذين فى دنياه ، وبسط أيديهما فى سلطانه ،
فوقع بينهما ما كان منتظراً من التنافس ، وطفق كل منهما
يستميل طائفة من الجند ويصطنع من الرعية فرقة ، وكثر خوض
الناس فى الحديث عن التنافس بين الأخوين ، وخاف أبو الوليد
عاقبة ذلك وأراد أن يضع له حداً ، فجعل الى أكبرهما عبد الرحمن
النظر فى أمر الجباية والاشراف على أهل الخدمة والتوقيع فى
الصكوك السلطانية المتضمنة للحل والعقد والاطراح والضم
وجميع أبواب النفقات ، وهو ما نسميه فى عصرنا الاشراف
الادارى والمالى ، وجعل الى عبد الملك النظر فى الجند ، والتونى
لعرضهم ، والاشراف على أعطيّتهم ، والركوب فيهم لدى
الروع ، وتجريدهم فى البعوث ، والتقوية لأودهم وجميع ما

يخصهم ، أى الاشراف على الجيش والشرطة والأمن العام ،
ورضى الأخوان بهذا التقسيم .

وكان المدبر الحقيقى لدولة بنى جهور رجل يدعى بابن
السقاء ، وكان هذا الرجل حازماً قوى الشكينة ، شديد الضبط
لسلطانه ، وقد استطاع بقوة شخصيته أن يحسم الأطماع عن
قرطبة ، ويخيف الأنداد والمتنافسين والحساد ، وكان المعتضد
يتطلع الى امتلاك قرطبة ، ولذلك كان يرقب أحوالها ، وحاول
أن يغتنم الفرصة الملائمة للوثوب عليها وضمها الى أملاكه ،
وكان يجد فى يقظة ابن السقاء ونجاح سياسته عقبة كأداء فى
طريق تحقيق أمنيته ، فلجأ الى المكر والحيلة ، ودس الى
عبد الملك الذى كان يعرف تهوره واندفاعه من يوغر صدره
على ابن السقاء ويجسره على الفتك به والخلاص منه ، وفى
الوقت نفسه دس على ابن السقاء من زين له الاستئثار بالسلطة
وألقى فى روعه حُبَّ الملك ، وبذلك اتسعت هاوية الخلاف بين
عبد الملك وابن السقاء ، وكبر على عبد الملك أن يسلب ابن
السقاء بنى جهور نفوذهم ، فوثب عليه وقتله ، واعتقد بذلك
أنه قد استدرك لقومه ما كان تولى من سلطانهم ، وملاؤه ذلك
زهوا وغروراً واستطالة على الناس ، وقد أضر قتل ابن السقاء
بالدولة القرطبية ضرراً بايغاً فقد كان الرجل يبعث الهيبة
والاحترام فى نفوس رجال الدولة جميعهم ، وكان قد اصطنعهم
بحذقه ، وامتلك قلوبهم بسماحته وبذله وتواضعه وعدله ، فلما
خلا الجو لعبد الملك بعد مصرع ابن السقاء وركبه الغرور أساء

السياسة وأسخط الناس وذاع ذلك وشاع ولاحت الفرصة
للطامعين في الاستيلاء على قرطبة ، وكان يحيى بن ذى النون
صاحب طليطلة لا يقل شغفاً عن المعتضد بامتلاك قرطبة .

وخلت السنون وعدت العوادي المعتضد عن أخذ قرطبة ،
وغالته المنون في سنة ٤٦١ هـ وصار الأمر الى ابنه المعتمد ، فلما
كانت سنة ٤٦٢ هـ دلف ابن ذى النون الى قرطبة وجعل يوالى
عليها الفارات ، وكان عبد الملك قد غلب أخاه على أمره واستبد
بالأمر ، والظاهر أنه ألغى بالتدريج النظام الشيعي بالنظام
الجمهوري الذي كان ينعم به سكان قرطبة ، وانفض الناس من
حوله ، فلما جاء ابن ذى النون بجيشه وضرب الحصار على
المدينة لم يجد عبد الملك عنده من الأنصار والمؤيدين الذين
يستطيع بهم أن يرد الهجوم ، ويقاوم الحصار ، وينقذ حكومته
من السقوط والدمار ، ولم يجد بداً من استمداد المساعدة من
المعتمد ، وبذلك لاحت الفرصة التي كان يتطلع اليها المعتمد
ووالده من قبله وهي فرصة الاستيلاء على قرطبة ، فأرسل اليه
جيشاً مع قائديه : خلف بن نجاح ومحمد بن مرتين ، فاضطر
جيش ابن ذى النون الى أن ينسحب الى طليطلة ، وكان المعتمد
قد نهج لقائديه السبيل الذي يتبعانه ، وكان جيش اشبيلية قد
نزل بربض قرطبة الشرقي ، فلما ارتحل ابن ذى النون تظاهر
الاشبيليون بالاستعداد للقفول ، وباتوا مظهرين للرحيل ،
وعبد الملك متأهب لتشييعهم ، عازم على البكرة الى توديعهم
وشكرهم على حسن صنيعهم ، فلم يرعه في صباح اليوم التالي

الا أحداقهم بقصره ، واعلانهم البراءة من أمره ، وقبض للحين
عليه وعلى اخوته وجميع أهل بيته ، واتتهكت حرمتهم ، وأخرج
الشيخ أبو الوليد وكان اذ ذاك مائل الشق مفلوج الشدق .
وحملوا جميعا الى جزيرة شلطيّش ، وظلّوا بها بقية أيام المعتمد ،
ولم تطل حياة أبي الوليد بعد تلك الصدمة فمات في الجزيرة
المذكورة بعد أربعين يوماً من نكبته واقترض بذلك ملك بنى
جهور ، وقد شاء القدر أن يلعب مرسف بن تاشفين مع المعتمد
— على وجه التقريب — الدور الذى لعبه المعتمد مع بنى جهور
أمراء قرطبة .

والطريقة التى اتبعها المعتمد فى أخذ قرطبة ترينا طابع
السياسة المكياقيلية التى كانت غالبة على هذا العصر بوجه
خاص ، وتكشف لنا عن سوء علاقة ملوك الطوائف بعضهم
ببعض ، وكيف كان كل منهم يبغي هلاك الآخر ليستلب ملكه ،
مما مكّن ملوك اسبانيا المسيحيين من استرداد نفوذهم ، وطرد
المسلمين من بلادهم .

وفرّح المعتمد بالاستيلاء على قرطبة ، وهز الزهو عطفه
فجادت قريحته الشعرية بهذه الأبيات :

من للملوك بشأو الأصيد البطل
هيهات جاءتكم مهدية الدول
خطبت قرطبة الحسناء اذ منعت
من جاء يخطبها بالبيض والأسل

وكم غدت عاطلا حتى عرضت لها
فأصبحت في سرى الخلى والحلل
عرّس الملوك لنا في قصرها عرّس
كل الملوك به في مآتم الوجل
فراقبوا عن قريب لا أبا لكم

هجوم ليث بدرع البأس مشتمل
ولما انتظمت قرطبة في سلك المعتمد أعطى ابنه عبادا الملقب
بالظافر زمامها ، وكان عباد أحد أبناءه من حظيته الرميكية ، ولم
يكن المعتمد موقفا في هذا الاختيار ، لأن عبادا كان صغير السن
قليل التجربة ، وكان أهل قرطبة كثيرى القلب نزاعين الى
الشغب شديدي النقد لحكامهم ، وقد قبلوا بارتياح في بادئ
الأمر حكم أميرهم الشاب الغرير الحسن القصد ، الطيب
النفس ، ولكن جهله بأصول الحكم وسياسة الملك جعلته يعتمد
في تصريف الأمور على ابن مرتين رئيس حرس المدينة ، وكان
ابن مرتين قائدا قديراً وجنديا بارعا ولكنه كان فظاً سيئ
السريّة محبا للأذى ، ولذلك كرهه القرطبيون .

ولم يكن ابن ذى النون يعتقد أن مسألة قرطبة قد انتهت
وانها قد خلصت لابن عباد ، فشن غارة على أحوازها مع جنود
حليفه ألفونسو السادس ، ولكن الأمير الشاب الناشئ استطاع
أن يصد هجومهم ويدفع غائلتهم .

وكان هناك رجل يدعى بابن عكاشة قد صمم على امتلاك
المدينة ، وكان هذا الرجل مغامرا فتاكا شديد الضراوة مطبوعا

على الاجرام ، وكان فى بدء حياته من قطاع الطرق وكان مع ذلك لا يخلو من ذكاء وحدة قلب ونباهة شأن ، وكان يعرف قرطبة وأهلها معرفة جيدة ، فقد لعب دورا فى سياستها ، وتمرس بأحوالها ، فلما عين حاكما لأحد الحصون أخذ يعمل على تدبير مؤامرة داخل المدينة ، ووجد الطريق معبدا لذلك فقد كان التذمر من سوء الحكم عاما ، وقد تهم الأهالى على عبد الملك بن جمهور لأنه عنف بهم وسلط عليهم رجال بطاقته وكانوا من السفال وسقاط الناس ومن لا خلاق لهم وساعدوا جيش ابن عباد فى الاستيلاء على المدينة لأنهم ضجروا من جور عبد الملك وصحابته ، وفتنوا فى بادىء الأمر بكرم خلال الأمير الشاب وشيخه الغر ولكن غلبة ابن مرتين عليه وأخذه لهم بالشدة واستبداده بالأمر أعادهم الى قديم سخطهم ، واستغل ابن عكاشة الموقف ، والعجيب أن ابن عكاشة لم ينجح فى اخفاء خططه وكنمان سره ، ولحظ أحد قادة الحرس أن ابن عكاشة يغشى أبواب المدينة تحت ستار الليل ، ويتبادل الأحاديث المريبة مع حراس المدينة ، فبادر بإبلاغ الأمر الى الأمير عباد ، فلم يقدر أهميته ولم يعره اهتمامه ، واكتفى بأن أحال الأمر على ابن مرتين ، وأحاله ابن مرتين فى دوره على من دونه من رجال الحرس ، والواقع أن كل واحد من رجال الحرس والقائمين على الأمن فى المدينة كان يحيله على الآخر ولم يتخذ أى إجراء للقضاء على المؤامرة فى يدها ، وظل ابن عكاشة متابعا نشاطه وهو واثق من نفسه مطمئن الى نجاحه لغفلة الأمير ورجاله

وتناديهم في التهاون . وفي احدى ليالى شتاء سنة ٦٨٠ ، الحالكة
الظلام وقد اشتد عصف الرياح انتهر ابن عكاشة الفرصة ودخل
المدينة مع رجاله دون أن يراه الحراس ، ووصل الى قصر الأمير
وقد غاب عنه الحرس ، وهم بكسر الباب ، فأيقظ البواب
الأمير ، فهب من نومه ، وجرد سيفه ولم يكن معه سوى عدد
قليل من عبيده ورجاله ، ورغم صغر سنه دافع الأمير عن حوزته
دفاع الأبطال ، واستطاع تطهير دهليز القصر من المهاجمين ،
ولكن قدمه زلت لسوء حظه ، واغتتم أحد المهاجمين فرصة
وقوعه على الأرض وقتله ، وكان الأمير حينما أوقف من نومه
لم يجد ما يكفى من الوقت لارتدائه ثيابه فسحبت جثته الى
خارج القصر وألقيت بالطريق عارية .

وقاد ابن عكاشة رجاله الى بيت قائد الحرس ابن مرتين
الذى لم يكن يتوقع مثل هذه المفاجأة وكان قد أقام حفلة راقصة
في داره ، وبينما هو يسمع شدة القيان ورنة العيدان صك سمعه
صليل السيوف في فناء داره ، وكانت تنقصه شجاعة الأمير
الشاب ابن المعتمد فبادر الى الاختفاء وأخرج من مخبئه وقتل .
وعند تلمج أنوار الفجر في اليوم التالى وبينما كان ابن
عكاشة يتنقل مسرعا بين منازل أعيان المدينة ورجالاتها ليضمهم
الى صفه خرج أحد أئمة المساجد من داره قاصدا المسجد لصلاة
الصبح ، ووقعت عينه على جثة الأمير الملقاة على قارعة الطريق
وقد تبينها بصعوبة لأنها كانت ملطخة بالأوحال فخلع ردائه عن
منكبيه وستر بها الجثة العارية ، ولم يكد يذهب فى طريقه حتى

جاء ابن عكاشة يتبعه الغوغاء محبو الشغب وأتباع كل ناعق ،
فلما رأى الجثة أمر ففصل الرأس من العنق ، ورفع على رمح ،
وَضِيفَ به في أنحاء المدينة بين صيحات الرعاع المدوية ، ولما رأى
جنود الحرس الرأس المرفوع على الرمح ألقوا سلاحهم ولاذوا
بالفرار ، وجمع ابن عكاشة أهل قرطبة في المسجد الجامع وأمرهم
بحلف يمين الولاء للمأمون صاحب طليطلة ، وبالرغم من أن
الكثيرين منهم كانوا يضمرون الولاء للمعتد فانهم لم يتخلفوا
عن بيعه المأمون لخوفهم من ابن عكاشة .

وبعد أيام قلائل جاء المأمون بن ذى النون بنفسه الى قرطبة
وأظهر شكره العميق لابن عكاشة وثقته به ، ولكنه كان في
صميم نفسه يخشى هذا اللص المغامر المتمرس بالجرائم ، وكان
يرى أن من تطاول على قتل الأمراء وأبناء الملوك لا يؤمن شره
ولذلك شرع يتحين الفرص للخلاص منه ، ولم يستطع كتمان
ذلك عن حاشيته ، ففي ذات يوم دخل عليه ابن عكاشة فرحب
به وأدناه وهش له ، فلما خرج تنفس الصعداء ، وأتبعه نظرة
شوهاء ، وهينم بكلمات نال بها منه ، ولما سأله أحد رجال
حاشيته عن سبب ذلك قال « من اجتراً على الملوك لا يصلح
للملوك » . وفي الشهر السادس لاقامة المأمون في قرطبة توفي
مسموما ، وقد دس له السم أحد رجال بلاطه ، ومن الصعب أن
نصدق أن ابن عكاشة لم يكن شريكاً له في هذه الجريمة .

وحزن المعتد على ابنه حزناً شديداً حينما بلغت أُنْبَاءُ
قرطبة ، وألهاه الحزن وتقدير جميل الرجل الذي خلع رداءه وغطاه

به عن الظمأ الى الانتقام ، وتمثل بقول الشاعر أبى خراش
المهذلى فى رثاء ابنه .

ولم أدر من ألقى عليه رداءه

على أنه قد سل عن ماجد محض

ولم يحفظ له فيه شعر سوى اشارته اليه فى رثاء أخويه
المأمون والراضى وقد قتل سنة ٤٨٤ هـ وهى قوله :

وقبلكما ما أودع القلب حسرة

تجدد طول الدهر ثكل أبى عمرو

ولم يستطع المعتمد الثأر لابنه والانتقام من ابن عكاشة
واسترداد قرطبة الا بعد ثلاثة أعوام ، ففى سنة ٤٧١ هـ هوجمت
المدينة ، وفى الوقت الذى دخل فيه جيش المعتمد من أحد
أبوابها هرب ابن عكاشة من الباب الآخر ، فأتبعه المعتمد بعض
فرسانه ، ولما كان ابن عكاشة يعلم أنه لا يرجو رحمة من المعتمد
إذا ظفر به وقد قتل ابنه لذلك صمم على أن يبيع حياته بالثمن
الغالى ، وهاجم فرسان المعتمد كالثور الهائج ، ولكنهم تكاثروا
عليه وقتلوه وأمر المعتمد بصلب جثته والى جانبها كلب .

وتلا فتح قرطبة الاستيلاء على الأراضى التابعة لمملكة
طليطلة بين نهر الوادى الكبير ونهر وادى آنه ، ولا نزاع فى أن
الظفر بقرطبة كان انتصارا عظيما للمعتمد ، ولكن المسألة كان
لها وجه آخر ، فقد كان المعتمد قويا حينما يقاس بالأمرء
المسلمين فى الأندلس ، فهو أبعدهم شهرة وأضخمهم سلطانا ،
ولكنه كان مثلهم يؤدى الجزية المفروضة عليهم لغرسية ملك،

قشتالة والابن الثالث لفرناندو ، ولما استولى ألفونسو السادس على ملكى أخويه غرسية وسانكو أصبح هو الذى تدفع له الجزية المفروضة ، وكان ألفونسو السادس ملكا طاغية فظا شديد الجشع ، فلم يكتف بالجزية السنوية التى كان يتقاضاها من الملوك والأمراء المسلمين ، وكان من الحين الى الحين يهددهم بالاستيلاء على أملاكهم ، وقاد جيشه مرة وغزا منطقة اشبيلية ، واستولى الخوف على السكان المسلمين ، ولم يكن للمعتمد قبّل على رد غارته ، ولكن ابن عمار كبير وزراء المعتمد لم ييأس ، وكان يعلم أنه لا فائدة ترجى من وضع جيش اشبيلية أمام جيش ألفونسو السادس الجرار ، فلا بد اذن من اصطناع الحيلة ، وكان ابن عمار يعرف ألفونسو السادس معرفة جيدة فقد زار بلاطه وبلاط غيره من ملوك شبه الجزيرة وكان ألفونسو كذلك يعرف ابن عمار ويقدره واذا ذكر اسم ابن عمار عنده يقول عنه : « هو رجل الجزيرة » ، وكان ابن عمار يعرف طموح ألفونسو ومطامعه ولكنه كان يعرف كذلك نزواته ونواحي ضعفه ، وعمل ابن عمار على استغلال هذه النواحي الضعيفة فى دفع الهجوم على اشبيلية ، وبدلا من اعداد جيش للمقاومة وتنظيم الاستعداد للدفاع أمر باعداد رقعة شطرنج غاية فى الاتقان والابداع لا يملك ملك من الملوك مثلها ، وافتن فيها صانعها فجعل صورها من الآبنوس والعود الرطب والصندل ، وحلائها بالذهب ، وجعل أرضها غاية فى الاتقان ، وخرج من عند المعتمد رسولا الى ألفونسو ، ولقيه فى أول بلاد

المسلمين ، وأعظم ألفونسو قدومه وبالنسبة في إكرامه ، وأمر وجوه دولته بالتردد إلى خبائه والمشاركة في حوائجه ، وأظهر ابن عمار رقعة الشطرنج ، فرآها بعض خواص ألفونسو ، وتقل خبرها إليه ، وكان ألفونسو مولعا بلعب الشطرنج ، فلما لقي ابن عمار سأله : « كيف أنت في الشطرنج ؟ » وكان ابن عمار ممن يجيدون هذه اللعبة ، فأجابه أن أصحابه يقولون عنه أنه يحسن اللعب بالشطرنج ، فقال له ألفونسو : « بلغني أن عندك رقعة في غاية الاتقان ! » .

فأجابه ابن عمار : « نعم » .

فقال ألفونسو : « كيف السبيل إلى رؤيتها ؟ » .

فقال ابن عمار لترجمانه : « قل له أنا آتيك بها على أن ألعب معك عليها ، فإن غلبتني فهي لك وإن غلبتك فلي حكمي » فقال ألفونسو : « أحضرها لننظر إليها » .

فأمر ابن عمار من جاء بها ، فلما وضعت أمام ألفونسو دهش من اتقانها وقال : « ما ظننت أن اتقان الشطرنج يبلغ إلى هذا الحد ! » .

ثم قال لابن عمار : « كيف قلت ؟ » .

فأعاد ابن عمار عليه الكلام الأول .

فقال ألفونسو : « لا ألعب معك على حكم مجهول لا أدري

ما هو ، ولعله شيء لا يمكنني » .

فقال ابن عمار : « لا ألعب إلا على هذا الوجه ! » . وأمر

بالرقعة فطويت .

وكشف ابن عمار سر ما أراده لرجال وثق بهم من وجوه دولة ألفونسو وجعل لهم أموالا عظيمة على أن يؤازروه على أمره ، وحملهم الطمع في المال على تأييد ابن عمار ، ولما كان ألفونسو شديد الرغبة في اقتناء الرقعة فقد شاور خاصته فيما رسمه ابن عمار ، فهوّنوا عليه الأمر وقالوا له : « ان غلبته كانت عندك رقعة ليس عند ملك مثلها ، وان غلبك فما عساه يحتكم ؟ » .

وقبّحوا عنده اظهار الملك العجز عن شيء يطلب منه . وقالوا له « ان طلب ابن عمار ما لا يمكن فنحن لك برده عن ذلك » ولم يزالوا به حتى أجاب ، وأرسل الى ابن عمار ، فجاء ومعه الرقعة فقال له ألفونسو : « قد قبلت ما رسمته » .

فقال له ابن عمار « اجعل بيني وبينك شهودا نزولا على قوانين اللعبة وأذن لي في اختيار الشهود » .

ووافق الملك على ذلك ، ولما جاء الشهود القشتاليون بدأ اللعب ، وكان ابن عمار لا يقوم له أحد بالأندلس في لعب الشطرنج ، فغلب ألفونسو غلبة ظاهرة لجميع الحاضرين ، ولم يجد ألفونسو فيها أي مطعن ، فلما جفت الغلبة قال له ابن عمار : « هل صح أن لي حكمي ؟ » .

فقال ألفونسو : « نعم ، فما هو ؟ » .

فقال ابن عمار : « أن ترجع من ههنا الى بلادك وتعود بجيشك » .

فأربد وجه ألفونسو ، وقام وقعد ، وقال لخواصه : « قد

كنت أخاف من هذا حتى هوّّتموه علىّ » وهم بالنسكّ،
والتمادى لوجهه ، فقبحوا له ذلك ، وقالوا له : « كيف يجمل
بك الغدر وأنت ملك ملوك النصارى فى وقتك ! » ولم يزالوا به
حتى سكن ، وقال : « آخذ اتاوة عامين خلاف هذه السنة ! » .
فقال ابن عمار : « هذا كله لك ! » . وجاءه بما أراد ، فرجع
أدراجه ، وكف بأسه .

ورجع ابن عمار الى اشبيلية وقد امتلأت نفس المعتمد
سروراً بخلاصه من هذا المأزق وسلمت له شيلية كما امتلأت
نفس ابن عمار غروراً بهذا الانتصار .

مصرع ابن عمار

قال ابن بسام في الذخيرة يصف ابن عمار : « كان زير قيان
وغلمان ، وصريع راح وريحان ، أمله شرب كأس وشم آس .
وجزله في نصب حباله لغزال أو غزالة حتى ثلّ ذلك عرشه
وطأطأ من سموه » . هذا رأى ابن بسام ، ولكنه نظر الى جانب
واحد من حياة هذا الرجل الذي شغل بال معاصريه وكثر حساده
ومنافسوه ، فقد كان ابن عمار الى جانب نزعة الأبيقورية رجلاً
طموحاً شديد الثقة بنفسه والاعجاب بها ، ولا نزاع في أن الحيلة
التي اصطنعها في دفع عدوان ألفونسو السادس على اشبيلية
زادته غروراً واعتزازاً بنفسه ، وجعلته يعطيها فوق قدرها ،
وعد نفسه منقذ الدولة ، ومخلص الأمة ، وأصبح يرى أن
المعتمد لا يستطيع الاستغناء عنه ، وأنه سيظل يشعر بأنه مدين
له بالبقاء على عرش اشبيلية ، وترامت مطامعه ، وتطلع الى
توسيع حدود مملكة اشبيلية ، واتجهت أنظاره بوجه خاص الى
التغلب على مدينة مرسية وأعمالها وهي التي تعرف بتدمير —
احدى كور شرق الأندلس — وكانت مرسية حينما نشبت الفتنة
في الأندلس وتمزقت وحدتها قد استقل بها خيران الصقلبي أحد
موالى المنصور بن أبى عامر ، وخلفه عليها بعد موته زهير

الصقلبي وكان مثله من موالى المنصور ، وظل يحكمها بضع سنين ، وحدث خلاف بينه وبين باديس بن حبثوس صاحب غرناطة من جراء حماقة وزيره ابن عباس أدى الى نشوب حرب بينهما أسفرت عن مقتل زهير وأسر ابن عباس وقتله بعد ذلك ، وضمت مرسية الى مملكة بلنسية ، ولكنها عادت فاستردت استقلالها ، وكان المتغلب عليها والمدير لأمرها في ذلك الوقت هو أبو عبد الرحمن محمد بن طاهر ، وكان ابن طاهر عربيا من قبيلة قيس المضرية ، وكان واسع الثراء يملك نصف مرسية ، وكان مع ضخامة ثروته مثقفا مستنير الذهن ، ولكنه كان قليل العناية بجيشه ، ولذلك كان جيشه ضعيفا ناقص الأهبة ، وكان ابن عمار يعرف ذلك ، ولذلك أغرى المعتمد بالاستيلاء عليها ، وأعد المعتمد جيشا لمهاجمتها ، والظاهر أن ابن عمار الذي كان شديد الحرص على أخذ مرسية أراد أن يحتاط للأمر فرأى الاستعانة بصاحب برشلونة الكونت ريموند بيرانجيه ، وأقنع المعتمد بذلك ، فأرسله المعتمد لعقد معاهدة معه ، وفي أثناء ذهاب ابن عمار الى برشلونة ممرسية وأكد علاقاته ببعض أشرافها الذين كانوا ناقلين على سياسة ابن طاهر ، وأغرى بعضهم بالمال ، ووعد بعضهم بمنحه السلطة والنفوذ اذا يسر له التغلب على المدينة ومضى لوجهته ، ولما وصل الى بلاط صاحب برشلونة فاوضه في المهمة التي جاء من أجلها وعرض عليه عشرة آلاف مثقال ذهباً اذا ساعده في غزو مرسية ، وقبل الكونت هذا العرض وتم التعاقد بينهما على أن يرسل الكونت ابن أخيه

رهينة عند المعتمد حتى لا يخل شروط الاتفاق ، ووعد ابن
عمار من جانبه أنه اذا لم يأت المال الى الكونت في الأجل الذي
ضربه البرشلونى يصبح الرشيد ابن المعتمد الذى كان يقود
حملة اشبيلية رهينة عند الكونت ريموند ، وكان المعتمد يجهل
هذا الشرط من شروط الاتفاق ، وأصعد المعتمد ابنه الرشيد
فى جيش اشبيلية وأخذ يسعى فى تدبير المال المطلوب وفى نيته
أن يلحق به بعد جمعه ، ولم يكن يقدر ابن عمار أن المعتمد قد
يتأخر فى ارسال المال المطلوب ، ولذلك قبل شرط أن يرهن
كل واحد منهما ما يثق به ، واعتقد أن شرط الرهن لن يطبق .
وتقدم جيش اشبيلية ، ولقى جيش الكونت ريموند ،
وهاجم الجيشان ولاية مرسية وانصرم الأجل المحدد ولم يصل
المال الى صاحب برشلونة ، وتحرك المعتمد الى قرطبة ثم الى
جيان ومع الرهينة على عادته من التؤدة ، وأبطأ على ريموند
ما عوقد عليه ، واعتقد أن ابن عباد قد مكر به فقبض على ابن
عمار وعلى الرشيد بن المعتمد وقيدهما ، وحاول جيش اشبيلية
أن يخلصهما ولكنه عجز عن ذلك ، ونكص على أعقابهم مفلولاً .
وفصل المعتمد من جيان وشارف عمل شقورة ، فلما وصل الى
وادي آنه لم يمكنه خوضه لمدة بالسيول ، فأقام على شاطئه
الغربى ، وجاء فلٌ عسكر اشبيلية ، وأطلقوا على الشاطئ
الشرقى ، واقتحمه منهم فارسان أجازاه اليه وأخبراه بالنبا
الكريه ، فسقط فى يده وعاد أدراجه الى جيان بعد أن وضع
ابن أخى الكونت فى الحديد ، وكان ابن عمار قد أوصى اليه مع

هذين الفارسين أن يقيم لعله يلحق به ، وأطلق سراح ابن عمار
فورد عليه بعد تمام عشرة أيام ، ونزل على وادي بلّون على
مقربة من جيان وكتب كتابا وطواه وبعث به أحد فرسان عبيده
الى جيان ، ولم يجترىء ابن عمار على المثول بين يديه ، المعتمد
وأرسل اليه الآيات الآتية :

أصدق ظنى أم أصيخ الى صحبى
فأمضى عزمى أم أعوج الى الركب
وأصبحت لا أدري أفى البعد راحتى
فأجعله حظى أم الحظ فى القرب
إذا اتقدت فى أمرى مشيت مع الهوى
وان أتعبه نكصت على عقبى
على أننى أدري بأنك مؤثر
على كل حال ما يزحزح من كربى
أهابك للحق الذى لك فى دمي
وأرجوك للحب الذى لك فى قلبى
أيظلم فى وجهى كذا قسر الدجى
وتنبوبكفى صفحة الصارم العضب
حنانك فيمن أنت شاهد نصحه
وليس له غير اتصاحك من حسب
وما جئت شيئا فيه بغى لطالب
يضاف به رأى الى العجز والعجب

سوى أنى أسلمتنى لملة
فللت بها حدى وكسرت من غربى
وما أغرب الأيام فيما قضت به
ترينى بعدى عنك آنس من قربى
أما أنه لولا عوارفك التى
جرت جريان الماء فى الغصن الرطب
لما سمت نفسى ما أسوم من الأذى
ولا قلت ان الذنب فيما جرى ذنبى
سأستمنح الرحى لديك ضراعة
وأسأل سقيا من تجاوزك العذب
فان تفحتنى من سمائك حرّجف
سأهتف يا برد النسيم على قلبى
وكان المعتمد يشعر بما عليه من تبعه فيما حدث ، وأن الذنب
ذنبه والتقصير من جانبه ، ولذلك لم يترسل مع الغضب ، ولم
يصب سخطه على ابن عمار ، وكتب اليه بهذه الأبيات ليفرغ
السكينة على قلبه ، ويشجعه على القدوم اليه :
تقدم الى ما اعتدت عندى من الرّحّب
ورد تلقك العتبى حجابا من العتب
متى تلقنى تلق الذى قد بلوته
صفوحا عن الجانى رءوفا على الصّحب
سأوليك منى ما عهدت من الرضا
وأعرض عما كان - ان كان - من ذنب

فما أشعر الرحمن قلبى قسوة
ولا صار نسيان الأذمة من شغبي
تكلفته أبغى به لك سلوة

فليس يجيد الشعر مشترك اللب

ولما اطمأن ابن عمار الى صفح المعتمد أسرع اليه ، واتفق
الصديقان على أن يسلما للكونت ابن أخيه وعشرة الآلاف
مئقال من الذهب حسب الاتفاق المعقود بينهما لقاء اطلاق سراح
ابنه الرشيد .

ولكن ريموند لم يكتف بالمال السابق الاتفاق عليه ، وطلب
ثلاثين ألف مئقال من الذهب ولم يكن هذا المبلغ فى حيازة
المعتمد وهو بعيد عن قاعدة ملكه فأمر بسك عملة أدخل فى
تركيبها عناصر زائفة ، ولحسن حظه لم يفتن ريموند لمبلغ ما فيها
من الزيف فقبلها وأطلق سراح الرشيد .

ورغم اخفاق محاولة الاستيلاء على مرسية فان ابن عمار لم
يرجع عن طلبها فقد كان يطمع فى الاستيلاء عليها ، وتحديثه
نفسه بالاستقلال بها ، والأرجح أن الرجل كان يطلب الملك ،
فقد كان شديد الثقة بنفسه وكانت مطامعه لا تقف عند حد ،
وقال للمعتمد انه تلقى رسائل من أعيان مرسية تشجع على
استئناف المحاولة ، ونجح فى اقناع المعتمد بأن يزوده بجيش
لمحاصرة المدينة ، ولم يكتف بذلك بل طلب منه أن يأخذ ما
بأيدى التجار من الديباج والخز الى ما دون ذلك من الكسى
ليهدىها الى أهل مرسية على قدر منازلهم بعد فتحها ليستصفى

مودتهم ، ويأمن جانبهم ، وأجابه المعتمد الى طلبه ، والظاهر أنه لحظ في سلوك ابن عمار ما أثار في نفسه بعض الشكوك ، فلما ودعه ابن عمار وهو راحل الى مرسية على رأس الحملة ثم استطع المعتمد اخفاء الشكوك التي ساورته وقال لابن عمار : « سر الى خيرة الله ولا تظن أنى مخدوع » . فأجابه ابن عمار الذى أصبح يعتقد اعتقادا راسخا أن المعتمد لا يستطيع لاستغناء عنه : « لست بمخدوع ولكنك مضطر » . وتظاهر المعتمد بالاغضاء وحلم عنه ، وكان المعتمد يعرف غرور ابن عمار ، ويعلم أنه قد يخطئ ولكنه لم يكن يعتقد أنه قد يصل به التمادى فى الخطأ الى حد التكرار له والخروج عليه ، وخلع طاعته .

وخرج من اشبيلية رافعا ألويته قارعا طبوله ولما وصلت الحملة الى أرباض قرطبة توقف ابن عمار ريثما تنضم الى جيشه الخيالة من جند المدينة ، وأمضى ليلته فى قرطبة بقصر واليها الفتح بن المعتمد ، واحتفى به الفتح ، وأمتعته بأجاديثه العذبة حتى مضى الليل دون أن يشعر به ولاحت أنوار الفجر ، وتابعت الحملة تقدمها الى مرسية ، وكان كلما مر ببلد من أعمال المعتمد استخرج من ذخائرها ما استطاع وحمله معه .

واجتازت الحملة فى طريقها على حصن بلج - وهو حصن كان يحمل اسم بلج بن بشر القشيري زعيم العرب الشاميين الذى دخلوا الأندلس فى سنة ١٢٣ هجرية - وكان حاكم هذا الحصن عربيا من بنى قشير أسرة بلج ، وهو عبد الله بن رشيق .

فخرج على أميال من الحصن للقاء ابن عمار ، ورغب اليه في النزول بالحصن عنده ، وأجابه ابن عمار الى ذلك ، واحتفل في انزاله احتفالا استظرفه ابن عمار ، وآل به الأمر الى أن قدمه على جيشه .

وقصد ابن عمار مرسية ومعه صديقه الجديد الذي أولاه ثقة كبيرة لم يكن الرجل أهلا لها ، ولما اقترب الجيش من مدينة مولا ضرب عليها الحصار ولم يطل حصارها لأنها ما عثمت أن سلمت ، وكانت مدينة مرسية تعتمد في تموينها على المنطقة الواقعة حول مولا ، ولذلك كان تسليم مولا ضربة قاضية على مرسية ، ووثق ابن عمار بقرب سقوط مرسية ، وترك مولا في رعاية ابن رشيق وكتيبة من الخيالة الاشبيلية وعاد مع سائر الجيش الى اشبيلية .

وعلم بعد وصوله اشبيلية من كتاب أرسله اليه أحد رجاله أن المجاعة فتكت بسكان المدينة ، وأن أعيانها الذين سبق لهم أن وعدوه بالمساعدة ووعدهم بالمال والنفوذ قد وافقوا على مساعدة المحاصرين لها ، وأبلغ ابن عمار المعتمد أن المدينة موشكة على السقوط ، وقد أصاب في ذلك ، فان أبواب مرسية فتحت لابن رشيق بطريق الخيانة ، وألقى بابن طاهر في السجن وأخذت البيعة للمعتمد .

ولما بلغت ابن عمار هذه الأنباء امتلأت نفسه سرورا وزهوا ، وطلب من المعتمد أن يأذن له باللحاق بمرسية فأذن له المعتمد بغير تردد ، وأحضر ابن عمار عددا من الخيل والبغال من

الحظائر المملوكية واستعار بعضها من أصدقائه حتى بلغ عددها مائتين وحملها بصنوف الديباج والحلل النفيسة ليقدّمها هدايا لأعيان المدينة ، وسار ومعه الأعلام الخفاقة والطبول الضاربة ، ودخل مرسية في موكب حافل دخول القائد الظافر ، وفي اليوم التالي لدخوله المدينة جلس مجلس التهنئة للخواص والعوام ، وأنشده الشعراء القصائد التي نظموها في مدحه ، وقد تزيى بزى المعتمد في حمل الطويلة على رأسه كما كان يفعل المعتمد في مثل هذه المناسبة ، وحاكاه فيما كان يكتبه في آخر الالتماسات التي تقدم له وهو : « ان شاء الله تعالى » دون أن يذكر اسم المعتمد ، وتختّم في كلتا يديه .

ومثل هذا التصرف من ابن عسار كان يدل على بؤادر الخيانة والخروج على الطاعة ، ولم يغب ذلك عن المعتمد ، ولكن الشعور الذي استولى على المعتمد لم يكن شعور الغضب والرغبة في الانتقام وانزال العقوبة ، وإنما كان شعور الحزن الشديد وخيبة الأمل ، فهذا هو صديقه الذي أشبعه من جوع ، وأمنه من خوف وأخلص له المودة وأشركه في أمره ورفعته الى أسمى مناصب الدولة يتغير له ويخون عهده ، فما أعجب الأيام وما أغرب تقلبات القلب البشري ! ان المعتمد لم يترك وسيلة من وسائل التكريم والتعريب الا حباه بها فكيف يثق بعد ذلك بإنسان ؟ لقد كان ابن عمار آخر من كان يتوقع المعتمد منهم الخيانة ونكث العهد ، فهل كذبت عواطفه وخدعته نفسه ؟ وهل كان وراء الولاء الظاهر نية الغدر المبيتة وخلف الكلمات المعسولة السم

الناقع ؟ وهل تتحطم على صخرة المطامع تلك الصداقة الطويلة
الأمدة التي بدأت والشباب غض والأيام مؤاتية ؟ لقد كانت
الغيوم تتجمع في سماء الأندلس ، والمشكلات تتكاثر ،
والأزمات تطل بسحنتها النكراء ، وهو في حاجة الى الصديق
الناصح والمستشار الذكى المجرب ، وها هو يفجع في من كان
يظنه أوفى أصدقائه ، وأخلص مستشاريه ، وأعقل وزرائه ، لقد
هزت نفسه هزاً عنيفاً تلك اليقظة المؤلمة من الحلم الجميل الذى
كان مستغرقاً فيه ، الحلم بالصداقة والوفاء والاخلاص .
وتمكنت منه بعد هذه الصدمة روح السخرية التى تجىء عادة فى
أعقاب نوبات الحزن وعثرات الحظ ، وظهرت آثارها فى بعض
أشعاره التى نظمها بعد هذه الفترة وعبر فيها عن خواجه
كمألوف عادته .

وحقيقة أن ابن عمار كان بعيد الطموح ، مترامى الآمال .
مفرط الغرور ، محباً فى الاستعلاء فى عصر كثر فيه الانتهازيون
والوصوليون ، ولكن هل كان حقيقة يضر الخيانة وينوى
الغدر بمولاه ؟ كان غاية ما فى الأمر حتى ذلك الوقت شبهاً
وظنون تبعث على الشك فى ولائه ، وكان يزيد هذه الظنون
والشبهات قوة وتأثيراً وجود جماعة من المتنافسين الكارهين لابن
عمار الراغبين فى سقوطه حول المعتمد فى أشيلية وعلى رأسهم
أبو بكر بن زيدون ابن الشاعر ذى الوزارتين : أبى الوليد بن
زيدون ، وربما لو كان أمكن اجتماع الصديقين جنباً الى جنب
وتبادل الحديث والذكريات القديمة كانت تنقشع السحب التى

تجمعت في جو صداقتهما ، ويزول سوء الظن وتعود المياه الى مجاريها . ولكن المسافة الشاسعة التي كانت تفصل بينهما كانت تزيد الهاوية اتساعا والخلاف استفحالا حتى 'نتهى الى أقصى مداه .

• وقد أرسل المعتمد هذين البيتين لابن عمار معبرا بهما عن أساه وما خالجه من الظنون :

تغير لي فيمن تغير حارث
وكل خليل غيرته الحوادث
أحارث ان شوركت فيك فظالما
نعنا وما بيني وبينك ثالث

فأجابه ابن عمار بقصيدة يقول فيها :

لك المثل الأعلى وما أنا حارث
ولا أنا ممن غيرته الحوادث
ولا شاركته الشمس فيّ وانه
لينأى بحظي منك ثان وثالث
فديتك ما للبشر لم يسر برقه
ولا نفحت تلك السجايا الدمائث
أظن الذي بيني وبينك أذهبت
حلاوته عني الرجال الخبائث
تنكرت لا اني لفضلك ناكر
لدي ولا اني لعهدك ناكر

ولكن ظنون ساعدتها سخائم
كما ساعدت صوت المشاني المثال
أبعد انقضا خمس وعشرين حجة
تجافت لنا عنها الخطوب الكوارث
حللت يدا بي هكذا وتركتني
نهبنا ونأليام يبد عوايث
وهل أنا الا عبد ضاعتك التي
إذا مت عنها قام بعدى وارث
أعد نظرا لا توهن الرأي انه
قدما كبا هاف وأدرك راث
ستذكرني ان بان حبلى وأصبحت
تبين بكفيك الحبال الرثاث
وتطلبني ان غاب للرأي حاضر
وقد غاب عني للخواطر باعث
أعوذ بعهد فضته بك أن ترى
تحل عراد العاقدات النواكث

وقد كان ابن عمار بطبيعته أقل حماسة نفس وحرارة عاطفة
من المعتمد ، ولذلك لم يستطع أن يبادل المعتمد صداقة حارة
كصداقته وودا صافيا كوده ، ولكنه مع ذلك كان يشعر بم
للمعتمد عليه من فضل ، وينطوي له على ما تسمح به طبيعته
من الحب والعطف ، وكان يعرف ما فطر عليه المعتمد من سماحة
النفس وسجاجة الخلق ، ولكنه كان يخشى تأثير « الرجال

الخبائث » الذين أشار اليهم في قصيدته ، وحدث بعد ذلك ما زاد الخرق اتساعا على الراقع ، وأفسد ما بين الصديقين افسادا لم يعد يرجى صلاحه .

وكان في نية ابن عمار حينما حل بمرسية أن يحسن معاملة ابن طاهر ويرعى له مكاتته ، ولكن ابن طاهر كان غاضبا لتقلص نفوذه ، وضياع سلطانه ، وخيانة أهل بلده له : فلما رسل اليه ابن عمار رسولا يعرض عليه بعض الحلل النفيسة ليختار منها ما يروقه اصطناعا له وتقربا منه رد ابن طاهر عليه ردا عنيفا قائلا للرسول : « قل لسيدك اننى لا أقبل منه سوى جبة وقلنسوة » . وتلقى ابن عمار هذا الرد الجاف وهو بين رجال حاشيته فاشتعل غضبه ، وقال لما هدأت حدة غضبه : « انى أدرك مغزى كلامه ، فقد كنت أرتدى الجبة الصوف الحشنة والقلنسوة لما وقفت بين يديه أنشده شعرا وأنا فقير خامل الذكر » . ولم يستطع ابن عمار أن يغتفر لابن طاهر هذه الكلمات التى جرحت كبريائه وأفهمته أنه لا فائدة من استمالة ابن طاهر واسترضائه : فسا لبث أن أمر باعتقاله فى قلعة بمثنت قوط ، وكان بين ابن طاهر وابن عبد العزيز صاحب بلنسية صداقة وود ، فلما اعتقله ابن عمار غضب له ابن عبد العزيز ، وقام فى أمره وقعد ، وخاطب المعتمد فى أمره شافعا له ومناضلا عنه ، واستجاب المعتمد لرجاء ابن عبد العزيز وأرسل الى وزيره الأكبر باطلاق سراح ابن طاهر : فلم يحفل ابن عمار بأمر المعتمد ، وأبى أن يفك اعتقاله وركب رأسه ولج فى عناده ، ولم ييأس ابن عبد العزيز وأعمل الحيلة فى اطلاق سراح ابن

طاهر وتمكينه من الهرب من معتقله ، ونجح في ذلك ^(١) ، ولما حل ابن طاهر بجزيرة شقر وهي أول عمل ابن عبد العزيز كتب ابن طاهر اليه رسالة يقول فيها : « كتابي اليك وقد طفل بنا العشى ومال بنا اليك المطى ، ولها من ذكراك حاد ومن لقيالك هاد ، وسنوافيك المساء فنغفر للزمان ما قد أساء ، ونرد ساحة الأمن ونشكر عظيم ذلك المن ، فهذه النفس أنت مقيلاها وفي برد ظلك يكون مقيلاها ، فله مجدك وما تأتيه لا زلت للوفاء تحييه ، ودانت لك الدنيا ودامت لك العليا ان شاء الله تعالى » .

ولما وافت رقعته أبا بكر بن عبد العزيز ركب اليه وتلقاه في أعيانه وجلة رجاله وأنزله في قصر مجاور لقصره ، وجامله مجاملة لم تعهد في عصره ، وأشركه معه في نهيه وأمره ، ولم ينفرد عنه في شأن من الشؤون ، وأقبل عليه الشعراء يسئلونه عن نكبته ويتسنون له العودة الى ملكه وسابق مكاتته من ذلك قول أبي جعفر البنى :

يقولون ليث الغاب فارق غيله

فقلت لهم أأنتم له الآن أخوف

ولن ترهبوا الصمصام الا اذا غدا

لكم خارجا من غمده وهو مرهف

ولما كان ابن عبد العزيز هو الذى سهل لابن طاهر طريق

نجاته وسعى في خلاصه وأكرم مشواه في بلنسية لذلك اعتقدها

(١) قلائد العقبان صفحة ٦٢ .

ابن عسار غدره جرت على يديه ، واشتد حقه عليه ، وأخذ
يعمل الحيلة في الاضرار به ، وتقبيح وصفه والتشهير به .
واغراء أهل بلنسية به ، وتحريضهم على القيام عليه ، ونظم في
ذلك قصيدته التي يقول فيها :

بشر بلنسية وكانت جنة	أن قد تدلت في سوء
غدرت وفيها بالعهود وقلما	عثر الوفي سعى لى الغدر
يا أهلها من غائب أو حاضر	وقضيتها من راسخ أوفاري
جاروا بنى عبد العزيز فانهم	جروا اليكم أسوأ الأقدار
ثوروا بهم متأولين وقلدوا	ملك يقوم على العدو بشار
هذا محمد أو فهذا أحمد	وكلاهما هل لتلك الدار
جاء الوزير بها يكشف ذيلها	عن سوءة سوى وعار عار
نكت اليمين وحاد عن سنن العلا	وقضى على الاقبال بالادبار
آوى لينصر من نأى المثوى به	ودهاه خذلان من لأنصار
ما كنتم لا كآمة صالح	فرميتهم من ضاهر بقدر
هلاً وخصكم بأشأم طائر	ورمى دياركم بلاء جار
بر اليمين ولم يعرض نفسه	ونفوسكم لمصارع الفجار

ثم يتحدث عن نفسه فيقول :

كيف التقلت بالخدعة من يدى

رجل الحقيقة من بنى عسار

رجل تطعمه الزمان فجاءه

طرفين فى الاحياء والامرار

سلس القياد الى الجميل فان يثمَج
فدع العنان لهبة البتار
طبن بأغراض الأمور مجرب
فطن لأسرار المكاييد دار
كشاف مظلمة وسائس أمة
تفاع أهل زمانه ضرار
شراب أكواس المدام وتارة
شراب أكواس الدم المهذار
جرار أذيال القنا ظنثوا به
قد زاركم فى الجحفل الجرار
وكأنكم بنجومه ورجومه
تهوى اليكم من سماء غبار
وأنا النصيح فان قبلتم فاتركوا
آثارها خبرا من الأخبار
قوموا الى الدار الخبيثة فانهبوا
تلك الذخائر من خبايا الدار
وتعوضوا من صفرة حبشية
بأغر وضاح الجبين نضار

وسمع المعتمد بهذه القصيدة وكان قد اشتد غضبه على ابن
عمار لعصيانه أمره واهماله طلبه ، فنظم الأبيات الآتية معرضا
بابن عمار ، وقد تجلت فيها براعة المعتمد فى الهجاء الساخر

والتعريض الفكه وبدأها بالإشارة الى بنى عمار تعليقاً على قول
ابن عسار عن نفسه « رجل الحقيقة من بنى عسار » :

الأكثرين مسوداً ومملكاً
ومتوجاً في سالف الأعصار
المكثرين من الكباء لنارهم
لا يوقدون بغيره للسارى
والمؤثرين على العيال بزادهم
والضارين لهامة الجبار
ان كوثرُوا كانوا الحصى أوفاخروا
فمن الأكاسر من بنى الأحرار
يضحى مؤملهم يؤمل سبيه
وبييت جارهم عزيز الجار
تبكى عليهم شنبُّوس بعبرة
كأتَّيها المتدفع التيار
يبكى لها القصر المنيف تلالأت
شرُفاته فى خضرة الأشجار
ما ضاحكته الشمس الا خلته
نضجت جوانبه بماء نضار
تبكى القيان تجاوبت أوتارها
فى ساحته تجاوب الأطيّار
ياشمس ذاك القصر كيف تخلصت
فيه اليك صوارق الأقدار

لما تَنَلَّكَ شَعَثُوبٌ حَتَّى جَاوَزْتَ
غُلَّبُ الرِّجَالِ وَسَامَى الْأَسْوَارِ
كَمْ كَانَ مِنْ أَسَدٍ هُنَالِكَ خَادِرٍ
لَكَ حَارِسٌ بِأَسْنَةِ وَشَفَارِ
مَنْ قَوْمُكَ الزَّهْرُ الْوَجُوهُ إِذَا الْوَغَى
كَسَتْ لَوَجُوهَ الْغُرِّ ثُوبَ الْقَارِ
مَنْ كُلِّ أَشْوَوسٍ خَائِضٌ فِي لُجَّةٍ
نَحْوِ الْكَمَاةِ بِشُعْلَةٍ مِنْ نَارِ
لَمَّا نَسَهُمُ لِلْعَلَى عِمَارَهُمْ
تَرَكَوْا الْعِدَاةَ قَصِيرَةَ الْأَعْمَارِ

وبقدر ما أدخلت هذه القصيدة الساخرة من السرور على
قلب ابن عبد العزيز صاحب بلنسية أثارت ابن عمار وأغضبته ،
ومست كبريائه وأنفته ، وحاول أن يقاوم غضبه ويكبح جماح
نفسه ولكن نوازع الشر تغلبت عليه وتصرفت به ، وقد اختار
المعتمد أن ينازله في الميدان الذي يعد هو نفسه في طليعة أبطاله
وحاملى لوائه فلينتظ ذن تتفاز ويقبل هذا لتحدى ، ونظم
قصيدة في الرد على المعتمد بالغة لعنف موجعة الهجاء سب فيها
المعتمد وزوجته الرميكية وأولاده سباً قبيحاً وأسف فيها أسفاؤاً
كان يجمل به أن يترفع عنه ، قال في مطلع هذه القصيدة النكدة :

ألا حى بالغرب حيا حلالا
أناخوا جمالا وحازوا جمالا

وعرج بيومين أم القرى
ونم فعسى أن تراها خيالا
ويومين هي القرية التي نشأت فيها أولية بنى عباد .
لتسأل عن ساكنيها الرماد ولم تر للنار فيها اشتعالا
وعرض باعتماد الرميكية زوجة المعتمد وأولاده قائلا :
تخيرتها من بنات الهجان رميكية ما تساوى عقالا
فجاءت بكل قصير العذار لئيم النجارين عماء وخالا
قصار القدود ولكنهم أقاموا عليها قرونا ضوالا
ومضى بعد هذا التعريض القبيح يظعن معتسدا في رجولته
وينكر عليه الكرم والشجاعة وينذره بأنه سيستتر في هتك
عرضه وتشويه سمعته :

في عامر الخيل يا زيدها
منعت القرى وأبحت العيالا
أراك توري بحب النساء
وقدما عهدتك تهوى الرجالا
أتذكر أيامنا بالصبا
وأنت إذا لحت كنت الهلالا
أعانق منك القضيبي الرطيب
وأرشف من فيكماء زلالا

.....

.....

سأهتك عرضك شيئاً فشيئاً وأكشف سترك حالا فحالا

وقد نظم ابن عمار هذه القصيدة في ثورة من ثورات الغضب أنسته جميع الاعتبارات . وبقية من الحياء جعلته لا يطلع عليها سوى خاصة أصدقائه المقربين ويكان من بين هؤلاء رجل يهودى من المياسير وافد من الشرق قد اختصه ابن عمار بموفاور ثقته ، ولم يكن يدرى أن هذا الرجل كان عينا لابن عبد العزيز عليه ، واحتال اليهودى حيلته حتى حصل على القصيدة مكتوبة بخط ابن عمار وأرسلها الى ابن عبد العزيز أمير بلنسية ، فسارع ابن عبد العزيز بارسالها فى طى كتاب منه الى المعتمد مع الحمام الزاجل .

وقد حرق ابن عمار بهذه القصيدة الوقحة سفنه ، وأصبح الصلح بينه وبين المعتمد غير ميسور ، فلا هو ولا الرميكية زوجته ولا أولاده يسكن أن يتسامحوا فى قبول مثل هذا الهجاء القاسى ، وقد دل ابن عمار بهذه القصيدة على خسة وسوء آدب متناهيين . وتضاوت تضاولا غير مستساغ على ولى نعمته بذى خذ بضبعه من حضيض المهانة ورفعته الى الذرورة . وقد أكثر من الاعتذار عن هذه النقطة بعد وقوعه فى يد المعتمد واقفائه فى السجن ، ولكن ما أصدق قول الشاعر :

جراحات السنان لها التئام ولا يلتام ما جرح اللسان
وحقيقة أن المعتمد كان هو الذى بدأ بفتح هذا الباب

ولكنه مع ذلك لم يسف اسفاف ابن عمار ، وكانت سخريته بابن عمار في قصيدته قريبة مما يسمونه هجاء الأشراف .

ولم يكن هناك ما يحفز المعتمد الى الاسراع في معاقبة ابن عمار ، وقد تولى غيره القيام بهذا الواجب ، ولم يلق ابن عمار باله وهو سادر في غلوائه غارق في ملذاته الى أن ابن رشيق كان يخونه ويخادعه مستعينا في ذلك بابن عبد العزيز صاحب بلنسية . ولما فطن أخيرا لذلك كانت الفرصة قد أفلتت منه وقضى الأمر ، فقد حرّض ابن رشيق الجند على طلب أعضياتهم المتأخرة لهم ، ولما عجز ابن عمار عن أداء ذلك والوفاء به ثار به الجند وهددوه بأن يسلموه للمعتمد اذا لم يرضهم ، وارتعدت فرائص ابن عمار من هذا التهديد ، وخشى عاقبته ، فلم يجد أسلم له وأنجى من الفرار ، ولاذ في بادىء الأمر بحسى ألفونسو السادس والتمس منه مساعدته في استرداد مرسية ، ولكن ابن رشيق استمال ألفونسو بالهدايا الفاخرة فقال لابن عمار : « إن ما ذكرته لى لم يخرج عن كونه قصة لصوص ، فاللص الأول قد قاد بالسرقة من أحد اللصوص وجاء لص آخر فسرقت منه » . ولما لم يجد فائدة من ملك ليون حوّل ركابه الى سرقسطة وحُت بالمقتدر بن هود ، ولكن الحياة في سرقسطة كانت مملة جافة ليس فيها شيء من جمال اشبيلية ولمعانها فلم يطق الصبر عليها وقصد لاردة ، وكان حاكمها المظفر أخو المقتدر ، فتلقاه بالترحيب ولكنه وجد الحياة في لاردة أبعث على الضيق والملل من الحياة في سرقسطة ، فعاد أدراجه الى سرقسطة ، وكان

المقتدر قد مات وخلفه ابنه المؤتمن ، وكاد الملل والفراغ يقضيان عليه فقد ألف الرجل العمل والحركة وتدير الأمور ومعالجة المشكلات ، فلما اتزى أحد عسال ابن هود في معقل منيع من أعماله رحب ابن عمار بهذه الفرصة التي سنحت له ، وكانت بين هذا العامل وبين ابن عمار معرفة ، فضمن لابن هود استنزاله من المعقل ، وسار اليه مع ثلة من الجند ، فلما نزل بساحته أراد ذلك العامل اكرامه ، ولم ير بأسا في صعوده الى قصبة الحصن في رجلين من حملته ، فأوعز ابن عمار الى الصاعدين معه أن يقتلا الرجل اذا رآياه يمشى ابن عمار ويده في يده وشدد عليهما في ذلك قائلا : « اقتلاه اذا رأيتماي أماشييه ويده في يدي ولو قتلتماي معه » وفعل الرجلان ما أمرهما به ، وكان هذان الرجلان خادمييه : جابر وهادي ، وعفا عن حامية المعقل بعد قتل حاكمه الشائر ، وسر بذلك ابن هود ، ولم يستطع ابن عمار الاخلاص الى السكون والركود وهو الذي تعود الحياة والحركة ومباشرة الشؤون الهامة ، فزين للمؤتمن الاستيلاء على حصن شقورة ، وهو حصن كالمدينة عامر بأهله شمالي مرسية على رأس جبل عظيم منيع الجهة ، وكان هذا الحصن قد استطاع بمناعته أن يحتفظ باستقلاله حينما استولى المقتدر بن هود على أملاك أمير دانية ، وظل في حوزة ابنه سراج الدولة ، ولما مات سراج الدولة كان بنو سهيل أوصياء على أولاده ، فأرادوا أن يبيعوا الحصن لأحد الأمراء المجاورين له ، ووعد ابن عمار المؤتمن أن يحصل له على الحصن كما حصل له على القلعة التي

كان بها العامل المنتزى ، فخرج على رأس عدد قليل من الجيوش ، فلما وصل إلى حضيض شقورة طلب إليهم أن يجتمع بهم ، ولكنه بدلا من أن يوقعهم في الشرك الذي أراد أن ينصبه لهم وقع هو في الشرك . فقد وافقوا على صعوده معهم مع خادميه : جابر وهادي . فلما وصل إلى مصعد درج لا يتخطاه الصاعد حتى يجذب بضبعه نكده هو فرفع بالأيدي : وشير على خادميه بالانصراف ن كانا يحرصان على حياتهما فونيا منحدرين ، واحتمل هو إلى الذروة فشد وثقه ، وكان قد أحقد بنى سهيل أيام رياسته بمرسية ، ولما كانت جيوش التي جاءت معه تعلم أن محاولة اتقاذه غير مجدية لذلك عادت أدراجها إلى سرقسطة ، وبعد قبض بنى سهيل عليه زجوا به في السجن ، وعرضوا بيعه لمن يدفع أكبر ثمن من أمراء الأندلس وملوكها ، وفي ذلك يقول ابن عمار :

أصبحت في السوق ينادى على

رأسى بأنواع من المال

والله ما جار على ماله

من ضمنى بالثمن الغالى

وتثاقل الأمراء والرؤساء جميعا عن التقدم لشرائه ، وخفد المعتمد إلى ذلك ، واشترى قلعة شقورة وأرسل ابنه الراضى ليتسلم ابن عمار ، وأمر الذين أرسلهم مع الراضى أن يزيدوا في الاحتياط على ابن عمار وتقييده ، فخرجوا به حتى وافوا قرطبة ، ووافق ذلك كون المعتمد بها ، فدخلها ابن عمار أشنع

دخول وأسوأه على بغل بين عدلى تبس ، وقيوده ظاهرة للناس ،
وقد كان المعتمد أمر بإخراج الناس خاصة وعامة حتى ينظروا
اليه على تلك الحال ، وقد كان قبل ذلك اذا دخل قرطبة اهتزت
له وخرج وجوه أهلها وأعيانها ورؤساؤهم ، والسعيد منهم من
يصل الى تقبيل يده أو يرد ابن عمار عليه السلام ، وغيرهم
لا يصل الا الى تقبيل ركابه أو طرف ثوبه ، ومنهم من ينظر اليه
من بعد لا يستطيع الوصول اليه .

وهكذا دخل ابن عمار قرطبة مقيدا ذليلا مهينا بعد الرياسة
الفارعة ، والنفوذ الشامخ ، وأدخل على المعتمد وهو على تلك
الحالة المزرية ، فجعل المعتمد يعدد عليه أياديه ونعمه وابن عمار
فى ذلك كله مطرق لا ينبس ، ولما أتم المعتمد كلامه قال ابن
عمار : « ما أنكر شيئا مما ذكره مولانا أبقاه الله ، ولو أنكرته
لشهدت علىّ به الجمادات فضلا عن ينطق ، ولكنى عثرت
فأقل ، وزلت فاصفح » .

فقال له المعتمد : « هيهات انها عشرة لا تقال » .

وأمر به فأحدر فى النهر الى اشبيلية ، فدخل به اشبيلية
على الحال التى دخل عليها قرطبة . وجعل فى غرفة على باب قصر
المعتمد المعروف بالقصر المبارك . وصار سجنه ، فبعث ذلك
الأملى فى نفسه ، وكتب اليه من السجن بقصائد يعتذر بها
ويلتمس الاقالة من ذنبه ، من أشهرها القصيدة التى يقول فيها :

سجايك ان عافيت أندى وأسجح

وعذرک ان عاقبت أجلى وأوضح

وان كان بين الخطتين مزية
فأنت الى الأدنى من الله تجنح
حنانيك في أخذي برأيك لا تطع
عداى ولو أثنوا على وأفصحوا
فان رجائي أن عندك غير ما
يخوض عدوى اليوم فيه ويمرح
ولم لا وقد أسلفت ودا وخدمة
يكران في ليل الخطايا فيصبح
وهبنى وقد أعقت عسل مفسد
ما تفسد الأعمال ثمت تصلح
أقلنى بما بينى وبينك من رضى
له نحو روح الله باب مفتوح
وعفّ على آثار جرم جنيته
بهبة رحمتك منك تمحو وتصح
ولا تلتفت قول الوشاة ورأيهم
فكل اناء بانذى فيه يرشح
وماذا عسى الواشون أن يتزيدوا
سوى أن ذنبى واضح متصح
نعم لى ذنب غير أن حلمه
صفاء يزل الذنب عنها فيسفر
عليه سلام كيف دار به الهوى
الى فيدنو أو على فينزع

ويهنيه ان مت السلو فائني

أموت ولى شوق اليه مبرح

وبين ضلوعى من هواه تسيية

ستتفع لو أن الحسام يجلع

ولما بلغت المعتمد هذه القصيدة كان بحضرته أحد الأدباء

القادمين من بغداد ، فجعل يزرى بالبيت الذى ختم به ابن عمار

قصيدته ويقول : « ما أراد بهذا المعنى ؟ » فكان رد المعتمد

عليه أن قال : « أما لئن سلبه الله المروءة والوفاء لما أعدمه

الفطنة والذكاء ، انما نظر الى بيت الهزلى من طرف خفى وهو :

واذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع

وتركت هذه القصيدة وأمثالها من القصائد التى كان يعتذر

بها أثرها فى نفس المعتمد فوجّه اليه ليلة وهو فى بعض مجالس

أنسه ، فأتى به يرسف فى قيوده ، فجعل المعتمد يعدد مننه عليه

وأياديه قبله ، فلم يكن له عذر ولا جواب غير أن أخذ فى البكاء

وجعل يترقق للمعتمد ويمسح عطفيه ويستجلب من الألفاظ كل

ما يستلين به قلبه وتطيب به نفسه ، وعظفت المعتمد عليه سابقته

وقديم حرمته ، فقال له قولا يتضمن العفو عنه تعريضا

لا صريحا ، وأمر برده الى محبسه ، ولم يحسن ابن عمار وهو

يعانى ضيق السجن وثقل القيد فهم الحلات النفسية التى كانت

تتوالى على نفس المعتمد ، وقد تأثر المعتمد بتوسلاته ورثى

لحاله وهو يرسف فى قيوده ، ولكن بين التأثير بشعره والرثاء

لحاله وبين العفو عنه بون شاسع ، وكان المعتمد قد منع اعطاءه

ورقا للكتابة لأنه تضايق من كثرة الشفاعات التي كانت ترد إليه من مختلف الجهات للعفو عن ابن عمار ، وكان قد استدعى ورقتين للكتابة وألح في طلبهما وأجابه المعتد إلى طلبه وأرسل إليه الورقتين . فكتب في أحدهما القصيدة السابق ذكرها واحتفظ بالورقة الأخرى ، فلما عاد إلى سجنه من حضرة المعتد جرى في ظنه أن العفو عنه قد أصبح أمرا متوقعا دى المال . ولم يستطع كتمان فرحه ، فكتب من فوره بما در بينه وبين المعتد إلى ابنه الرشيد ، فوافده كتاب ابن عمار وبحضرته قوم كانت بينهم وبين ابن عمار احن قديمة ، فلما قرأ الرشيد الكتاب قال لهم : « ما أرى ابن عمار إلا سيخلص » فقالوا له : « ومن أين علم مولانا ذلك ؟ » فقال : « هذا كتاب ابن عمار يخبرني فيه أن مولانا المعتد قد وعده بالخلاص » .

فأظهر القوم الفرح وهم يبضون غيرة . ولما قاموا من مجلس الرشيد نشروا حديث ابن عمار أقبح نشر ، وزادو فيه زيادات قبيحة يقول فيها المراكشي لشدة قبحه : « حسنت كتبي عن ذكرها » . وبلغت هذه الأخبار مبالغا فيها بـ بكر بن زيدون . وكان العفو عن ابن عمار واعادته إلى مكائته معناه في ريه عزله من منصبه وإبعاده عن القصر ، فبات بليلة الملسوع ، وفي صباح اليوم التالي لزم بيته ولم يذهب إلى القصر . فاستدعه المعتد وتلقاه بالبشر والترحيب كمألوف عادته ، ولما سألته عن سبب تأخره عن المجيء قال انه خشى أن يكون الملك قد رأى الاستغناء عن خدماته ، وروى للمعتد حديث ابن عمار الذي شاع وملا الأسماع ، وأخبره أن صاحب الشرطة بالمدينة قد

أخذ يعد الحجرات الفاخرة لاستقبال ابن عمار في منزله الى أن
ترد اليه قصوره ، وبطبيعة الحال لم يحذف شيئاً من الأقاويل
السيئة التي كانت تزداع .

استولى على المعتمد حينذاك غضب شديد أخرجه عن
طوره ، وأشد ما ساءه ادعاء ابن عمار أنه قد صدر منه وعد
بالعفو عنه واطلاق سراحه ، فأرسل الى ابن عمار وقال له :
« هل أخبرت أحداً بما كان بيني وبينك في الأمسية الأخيرة » .
فأنكر ابن عمار كل الإنكار ، فقال المعتمد للرسول : « قل له
الورقتان اللتان استدعيتهما ، كتبت في أحدهما القصيدة فما
فعلت بالأخرى ؟ » فادعى أنه بيض فيها القصيدة ، فقال المعتمد
للرسول : « قل له هلم المسودة » فلم يستطع ابن عمار التماذى
في الإنكار وقال انه كتب فيها رسالة الى الأمير الرشيد يخبره
فيها بوعده الملك له بالعفو عنه ، فازداد غضب المعتمد اشتعالاً
وخرج ويده الطبرزين — وهى فأس كالمطرقة أهداها اليه
ألفونسو السادس — فلما رآه ابن عمار وهو يكاد الشرر يتطارر
من عينيه علم أن ساعته الأخيرة قد دنت ، فجعل يزحف وقيوده
تثقله حتى أكب على قدمي المعتمد يقبلهما والمعتد لا يثنيه شيء
ولا تأخذه شفقة ولم يزل يضربه بالطبرزين حتى برد ، ورجع
المعتد فأمر بغسله وتكفينه وصلى عليه ودفنه بالقصر المبارك
وهكذا كانت خاتمة ابن عمار ، وكان لهذه الفاجعة الأليمة
والمأساة الدامية دوى شديد في مختلف أنحاء الأندلس ظل حيناً
من الزمن حتى غلبت عليه حوادث أشد خطورة وأسوأ عاقبة
وأجل شأنًا .

عركة الاسترداد الأسبانية

من الأقوال المأثورة « سعيدة البلاد التي ليس لها تاريخ »
وإذا صح هذا القول فإن بلاد شبه الجزيرة التي عرفها يوناني
باسم « أيبريا » وعرفها الرومان باسم « اسبانيا » وعرفها
العرب باسم « الأندلس » لا تعد من البلاد السعيدة ، فقد
تعاقبت عليها الشعوب والأمم ، ودارت في أرجائها المعارك
الطاحنة ، واستعرت الثورات الدامية ، واشترك في تكوين
تاريخها الإيريون والسلتيون والفينيقيون واليونان
والقرطاجنيون والرومان والسويقي واللان والوندال والقوط
والعرب والبربر .

وللكاتب الفرنسي الشهير تيوفيل جوتييه كلمة لم يغتفرها له
الاسبانيون وهي قوله : « ان حدود أوربا تنتهى عند جبال
البرانس » . والواقع أن تاريخ اسبانيا يختلف في كثير من
اتجاهاته عن تاريخ غرب أوربا ، وله طابعه الخاص ، وسماته
المميزة ، وقد كان لانجذابها الى القارة الافريقية تأثير هام في
تكوين تاريخها .

وأقدم العناصر المعروفة في تاريخ الشعب الاسباني هم
الباسك أو البشكنس كما كان يسميهم العرب ، وكانوا يقيمون

في منطقة جبال البرانس ، ولا تزال لغتهم لغزا من الألغاز في رأي علماء اللغات ، والايبيرون ويرجح المؤرخون أنهم نزحوا الى شبه الجزيرة من افريقية وأنهم من الجنس الحامي ، وقد انتشروا في شرق شبه الجزيرة وجنوبها لشرقي وفي الهضبة الممتدة من الوسط والى ما يسمى الآن بلاد البرتغال .

ووفدت على اسبانيا شعوب أخرى ، بعضها جاءت للتجارة وطلب الربح على الشواطئ الشرقية والجنوبية ، وبعضها جاء للغزو والاستعمار ، وقد أثرت لشعوب التي جاءت للتجارة في حضارتها كما أثرت الشعوب التي جاءت للفتح والغزو والاستعمار في تكوينها الشعبى .

وفي طليعة الأمم التي جاءت اسبانيا للتجارة الفينيقيون ، وكان هدفهم البحث عن المعادن وأنشأوا أكبر مستعمرة لهم في شبه الجزيرة ، وهى أغادير أو قادس الحديثة وهى قريبة من مصب نهر الوادى الكبير .

ولما استولى بختنصر ملك بابل على مدينة صور وخربها سنة ٥٧٣ قبل الميلاد وضعف سلطان الفينيقيين فى البحر الأبيض المتوسط انتقل الاهتمام بالتجارة فيه الى قرطاجنة ، وغشى اليونانيون كذلك الشاطئ الشرقى والجنوبى فى طلب المعادن ، وابتداءً من القرن التاسع قبل الميلاد بدأت موجات من القبائل السلتية تتدفق على سبانيا من مدخل جبال البرانس وانتشروا فى جليقية والبرتغال .

وفى آخر الحرب البونية الأولى (٢٦٤/٢٤١) قبل الميلاد

لما طرد القرطاجنيون من جزيرة صقلية وأرغموا على دفع غرامة
حربية كبيرة وضع زعيمهم هاملكار خطة غزو اسبانيا ليتمكن
من اصلاح أحوال قرطاجنة المادية ، وأثار ذلك سوء ظن
الرومان ، وتوغل هانيبال سنة ٢٢١ في اسبانيا الى سلمنقة
لارهاب القبائل قبل نشوب حرب جديدة مع الرومان ، وكان
هجومه على ثغر سوجنتام المدينة الحصينة على الشاطئ ، لشرقى
التي كانت روما تزعم أنها تحت حمايتها هو الشرارة التي انبثقت
منها الحرب البونية الثانية سنة ٢١٩ قبل الميلاد ، وفي السنة التالية
بينما كان هانيبال يحارب الرومانيين في بلادهم كان جيش
رومانى يؤيده أسطول رومانى يشق طريقه فى اسبانيا وبدأ
الرومان من ذلك الوقت يسيطون نفوذهم على اسبانيا .

على أن الرومان لم يجدوا الاسبانيين لقمة سائغة فقد
قاوموهم مقاومة عنيفة ولكن القبائل الاسبانية كانت نزاعة الى
الفردية شديدة الكبرياء والأثرة ميالة الى الاستقلال ، وكان
العامل الجغرافى يلعب دوره فى ذلك ويؤثر تأثيره فاختلاف
البيئات وتنوع الأجواء فى اسبانيا كان يشجع وجود الوطنية
المحلية ، وكان يضاف الى ذلك صعوبة المواصلات ، ولذلك كانت
القبائل لا يتعاون بعضها مع البعض ، وقد استغرق استكمال
فتح الرومان لها مائتى سنة وكانت حركة الاستيلاء أسرع فى
الجنوب والشرق حيث الثروة موفرة وحيث ألف للناس
الخضوع والاستقرار ، ولم تهدأ مع ذلك حرب العصابات التى
كانت تلائم مزاج الاسبانيين لعدم قدرتهم على توحيد صفوفهم ،

وقد أتعبت تلك العصابات الفيالق الرومانية ، ولم يتمكن الرومان من القضاء على زعماء تلك العصابات التي أطالت محنتهم الا بالخداع والخيانة والاغتيال بطريق دفع الرشى لرجان من أنصار هؤلاء الزعماء .

وقد أهدت اسبانيا لروما عدداً من رجالها الكبار ، فالأباطرة : تراجان وهادريان ومركس أورليوس من عائلات اسبانية رومانية، وكذلك الفيلسوف الحكيم سنكا وكتليان ومارتيال من رجال الأدب ، وفي القرن الثالث الميلادي كانت الامبراطورية قد تمكن منها الضعف وأخذها الفساد من جميع نواحيها واشتد اضطهاد المسيحيين ، ولما كان الاسبانيون معروفين بنزعتهم الفردية لذلك أثار الاضطهاد النعمة والمقاومة في نفوسهم ، وزادهم تمسكاً بالمسيحية وتعصبا لها ، واستشهد كثيرون من الاسبانيين ، ورحلوا ضحايا لهذا الاضطهاد قبل دخول الامبراطور قسطنطين في المسيحية وعلان منشور ميلان سنة ٣١٣ الذي ضمن حرية تعقيدة لكل رعايا الدولة الرومانية ، ولما جاء الامبراطور ثيودوسيوس - وهو اسباني الأصل وآخر أباطرة العالم الروماني قبل تقسيمه الى قسمين - جعل المسيحية الديانة الرسمية وعمل هو نفسه على اتباع تعاليمها ، ورمت سياسته الى جعل الكنيسة وسيلة من وسائل الدولة السياسية وجعل الكاثوليكية أساس الوحدة السياسية .

وتبع ذلك تنظيم الكنيسة وعقد المؤتمرات للنظر في مختلف المسائل المتصلة بالدين ، ورفض أحد هذه المؤتمرات النحلة

الأريوسية وهي النحلة التي تنكر الثالوث ، وقد قسم
 تيودوسيوس الامبراطورية الرومانية الى قسمين : قسم شرقي
 وهو بيزانطة ، وقسم غربي وهو روما وهو على فراش الموت في
 سنة ٣٩٥ . فلما خلفه ابنه هونوريوس على قسم الغربي وهو
 في حادية عشرة من عمره تحدى سلطته فسطنين الذي اختارته
 قبائل الرومانية في بريطانيا ، وحاول هونوريوس دفع هذا
 خطر في سنة ٤٠٦ ميلادية بأن سمح للقبائل الألمانية الثلاث
 بعبور الراين ودخول بلاد الغالة وهي قبائل اللان والسواقي
 ووندال . ولم يلق ذلك تقبلاً فسطنين واستطاع أن يفوز
 فيلقه الى الجنوب وينزل من نفسه من على عرشه ويجتاح شبه
 جزيرة ايطالية . وقد وجد طريق إلى روما قد سدته جموع
 القوط . وأصبحت اسبانيا الرومانية معرضة للهجوم من جموع
 القبائل الألمانية وقد دعاهم أحد فود فسطنين لعبور جبال
 ابرانس والتقدم الى اسبانيا ليستعين بهم على كسب النفوذ ،
 وفي سنة ٤٠٩ تدفقت جموع قبائل السواقي على اسبانيا وتجهت
 الى جليقية ودخلت قبائل الوندال وسارت الى الجنوب واتجهت
 قبائل الآلان الى الشاطئ الشرقي وتبع ذلك دخول قبائل
 القوط الغربيين اسبانيا بعد أن دخلوا في المسيحية وقبلوا بنحلة
 الأريوسية وتغلبوا على القبائل الألمانية التي سبقتهم الى
 اسبانيا ، فعبر الوندال مضيق جبل طارق الى فريقيقة وهزم
 السواقي والآلان ، واستطاع القوط بسط سلطانهم على جميع
 أجزاء شبه الجزيرة وجعلوا طليطلة عاصمة لدولتهم سنة ٤٥٤

وجعلوا اسبانيا وطننا لهم، فلما فتح المسلمون اسبانيا تولى القيام بحركة استردادها من أيدي المسلمين سلالة القوط لا الرومان ، وقد جاء الرومان الى اسبانيا في بادئ الأمر لمقاومة قرطاجنة ورد هجوم عدوهم هانيبال ، أما القوط فانهم جاءوا الى اسبانيا ليتخذوها وطننا لهم ومجالا حيوية ، ولذلك حرصوا على البقاء بها ، وقادوا حركة الاسترداد واعادة اسبانيا الى المسيحية ، لما تغلب عليهم المسلمون ، وقد تركوا النحلة الأريوسية ودخلوا في حظيرة العقيدة الأرثوذكسية لتوطيد نفوذهم السياسي وذلك في سنة ٥٨٩ ميلادية ، وقوى من ذلك الحين شأن الكنيسة في اسبانيا ، وعظم نفوذ رجال الدين ، وقد تردد ملوك القوط في اسبانيا بين نظريتين في توريث العرش : نظرية وراثته الابن ونظرية الاختيار الذي يقوم به الأشراف وأعيان الدولة ، وكانت ملوكهم تحاول التمسك بنظرية توريث الابن ، وكان الأشراف يحاولون هدم هذه النظرية وجعل حق الاختيار مقصورا عليهم ، وقد رشح الملك غيطةشة أحد أبنائه لوراثته العرش في حياته ، فلما أدركته الوفاة - ويظن حسب بعض الروايات أنه مات قتيلا - ثار الأشراف واختاروا المدعو رودريك - ويسميه مؤرخو العرب - بلاذريق - ملكا عليهم ، وأغضب ذلك أسرة غيطةشة وكان لهذا الخلاف بين الذي اعتبر معتصبا للعرش وأسرة غيطةشة أثر كبير في تشجيع موسى بن نصير على فتح الأندلس سنة ٧١١ ولم تمض سنوات حتى كان انتصار الجيوش الاسلامية في معظم أنحاء شبه الجزيرة كاملا ،

وقد تعجل خليفة دمشق وأمر باستدعاء موسى بن نصير وطارق ابن زياد ، وأرجح أنه لو تركت لموسى بن نصير فسحة من الوقت لما بقيت منطقة في اسبانيا دون أن يحتلها المسلمون ويسيطروا عليها سلطتهم مهما تكن قيمتها ، ولظلت سبانيا حتى اليوم مستقرا لأبناء العرب والبربر ودراً من ديار الاسلام .

وقد عبر بعض الولاة الذين جاءوا بعد موسى بن نصير جبال البرانس ، ووصل أحدهم وهو عبد الرحمن الغافقي الى مقربة من مدينة بواتيه وحدثت المعركة المعروفة في تاريخ الاسلامى باسم معركة بلاط الشهداء ، وقتل فيها عبد الرحمن الغافقي سنة ٧٣٢ ميلادية ولم يوفق هجوم العرب في محاولاتهم تجوز جبال البرانس وكان من الخير لو استكسرو فتح اسبانيا قبل لمغامرة بالهجوم على الجزء الجنوبي من فرنسا . فان الناحية التى تركوها فى أستريش كانت مصدر متاعب لا تنقضى ، وفيها بدأت حركة لاسترداد التى انتهت باجلاء المسلمين عن سبانيا سنة ١٤٩٢ 'جلاء' نهائياً .

ويقول مؤرخو العرب أن أول من جسع فلان نصارى بالأندلس — بعد غلبة العرب لهم — رجل يقال له بلاى ، من أهل أشتوريش كان رهينة عن طاعة أهل بلده . فهرب من قرطبة أيام الحر بن عبد الرحمن الثقفى الثانى من أمراء العرب بالأندلس وذلك فى السنة السادسة من افتتاحها ، وهى سنة ٩٨ هجرية ، وثار النصارى معه على نائب الحر بن عبد الرحمن فطردوه وملكوا البلاد وبقي الملك الى أن أخرج المسلمون من اسبانيا .

ويقول الرازى - المؤرخ الأندلسى - (١): « فى أيام
عَنْبَسَةَ بن سحيم الكلبى قام بأرض جليقية عِلْجٌ خبيث
يقال له بلاى من وقعة أخذ النصارى بالأندلس ، وجدَّ الفرنج
فى مدافعة المسلمين عما بقى بأيديهم ، وقد كانوا لا يطمعون فى
ذلك ، ولقد استولى المسلمون بالأندلس على النصرانية
وأجلوهم عنها ، وافتتحوا بلادهم . حتى بلغوا أريولة من أرض
الفرنجة ، وافتتحوا بنبلونة من جليقية . ولم يبق الا الصخرة
فانه لاذ بها ملك يقال له بلاى . فدخلها فى ثلثمائة رجل ، ولم
يزل المسلمون يقاتلونه حتى مات أصحابه جوعا ، وبقي فى
ثلاثين رجلا وعشر نسوة ، ولا طعام لهم الا العسل يشتارونه
من خروق بالصخرة فيتقوتون به ، حتى أعيا المسلمين أمرهم .
واحتقروا بهم وقالوا ثلاثين علجاً ما عسى أن يجيء منهم ؟ فبلغ
أمرهم بعد ذلك من القوة والكثرة مالا خفاء به . وفى سنة ١٣٣
أهلك الله تعالى بلاى المذكور ، وملك ابنه فافلة بعده ، وكان
ملك بلاى تسع عشرة سنة وابنه سنتين ، فملك بعدها أدفونش
ابن بيطر جد بنى أدفونش هؤلاء الذين اتصل ملكهم الى اليوم ،
فأخذوا ما كان المسلمون أخذوه من بلادهم » .

وتتفق آراء المؤرخين على أن فلولا من القوط فرّت أمام
الفاطحيين المسلمين وما زالت تتراجع أمامهم نحو الشمال حتى
لاذت بناحية بعيدة فى جليقية تسميها المراجع العربية بصخرة

(١) الجزء الاول من نفع الطيب صفحة ٨٢ .

« بلاى » أو الصخرة ، والحقيقة أنها فى منطقة كنتبرية القاحلة ، وكان على رأس هؤلاء القوط الهارين فريق من أقارب لذريق ونفر من كبار القوط وعدد من رجال الدين الذين أبوا الخضوع للسلسين ، وتختلف الروايات فى أخبار بلاى هذا ومدى علاقته بلذريق ، ومهما يكن من أمره فإن القوط المعتصمين بالصخرة قد أقاموه ملكا عليهم . وقد نسج حول سيرته الكثير من الأساطير والخرافات ولكن حقيقة الثابتة أن هذا الرجل هو منشئ حركة المقاومة النصرانية . وقد استغل بلاى فرصة وقوع الخلاف بين المضرية واليمنية فى عهد حاكم الأندلس عبد الملك ابن قطن وأخذ يمد حدود دويلته ، ثم وقعت الفتنة البربرية فى المغرب واشتد الصراع بين العرب والبربر وانتقل من المغرب الى الأندلس فأخذ بلاى وأصحابه فى التوغل بأرض المسلمين وتثبيت أقدامهم فيها ، وازداد مركز بلاى قوة فى خلال فتنة أبى الخطار والصميل وهكذا استطاعت هذه الفئة القليلة التى التفت حول بلاى أن تكون على هوان شأنها النواة التى تكونت حولها دول استطاعت أن تسير بالتاريخ الاسباني الى الأمام حينما عجز المسلمون عن القيادة بعد انهيار الخلافة الأموية . وكان رجال الدين يدخلون فى روع هؤلاء المجاهدين أن الغزاة المسلمين كفار يجب القضاء عليهم أو تحويلهم الى المسيحية ، وليس هناك مهادنة ولا مساومة فى ذلك ، وكانت هذه الدويلة التى قامت حول الصخرة كلها اتسعت حدودها وقوى شأن أهلها ازدادوا اصراراً على ازالة الحضارة الاسلامية ، وقد

أعجبتهم بعض مظاهر هذه الحضارة ولكنهم كانوا بوجه عام لا يوافقون على الأسس الدينية التي قامت عليها هذه الحضارة وساعد وجود هذه الدويلة على تكوين دويلات مسيحية أخرى في لحوف الجبال الشمالية البارزة وصياصى الودى المخضلة في شمال اسبانيا ، وكانت هذه الدويلات شوكة في جنب دولة الخلافة الإسلامية في الأندلس ، ولكنها مع ذلك لم تكن تستطيع أن تقف من الخلافة الأموية الأندلسية موقف الند من الند ، وذلك لأنها ظلت زمنا تشكو قلة السكان ، ولم يكن عند ملوكها جيوش منظمة كاملة الأهبة ولا موارد مالية ثابتة كافية ، بل كان اعتماد ملوكها على كرم بعض النبلاء وسكان المدن . وكان هؤلاء وأولئك لا يجودون بالمال الا لقاء نزول الملك عن بعض حقوقه لهم أما المسلمون في ظل الخلافة فقد عاشوا في أوج العظمة والقوة ولا سيما في زمن الخليفة عبد الرحمن الناصر . والحاجب المنصور بن أبى عامر ، ولكن أعقبت وفاة المنصور سلسلة متلاحقة من الانقلابات واختلافات عصفت بقوة الدولة الإسلامية وأضعفت فيها أعداءها المتربصين لها .

وفي القرن الحادى عشر الميلادى (ويقابله بعد انتهاء العقد الأول منه القرن الخامس الهجرى) الذى سقطت فيه الخلافة الأموية الأندلسية اشتد ساعد الممالك النصرانية حتى صارت تهدد بقاء المسلمين في الأندلس ، وقد استطاع سانكو الملعب الكبير أن يجعل لمملكة نافار شأننا يذكر بين الدول الاسبانية . المسيحية فقد تمكن من بسط سيادته على قشتالة بعد مقتل

صهره جارسيا صاحب قشتالة واجتاح بعد ذلك ليون واتزع منها جزءاً كبيراً أضافه الى قشتالة لكي يكونَ منهما مملكة لابنه الثاني فرديناند والباقي منها أضافه الى أملاكه التي امتدت حينذاك من حدود جليقية الى قضاونيا واجترأ بذلك على أن يدعو نفسه ملك الاسبانيين ، وأصبح في استطاعه أن يوجه هذه القوى الموحدة الى محاربة الدول لاسلامية ، ولكنه ما كاد يتم عملية توحيد حتى أدركه الموت في سنة ١٠٣٥ ميلادية وقسمت مملكته بين أبنائه الأربعة ، وتصدعت الوحدة التي كانت شديدة لخطر على المسلمين في اسبانيا . وكان لظهور قشتالة في مظهر الدولة الملكية وجلوس فرديناند ولده الثاني على عرشها أثر كبير في سير الحوادث في شبه الجزيرة ، وبعد أن قتل فرديناند ملك ليون في معركة سنة ١٠٣٧ ضم الى أملاكه ليون وجليقية وبدأت قشتالة تلعب دوراً هاماً في سياسة اسبانيا وغداً فرديناند أقوى ملك في اسبانيا . أما أخوته الثلاثة فكانوا يحكمون ممالك صغيرة لا تكاد تبلغ ثلث مملكته ، فحكم جارسيا (غرسية) أكبر أولاده ناغار من غرب جبال البرانس الى مصب نهر ابرة ، و حكم بنه راميرو شقة ضيقة تمتد من باب شزروا - رونسرفال - الى أينكا وآرا باسم ملك أرجون - أرغونة - و حكم جونزالو منطقة أصغر هي ولاية سوبراب في أواسط جبال البرانس ، وأما في شرق البرانس فكانت امارة برشلونة أو قطلونية مستدة على شاطئ البحر حتى مصب نهر ابرة ويحكمها ريسوند برنجر الأول

وبذلك أصبحت الدول الاسبانية المسيحية في ذلك الحين خمساً .
ولما قتل جونزالو في كمين دبره له أحد أتباعه تولى أخوه
راميرو - ملك أرجون - حكم سوبراب وضمها الى أملاكه ،
وطمع راميرو في الاستيلاء على مملكة ناغار وعليها أخوه جارسيا
أكبر أولاد سنكو الكبير واستعان بولاية تطيلة ووشقة
وسرقسطة المسلمين ، ولكن جارسيا استطاع رد الهجوم وفاجأ
الأرجونيين وهم نيام ونجا راميرو بصعوبة .

وبعد أن أخذ فرديناند ملك قشتالة الثورات التي قامت
في ليون ، وثبت قدمه ونظم بيته بدأ يهاجم الدول الاسلامية .
ويصول بجيشه المنظم شرقاً وغرباً وجنوباً ، واستطاع توسيع
حدود مملكته توسيعاً كبيراً على حساب الدول الاسلامية ،
وحاول استرداد مدينة سمثورة ، وبعد أن استولى على بعض
قلاع الحدود اتجه الى مدينة بازو واثزعها عنوة وخرّبها
واسترق أهلها وشجعه انتصاره في محاربة ملك بطليوس على
مهاجمة أميري طليطلة وسرقسطة واضطرهما الى دفع الجزية ،
وقد ذكرت في الفصل الخاص بعهد المعتضد محاصرة فرديناند
لأشبيلية وارغام المعتضد وهو أقوى ملوك شبه الجزيرة المسلمين
على أن يؤدي له جزية سنوية ، ونرى من ذلك أن فرديناند
فرض سلطانه على ملوك الأندلس المسلمين وأمرائها ، ولولا
المنازعات الطويلة والحروب المستمرة بينه وبين أخويه جارسيا
وراميرو لتمكن على الأرجح من اجلاء المسلمين عن الأندلس ،
ولكن الخلاف بينه وبين أخويه جعله يكتفى بفرض الجزية ، وقد

استطاع بذلك أن يستعين بأموال الدولة الإسلامية على تحسين أحوال مملكته وتقوية جيشها ومهد السبيل لمن يجيء بعده لانتقام ما حاوله وهو التغلب على الدول الإسلامية ورد إسبانيا للمسيحية كاملة ، ومعنى ذلك أن ملوك الطوائف وأمرائها كانوا يقدمون لفرديناند المال الذى يشد عضده وييسر له اعداد العدة لابتزاز ملكهم واستئصال شأفتهم .

وفى سنة ١٠٦٤ ميلادية (٤٥٧ هجرية) استولى فرديناند على مدينة قلْمُرِيَّة (Coimbra) بعد حصار استمر ستة أشهر ، ولم يكتف فرديناند بذلك بل أمر بطرد المسلمين المقيمين فى المنطقة الممتدة من جنوب نهر دويرة الى نهر منديجو ، وحول بعد ذلك جيوشه من الغرب الى الشرق صوب بلنسية ، وكان قد خلف أميرها عبد العزيز فى سنة ٤٥٣ ابنه الضعيف عبد الملك وحاصرها ، ولما وجد القشتاليون أن مهاجمة المدينة من الصعوبة بمكان لجأوا الى الحيلة لاستدراج المدافعين عنها . فتظاهروا بالانسحاب فخرج وراءهم حماة المدينة واثقين بالنصر وفى الطريق بين بلنسية ومرسية اقتض عليهم القشتاليون انقضا فجائيا وأثخنوا فيهم القتل ولاذ ملكهم بالفرار على جواد سريع ، وعاد فرديناند للاستيلاء على المدينة ، ولم ينقذها منه سوى المرض الفجائى الذى أصابه واضطره الى العودة الى ليون وبها أدركته الوفاة فى سنة ١٠٦٥ م (٤٥٨ هجرية) وكان فرديناند ملكا مثاليا ، كان شجاعا تقيا فاضلا شديد الاخلاص لوطنه وقومه وعقيدته وقد ظفر فى معظم الحروب التى خاض

غمارها وبعد أن كان ملوك الدول المسيحية يدفعون الجزية لخليفة المسلمين أصبح ملوك اشبيلية وبطليوس وطليلة يدفعون الجزية لفرديناند ملك قشتالة قبل أن يطويه الحمام ويوسد في التراب دفينا . ويقول المؤرخ الألماني شباخ^(١) : « ان اتساع رقعة ملكه وتغلبه على أمراء المسلمين وعلى اخوته جعله يتخذ لنفسه لقب « قيصر » منذ سنة ١٠٥٦ للتدليل على سيادته على جميع اسبانيا » ، ولسنا ندرى ماذا كان سيحل بدول الأندلس الاسلامية لو طال عمر هذا المجاهد الباسل الذي كان لا تراخى له عزيمة ولا تهدأ له حركة ، ولا نزاع في أن خبر هلاكه نزل على قلوب ملوك مسلمى الأندلس بردا وسلاما .

وقد وقع فرديناند في الخطأ نفسه الذى وقع فيه والده سانكو فقد قسم ملكه بين أبنائه لثلاثة ، فاختص أكبرهم - سانكو - بقشتالة والحصول على الجزية من ابن هود صاحب سرقسطة ، واختص ابنه ألفونسو بليون وأستوريش والحصول على الجزية من صاحب طليطة ، وجعل ابنه الأصغر جارسيا ملكا على جليقية والبرتغال واختصه بجزية ملك اشبيلية وأمير بطليوس وأسند حق الاشراف على الأديار في جميع مملكته الى ابنتيه : الدونا أوراكا والدونا القيرا .

وقد استطاع فرديناند عن طريق توثيق علاقاته بالبابا أن يكسب حركة الاسترداد صبغة دولية ، وبدأ المسيحيون

(١) تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ليوسف أشباخ وترجمة الاستاذ عبد الله عنان صفحة ٢٢ .

الأوروبيون ينظرون اليها على أنها حرب مقدسة بين العالم المسيحي والعالم الاسلامي ، وكان فرديناند يقول لملوك الأندلس المسلمين : « انما نطلب الأرض التي غلبتمونا عليها في أول أمركم » . ولكنه بتقسيمه المملكة بين أولاده الثلاثة عرض العمل الذي وقف عليه حياته واستغرق أكثر جهوده للخطر الشديد ، اذ أطلق موته سيل الحروب الداخلية بين الاخوة الثلاثة وأصبح الحال في شمال اسبانيا شبيهاً بالحال في جنوبها . ففي الشمال كان الاخوة يتنازعون ويتصارعون ويحاول كل منهم القضاء على أخيه واتزاع ملكه ، وفي الجنوب كذلك يتنافس الملوك والأمراء ويحارب بعضهم بعضا ولا يجد المسلمون بأسا في الاستعانة بالمسيحيين ولا يجد المسيحيون كذلك غضاة في الاحتماء بحمى المسلمين والاعتماد عليهم ، وأصبح رجحان احدى كفتي الميزان في الصراع الدائر بين اسبانيا المسيحية واسبانيا العربية المسلمة متوقفا على من من الفريقين يسبق الى توحيد الصفوف وجمع القوى المتناثرة ليضرب الضربة القاضية ، ولكن حالة الدول المسيحية بوجه عام كانت تبعث على الأمل والثقة بالمستقبل ، فقد كانت روح المسيحيين المعنوية عالية وحماسهم الدينية مشبوبة ، وكانت المناطق الجبلية الشمالية الوعرة القليلة الخيرات قد علمتهم الصبر على شظف العيش ، والتمرس بالشدائد ، وأتمت فيهم القدرة على مجالدة الصعاب في حين أن المسلمين في المناطق الجنوبية الموفرة الخيرات قد قعد بهم خفض العيش وليوثته ، وأفقدهم الكثير من صفاتهم الحربية

ونال من مستواهم الأدبي والأخلاقي ، ولذلك كانت حالتهم أدعى الى اليأس وأبعث على الحزن ما لم تظهر على المسرح قوة أخرى تأخذ بيدهم وترد عنهم عرام الخطر المالحق .

ولم يقنع سانكو أكبر أولاد فرديناند بقشتالة ، واستبد به الطمع ، وحاول التوسع على حساب ملك نافار وملك أرجون ابني عمه ، ولكنه لم يفلح وأخفق في المحاولة ، واقلب من هذه الحرب الى محاربة أخويه : ألفونسو وجارسيا ، ودارت الحرب بين الفريقين مدى ثلاث سنين خرب فيها الكثير من أودية ليون وقشتالة ، ومنى الفريقان بخسائر فادحة ولم يتمكن أحد الفريقين من التغلب على الآخر ، وقد استعان سانكو بالسيد - البطل الاسباني المشهور الذي نسجت حول سيرته أساطير كثيرة واختلفت في حقيقته الأخبار - واستطاع التغلب على ألفونسو وأسره ، وقد أبقى على حياته ارضاءً لأختها الكبرى أوراكا ، وأرغمه على أن ينزل له عن عرش ليون ، ودفع به الى السجن ، وقد دبرت له أخته أوراكا سبيل الفرار فالتجأ الى تابعه ابن ذى النون صاحب طليطلة وقد تلقاه بالترحيب وأكرم وفادته .

ولم يقف سانكو عند هذا الحد فقد كان يرمى الى الاستيلاء على أملاك أبيه جميعها ، ولذلك هاجم جليقية ولم يجد صعوبة في الاستيلاء عليها لأن أخاه جارسيا كان مكروها لطفياته واصطفائه لوزير يبغضه الشعب ، ويرجح أنه لاذ بالفرار دون أن يحاول المقاومة ، وغادر مملكته وافدا على تابعه المعتمد بن

عبد صاحب اشيلية ، وهكذا أصبح سانكو ملكا على الأملاك
التي خلفها أبوه .

وآراد سانكو أن يستكمل انتصاره على أخويه ويقطع
عليهما كل سبيل للعودة أو يقيم على الأقل العقبات في طريق
تلك العودة إذا حاولها أحدهما أو حاولاها الاثنان معا مستعينين
ببعض الجنود المرتزقة ، وكان تحقيق تلك الغاية يقضيها لاستيلاء
على قلعتي سمثورة وتورو المنيعتين الواقعتين على نهر دويره .
وكانت هاتان القلعتان في يدي أخته : أوراكا وثير ، وقد
أغضب سانكو بأسرافه في الطمع ومعاملته لأخويه أخته
وجعلهما يعطفان على أخويهما اللاجئين ، ورفضت الأختان ما
عرضه عليهما سانكو أخوهما لقاء تنازلهما له عن القلعتين من
نعويضهما بأراض أخرى ، ولم تحفلا بتهديده لهما وإبرافه
وارعاده ، واستطاع سانكو الاستيلاء على قلعة تورو لضعف
حصونها ، وظلت أوراكا معتصمة بقلعتها معتمدة على معونة
الفرسان المدافعين عن قلعتها واثقة بهم ، وعجز سانكو عن
الاستيلاء على القلعة واقتحامها عنوة ، فشدد في حصارها ،
ونقى حتفه في هذا الحصار ، فقد سقط قتيلًا في كمين أعد
لاغتياله ، ويرجح أن هذا كان من تدبير أخته أوراكا أو أخيه
ألفونسو أو من اشتراكهما معا ، واضطرب نظام الجيش بعد
مصرعه وتراجع عن حصار القلعة ، وابتدرت أوراكا الأرسال
إلى أخيها ألفونسو في طليطلة تخبره بما حدث وتدعوه إلى
المسارعة بالعودة ، لخلو عرش أخيه ، واعترف أهل ليون

واستريش له بحقه فى العودة الى تسنم عرشه ، ولكن اعترضته الصعاب فى قشتالة وفى الأراضى التى كانت تابعة من قبل لمملكة نافار ، فقد كان يشترط لكى يلى العرش أن يقسم فى حفل رسمى بأنه برىء من التبعة فى مصرع أخيه سانكو ، وتروى الرواية أنه لما تقدم ألفونسو لأداء اليمين لم يتقدم أحد من أشرف قشتالة لتلقيه اياه سوى الكونت رودريجو دياز دى بيقار الذى عرف فى التاريخ باسم السيد القمبياطور ، ولقّن الملك اليمين مرتين فأدّاه ألفونسو كارها وتقم ذلك على السيد ولم يغفر له اجترأه عليه ، وبذلك أصبح ألفونسو ملكا على قشتالة وليون^(١) وقد انتقم فى سنة ١٠٨١ م (٤٧٤ هجرية) من السيد بنفيه من قشتالة لتهم وجهت اليه بعد ايفاده الى اشبيلية لتحصيل الجزية المفروضة على ملكها .

وعاد فى أثناء ذلك أخوه جارسيا الى مملكته جليقية ، ويبدو أن نزاعا قام بين الأخوين حول قشتالة التى كان جارسيا يطالب بجزء منها ، وعمل ألفونسو بنصيحة أخته الماكرة أوراكا فاستدعى أخاه الى الاجتماع به لتسوية ما بينهما من خلاف ، ولما حضر جارسيا لمكان اللقاء أمر باعتقاله وزج به فى حصن لونا المنيع وظل سجينا يرسف فى أغلاله زهاء ثمانية عشر عاما حتى أراحه الموت سنة ١٠٩٠ م (٤٨٣ هجرية) .

وهكذا أصبح ألفونسو ملكا على ليون وقشتالة وجليقية

(١) تاريخ اسبانيا والبرتغال لوليام اكنسون صفحة ٧١ .

ونافار وصار معروفا بلقب ألفونسو السادس وحل محل أخيه جارسيا في الحصول على الجزية التي كان يؤديها المعتمد بن عباد ، ومعنى ذلك أن المعتمد أصبح تابعا لهذا الملك الذي دبّر قتل أخيه أو شترك في تديره وخدع أخاه الآخر واعتقله وأبقاه في السجن حتى مات ناقما عليه لاعتدله .

وكان ألفونسو السادس مثل أبيه فرديناند محاربا جريئا ، ولكنه كان شخصية بغيضة منفرة شديد الجشع مطبوعة على الاجرام نزاعة الى القسوة والعدو والحيانة ، ولم يقنع بالجزية التي كان يؤديها له ملوك الطوائف ، فأخذ ينذرهم من الحين الى الحين بالويل والثبور ويهددهم بالاستيلاء على أملاكهم ، وقد رأينا في فصل سابق محاولته الهجوم على اشبيلية والخذعة التي دفع بها ابن عسار هذا الهجوم وأبطل هذه المحاولة ، وقد أثار هذا الرجل الرعب في قلوب الأمراء المسلمين فكانوا جميعا يتسابقون الى مرضاته ويعملون على خطب وده وينفقون في ذلك من مالهم ويتذلون كرامتهم ، وقد عقد هذا الرجل مع ذلك العزم على التغلب على شبه الجزيرة برمتها ، ولم تكن تنقصه القوة لوضع هذا التصميم موضع التنفيذ ، ولكن مع ذلك لم تكن هناك ضرورة للاسراع ، وكان في خلال ترقب الفرص لتحقيق مراميه يستكمل معداته ويستوفي حشد قواته ويضغط على ملوك الطوائف وأمرائها ليستخرج ما عندهم من المال المدخر والذهب المكنوز .

وكان من أضعف ملوك الطوائف الخاضعين لألفونسو

القادر ملك طليطلة وحفيد المأمون ملكها السابق ، وكان ألعوبة
في يد خصيان قصره وأضحوكة جيرانه الذين كانوا يتنافسون
في اقتطاع أجزاء من أملاكه والاستخفاف به ، وصفه ابن بسام
في الذخيرة بقوله ^(١) : « كان آية في قرب غوره ، امعة امرة ^(٢)
أجبن من قبيرة ، ان حزم لم يعزم وان سدى لم يلحم » . وقد
ركب هواه وأساء السياسة حتى كرهه أهل طليطلة وملثوا
حكمه وثاروا به ولم يستطع مواجهة المواقف فلجأ الى الفرار ،
وأغراههم رجل من بطليوس باختيار المتوكل عمر بن المظفر بن
الأفطس فأتاه سفيرهم يدعوه فدخل طليطلة عقب سنة ٤٧٢
وأقام بالمدينة نحو من عشرة شهر وكان كحاكمهم السابق في
وهن التدبير والاشتغال بالذات ، وراسل القادر ألفونسو
سادس يطلب مساعدته في استرداد عرشه ويذكره بما كان بينه
وبين جده من علاقة قديمة ، فلبى ألفونسو دعواه واستمع
لشكواه وأظهر الارتعاض لما أصابه وقبل معه الى طليطلة وهو
يشعر أن ينتهز الفرصة ويفيد من هذا الخلاف ويتقاضى غاليا
ثمن مساعدته للقادر ، وأحس المتوكل أن موقفه محفوف بالخطر
ولم يجد بدا من الهرب الى بطليوس تاركا طليطلة بين ناب
ألفونسو السادس وضميره . وأصر ألفونسو على أن لا يرحل
عن المدينة الا اذا وفى له المقتدر بضمانه وكافأه على تأييده له ،

(١) اسم الترابيع المجلد الاول من الذخيرة صفحة ١١٦ .

(٢) الامرة : الضعيف الذي يؤمر .

وشدد ألفونسو الحصار على المدينة ، وحاوّن أهل طليطلة رفع الحصار المضروب عليهم فعجزوا عن ذلك ، وأرسلوا جماعة منهم يشكون الى ألفونسو ابن دى النون ويستصرخونه عليه فلم يحسن لقاءهم وتنمر لهم ، وأخذ القادر يضغط على أهل المدينة لتحصيل المال الذى ضمنه لألفونسو وجيش قشتالة فى خلال ذلك ينتسف المرافق ، ويعيث فسادا فى أرباض طليطلة . ويحرق ويمثل ، ويحكم سد المنافذ ، حتى ساءت أحوال المدينة الى أقصى حد ، وشمل أهلها البلاء ، وأتى على أكثرهم القتل ، وعند كثيرون منهم الى الجلاء عنها ، ويقول ابن بسام انه ^(١) : « حينما هجم الشتاء فمنعه من ميرة تأتية أو مدد يوافيه فأقام نيفا على شهرين لا يسيغ الشراب ولا يملك المجىء ولا الذهب ليس له شوكة الا ظل لوائه ولا مدد الا ضعف من كان بازائه ولولا اهتبال ملوك الطوائف باقامة مرافقه واصفاؤهم الى هدر شقاشقه لطار شعاعا وذهب ضياعا » . وواضح من هذه الرواية أن ملوك الأندلس كانوا يساعدون جيش الطاغية ألفونسو وهو يحاصر طليطلة ويمدونه بالميرة ، ووفق أهل طليطلة يستغيثون بمن حولهم ويستصرخونهم دون أن يعبأ بهم أحد من ملوك شبه الجزيرة وأمرائها ، وبعد انتهاء الشتاء اشتد بهم ضيق الحصار وتعطل المرافق وقعود اخوانهم المسلمين عن مناصرتهم وتفريج كربهم فرأوا مداخله ألفونسو فخرج وفد منهم الى مضربه

(١) الذخيرة القسم الرابع الجزء الاول صفحة ١٢٨ .

للمفاوضة وكان أمل هذا الوفد أن يغريه بالمال لرفع الحصار .
 ويصف لنا ابن بسام دخول هذا الوفد على ألفونسو بقوله :
 « فأدخل على أدفونش يومئذ منهم جماعة فوجدوه يمسح الكرى
 من عينيه ثائر الرأس خبيث النَّفَس ، وجعلوا ينظرون اليه
 وهو يضغث ثغامة رأسه ، فما نسوا ذَفَر أظماره ودرن
 أظفاره ، ثم أقبل عليهم بوجه كريه ، ولحظ لا يشكثون أن الشر
 فيه ، وقال لهم الى متى تخادعون وبأى شىء تطمعون ؟ قالوا بنا
 بغية ولنا فى فلان وفلان أمنية » وسمثوا له بعض ملوك
 الطوائف ، فصفق يديه ، وتهافت حتى فحص برجليه ثم قال :
 « أين رسل ابن عباد ؟ فجىء بهم يرفلون فى ثياب الخناعة ،
 وينبسون بالسنه السمع والطاعة ، فقال لهم : « مذكم تحومون
 على وترومون الوصول الى ؟ ومتى عهدكم بفلان ، وأين ما
 جئتم به لا كنتم ولا كان ؟ » . فجاءوا بجمله ميرة وأحضروا بين
 يديه كل ذخيرة خطيرة ، ثم مازاد على أن ركل كل ذلك برجليه ،
 وأمر بانتهابه كله ، ولم يبق ملك من ملوك الطوائف الا أحضر
 يومئذ رسله ، وكانت حاله حال من كان من قبله ، وجعل أعلاجه
 يدفعون فى ظهورهم وأهل طليطلة يعجبون من ذل مقامهم
 ومصيرهم ، فخرج مشيختها من عنده ، وقد سقِط فى أيديهم ،
 وطمع كل شىء فيهم ، وخلثوا بينه وبين البلد لثلاثة أيام من
 ذلك المشهد ، ودخل طليطلة على حكمه ، وأثبت فى عَرَصَتِها
 قَدَمَ ظلمه ، حكم من الله سبق به القدر فلم يكن منه وزر .
 ويترسل ابن بسام فى الحديث عن القادر فيقول : « وخرج

ابن ذى النون خائبا مما تمناه ، شرقا بعقبى ما جناه ، والأرض
تضج من مقامه ، وتستأذن فى انتقامه ، والسماء تود لو لم
تطلع نجما الا كدرته عليه حتفا مبيدا ، ولم تنشئ عارضا الا
مطرته فيه عذبا شديدا ، واستقر بمحلة أدفونش مخفور الذممة
مزال الحرية ، ليس دونه باب ولادون حرمة ستر ولا حجاب ،
حدثنى من رآه يومئذ بتلك الحال ويده اضطربا يرصد فيه
أى وقت يرحل ، وعلى أى شىء يعول ، وأى سبيل يتشمل ، وقد
أطاف به النصارى والمسلمون ، أولئك يضحكون من فعله ،
وهؤلاء يتعجبون من جهله » .

وكان استيلاء ألفونسو السادس على طليطلة فى سنة ١١٨٨ هجرية
(سنة ١٠٨٥ ميلادية) وطليطلة هى أول ما استرد
الاسبانيون من مدن الأندلس العظيمة ، وقد كان لسقوطها دوى
عظيم ووقع أليم فى نفوس سكان الأندلس المسلمين والعالم
الاسلامى قاطبة ، وقد أدرك المسلمون أن مقامهم فى الأندلس
بعد سقوط طليطلة أصبح معرضا لأشد الأخطار . وقد عبر
الشاعر عبد الله بن فرج اليحصبى عن هذا الشعور فى قوله :

يا أهل أندلس حثوا مطيكم

فما المقام بها الا من الغلظ

الثوب ينسل من أطرافه وأرى

ثوب الجزيرة منسولا من الوسط

ونحن بين عدو لا يفارقنا

كيف الحياة مع الحياة فى سفظ

وأفاد سقوط طليطلة الأسبانيين من الوجهة الحربية فوائده
كثيرة ، فقد ثبت أقدامهم في المدن الشمالية التي استردوها من
المسلمين ومد نفوذهم من الهضبات العليا الى صميم البلاد
وأضاف الى قشتالة القديمة المنطقة الممتدة جنوبها والتي أطلق
عليها اسم قشتالة الجديدة ، وكان لجعل ألفونسو طليطلة عاصمة
القوط القدامى عاصمة لملكه معنى بعيد الدلالة ، وكان سقوط
طليطلة خاتمة البداية لحركة الاسترداد التي بدأت في الصخرة ،
وبدء نهاية خروج المسلمين من الأندلس ، وأدرك ملوك الأندلس
وأمرأؤها الخطر الداهم الذي يتهددهم ولعلهم ندموا على
وقوفهم موقف المتفرج على سقوط طليطلة واشتراك بعضهم الى
حد ما في تعجيل هذا السقوط ، ولم يكن في يدهم سوى ورقة
وحدة ليلعبوا بها في دفع عدوان ألفونسو المنتظر وكشف أذاه ،
وهي الاستعانة بممد من افريقية ، وبعد اعمال الرأى وتقليب
الأمر على وجوهه استقر الرأى على استدعاء المرابطين
والاستعانة بهم ، وسلم في الفصل القادم بالظروف والملايسات
التي هيأت ذلك ويسرت أسبابه ، وقد رأى ألفونسو أن يخلع
على نفسه بعد سقوط طليطلة لقب « ملك الملتنين » أى صاحب
السلطان على النصارى والمسلمين معا .

وقف الزلافة

شعر ألفونسو السادس بعد استيلائه على طليطنة بأن نجده قد علا شأنه قد عظم فقويت آماله ، وترامت طمعه ، ودفعه ما رآه من ضعف جلد ملوك الأندلس المسلمين وقلة مقاومتهم . وتخاذلهم ووقوفهم منه موقف المستذل الضارع براء المتكبر الشامخ الى الاسراف في طلباته والمبالغة في الاستخفاف بهم . فلم يكتف بطلب الضريبة المفروضة على المعتد ، واشتد فطلب بعض الحصون زيادة على الضريبة ، وأمعن في التجنى . فسأل في دخول امرأته تقصيصة الى جامع قرطبة لتد فيه من حمل كان بها . وقد أشار عليها بذلك التيسيون والأساففة لمكان كنيسة كانت في الجانب الغربي من الجامع معطرة عندهم عسل المسلمون عليها الجامع الأعظم . وسأل أن تنزل امرأته المذكورة بمدينة الزهراء غربى مدينة قرطبة فتختلف منها الى الجامع المذكور حتى تكون تلك الولادة بين صيب نسيم الزهراء وفضيلة ذلك الموضع الموصوف من الجامع ، وزعم ألفونسو أن الأطباء أشاروا عليه بولادتها في الزهراء كما أشار عليه القساوسة بالجامع فلم يقبل المعتمد اجابة هذا الطلب .

ووصل اليهودى ابن شاليب لقبض الجزية مع جساعة من رؤساء القشتاليين ، وحلوا بباب من أبواب اشبيلية وضربوا

خيامهم ، فوجّهه المعتمد اليهم المال مع جماعة من وجوه دولته ،
والظاهر أن اليهودى وجد أن بعض المال المقدم من معدن
خسيس فرفض تسلمه وقال : « والله لا أخذت هذا العيار ، ولا
أخذه منه الا مشجّراً ، وبعد هذا العام لا آخذ منه الا أجفان
البلاد ، ردوه اليه » . فرد المال الى المعتمد ، وأعلم بما قاله
اليهودى ، فدعا بالجند وقال : « ائتوني باليهودى وأصحابه
واقطعوا حبال الخباء » .

ففعّلوا وجاءوا بهم ، فقال المعتمد : « اسجنوا النصارى
واصلبوا اليهودى الملعون » .
فقال اليهودى : « لا تفعل وأنا أفتدى منك بزنتى مالا »
فقال المعتمد ^(١) : « والله لو أعطيتنى العُدوة والأندلس
ما قبلتهما منك » .

وصلب اليهودى ، وبلغ الخبر ألفونسو ، فكتب الى المعتمد
لاطلاق سراح المعتقلين ، واشترط المعتمد أن يرد اليه حصن
المدور لقاء اطلاق سراحهم ، وقبل ألفونسو هذا الشرط ورد
الحصن اليه فأطلقهم ، وكان ألفونسو حينما بلغه نبأ صلب
اليهودى وحبس رجاله أقسم أن يأتى من الجنود بعدد شعر
رأسه حتى يصل الى بحر الزقاق ، وقد عمل على أن يبر بقسمه

(١) ذكر صاحب النفع فى هذا الموضوع روايتين احدهما عن أبى عبد الله محمد
ابن عبد الله الحميرى صاحب الروض المعمار فى الجزء السادس صفحة ٨٩ ،
والثانية عن ابن اللبانة فى صفحة ٣٧٧ / ٣٧٨ من الجزء الخامس وتختلف الروايتان
فى التفاصيل ولكنهما تتفقان فى جوهر الموضوع .

فأخذ يحرق وينهب في قرى البلاد الإسلامية ، وكان يقتل المسلمين بأسرهم وخرب إقليم شذونة ووصل إلى منطقة جبل طارق وحاصر اشبيلية ثلاثة أيام ، واستولى أحد قواده على حصن ليظ القريب من مدينة لورقة ، وهو في غاية حصانة ، وكانت رجاله تشن الغارات من هذا الحصن على مرسية ، وتقدم القشتاليون من غرناطة وشتبكوا في معركة مع المسلمين وحوصرت سرقسطة واستفحل الخطر في كل ناحية من نواحي الأندلس الإسلامية ، واستولى الخوف على النفوس وبدأ أهل الأندلس أنه ليس هناك سبيل للخلاص سوى أحد طريقين وكلاهما شر من الآخر ، وهما الرحيل من الأندلس ، وهو طريق يصعب احتماله ، واختيار مر ، أو الخضوع لألفونسو وهو يفقدهم كل شيء ويتركهم أذلاء محتقرين وقد ينتهي باجلائهم عن البلاد أو بقتلهم ، لأن ألفونسو لم يكن الرجل الذي يطمأن إلى وعده ويثق الناس بكلمته ، واتجه تفكير القواد صوب افريقية ، وعقد اجتماع في قرطبة حضره جماعة من فقهاء المدينة وتبادلوا الرأي في الأحوال السائدة وما بلغت من السوء ، وقال المجتمعون هذه مدائن الأندلس قد غلب عليها الافرنج ، ولم يبق منها الا القليل ، وان استمرت الأحوال على ما نرى عادت نصرانية كما كانت ، ثم ساروا إلى القاضي عبد الله بن محمد بن أدهم فقالوا له : « ألا تنظر ما فيه المسلمون من الصغار والذلة واعطائهم الجزية إلى الفرنج بعد أن كانوا يأخذونها منهم ، وابن

عباد هو الذى حمل الافرنج على المسلمين حتى جرى عليه ما جرى وطلب منه ما طلب ، وقد دبرنا رأيا نعرضه عليك » .
فقال لهم القاضى ابن أدهم : « وما هو هذا الرأى ؟ » .
قالوا : « نكتب الى عرب افريقية ونعلمهم أن وصلوا الينا قاسمناهم أموالنا وخرجنا معهم مجاهدين فى سبيل الله » .
فقال ابن أدهم : « أخاف أن يخربوا الأندلس كما فعلوا بافريقية ، ويتركوا الافرنج ويبدءوا بكم ، والمرابطون أقرب الينا وأصلح حالا » .
فقالوا : « كاتب يوسف بن تاشفين ، وارغب اليه أن يدخل اليه بنفسه أو يرسل اليه قائدا من قواده » .
فقال ابن أدهم : « قد أشرتم برأى فيه السداد » .
وقدم المعتمد من اشبيلية الى قرطبة فى اثر ذلك ، فدخل عليه القاضى وأعلمه بما دار بينه وبين أهل قرطبة ، وما اتفقوا عليه ، فقال المعتمد : « نعم ما أشاروا به ، وأنت رسولى اليه » .
فتظاهر القاضى بالتسنع واستعفاءه ، وأراد بذلك أن يقوى عزمه على ارساله فقال له المعتمد : « لا أجد لها غيرك » .
وقد كانت فكرة الاستعانة بالمرابطين تجول فى نفس المعتمد ، ويروى أنه حينما أخذت جيوش ألفونسو تغير على التخوم والجهات وتعيث وتخرب وتدمر وحاصرت قصر ابن عباد ، كتب ألفونسو الى المعتمد زاربه عليه يقول : « كثر بطول مقامى فى مجلسى الذباب ، واشتد على الحر ، فاتحفنى من قصرك بمروحة أروح بها على نفسى وأطرد بها الذباب عن وجهى » . فوقع له

ابن عباد بخط يده في ظهر الرقعة : « قرأت كتابك وعلست خيلاءك واعجابك ، وسأنظر لك في مراوح من 'الجلود الليلية' تروح منك لا تروح عليك ان شاء الله تعالى » . وتقول الرواية انه لما قرئت هذه الرسالة عليه وعلم مقتضاها ضرق اطراق من لم يخطر له ذلك ببال ، وفشا في الأندلس توقيع ابن عباد ، وما أظهر من العزيمة على جواز يوسف بن تاشفين .

ولما علم ملوك الطوائف بعزم ابن عباد على دعوة المرابطين وانفراده برأيه في ذلك هالهم الأمر . وخشوا العاقبة ، فمنهم من كاتبه ومنهم من كلمه مواجهة وحذره عاقبة ذلك ، وقال له المخالفون له في رأيه : ان الملك عقيم والسيوفان لا يجتمعان في غمد ، وعارضه في هذا الرأي ابنه الرشيد ، فقال له المعتمد كلمته المشهورة : « رعى الجمال خير من رعى الخنازير » ومعناه أن كونه مأكولا ليوسف بن تاشفين أسيرا يرعى جماله في الصحراء خير من كونه أسيرا عند ألفونسو يرعى له خنازيره في قشتالة ، وقال المعتمد لعذاله ولوئامه : « انى من أمرى على حالين ، حالة يقين وحالة شك ، ولا بد لى من احدهما ، أما حالة الشك فإنى ان استندت الى ابن تاشفين أو الى الأدفنش ففى الممكن أن يفى لى ويبقى على وفائه ، ويمكن أن لا يفعل ، فهذه حالة الشك ، وأما حالة اليقين فإنى ان استندت الى ابن تاشفين فإنى أَرْضَى الله ، وان استندت الى الأدفنش أسخطت الله تعالى ، فاذا كانت حالة الشك فيها عارضة ، فلأى شىء أدع ما يرضى الله وآتى ما يسخطه ؟ » ولما سمع أصحابه ذلك أمسكوا عن لومه .

ولم يكن المعتمد بطبيعة الحال غافلا عما ينطوى عليه استدعاء المرابطين الى الأندلس من خطر ، وقد رأينا في الفصل الخاص بعهد المعتضد كيف كان هذا الرجل الباقعة يراقب تقدم حركة المرابطين ، وأنه حين علم بنزولهم رحبة مراکش أمر عامله على الجزيرة الخضراء بأن يزيد عنايته بتحسينها ويكون شديد اليقظة كامل الأهبة ، فما الذى جعل المعتمد يفكر فى استدعائهم ويتناسى تحذير أبيه ؟

يخيل لى أن المعتمد كان يشعر بثقل تبعته فى سقوط طليطلة ، وقد ذكر المؤرخ الألمانى « يوسف اشباخ » فى الجزء الأول من كتابه « تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين » ما معناه : أن المعتمد لم يكن مرتاحا الى تقرب ألفونسو ملك قشتالة من القادر صاحب طليطلة ، وكان يرى أنه لا بد من ابعاد هذا الحليف القوى عن بنى ذى النون لما كان بينه وبينهم من عداة مهما كلفه ذلك من عظيم التضحية اذا أراد أن يغنم سيادة اسبانيا المسلمة جميعها ، ووجد المعتمد أنه لو استطاع أن يظفر بصداقة ألفونسو السادس ، وعمل ألفونسو من ناحيته على تهديد طليطلة وشغلها لكان من المحقق أن تنتصر جيوشه على الامارتين الباقيتين ، وهما امارة بنى باديس فى غرناطة ، وامارة بنى الأفطس فى بطليوس ، ولذا وجد أنه لا بد أن يبادر الى عقد تحالف مع ملك قشتالة قبل أن يسبقه اليه أمير آخر ، وكان بين ابن عمار وألفونسو معرفة أكيدة وكان ابن عمار يرمى الى جعل المعتمد يشعر على الدوام بحاجته اليه ، ولذلك لا أستبعد أن

يكون هو الذي حض المعتمد على اتباع هذه السياسة المتتوية وزينها له . ويقول شباخ أن ابن عمار نجح في مهسته حينما أرسله المعتمد لعقد معاهدة مع ألفونسو . وقد تعهد ملك قشتالة بموجب شروط هذه المعاهدة السرية بأن يعاون أمير اشبيلية بالجند المرتزقة ضد جميع أعدائه المسلمين ، ويتعهد المعتمد في مقابل ذلك بأن يدفع لملك قشتالة مقادير كبيرة من المال ، ويتعهد بالأخص بما هو أهم ، وهو ألا يعترض مشروع ألفونسو في الاستيلاء على طليطلة ، وهذا من غير شك خطأ خطير تورط فيه المعتمد باغراء ابن عمار على الأرجح ، وأقول على الأرجح لأن الأمير عبد الله الزيري صاحب غرناطة يحدثنا في مذكراته عن خطأ تورط فيه المعتمد باغراء ابن عمار يشبه ذلك ويقاربه ، فهو يروي لنا ^(١) أن ألفونسو أرسل إليه رسوله يطلب منه ضربيته « فاجتمع رأينا على أن لا نفعل ، وأن ضرر ألفونس لا يخشى وغيرنا أمامنا ، نعى بذلك ابن ذي النون ، ولم نقس أن أحدا يعاقده على مسلم ، فانصرف عنا دون عمل وأن ابن عمار انتهز هذه الفرصة ، وكان منتظرا له بياغه ، مرتقبا لما يصنع معنا ، فلما رأى أنه لم يتم له غسل ألقى يده فيه على المقام ، وقال له : « ان كنتم مثنين عشيرين ألف دينار (وهي التي سأل عن ضربيته) فنحن نعطيكم خمسين ألفا ، على أن نعاقدكم على غرناطة ، تعطونا القاعدة ، ولكم ما فيها من

(١) مذكرات الأمير عبد الله الزيري المسماة بكتاب النبين صفحة ٦٩ / ٧٠ .

الأموال « فعاقدوه على ذلك . واتفق رأيهم على أن يبنوا على
غرناطة معقلا يضيق عليها حتى تلقى بيدها ، وكان ابن أضحى ،
قد انحاش اليهم يدلهم على عورات البلدة ، ويريههم أشد ما
يكون عليها من المواضع ان بنى ، ويجعل فيه ندبا للضرب
والتضييق ، فأراهم حصن بليشش ، وأكرى ابن عمار من
عسكر ألفونسو ما قوى به على البنيان بأعداد من الأموال
الجسيمة يسوِّفهم فيها تارات ويخادعهم حتى تم البنيان ، وجعل
المعتمد يحاول ذلك بنفسه ، ويبرز أبدا على مقربة من غرناطة
مدة كونه طمعا في أن يقوم معه أهل البلدة ، فلما تم بنيانه قوَّاه
بالندب واتخذ فيه جميع الأقوات ، وأمرهم بالتضييق وكانت
الحال شديدة » .

ويقول الأمير عبد الله في موضع آخر من مذكراته ^(١) :
« وبقي ابن عمار مرتها بما جعل على نفسه للنصراني من كراء
بليشش في تبعات كثيرة وجرايات جسيمة يقطعها له ، ويعده بها ،
وأدخل سلطانه من ذلك في تشغيب ، لأنه كان لا يريد أن يجعله
يخلد الى راحة لكي يحتاج اليه في تلك الفتنة لا يقر عن ادخال
ضرر على المسلمين ، ومتى ما كان المعتمد يسعى في تهدين
الأمر ، ونزوم معه الصلح أو تنشأ مهادنة لا ينام في تقضها
واشعال نار الفتنة » . ويقول عن ابن عمار : « كان للمعتمد

(١) مذكرات الأمير عبد الله صفحة ٧٢ .

طاعة في معصية واشتھر بأخذ عرضه وهجوه بما نزهه الله عنه
فعل الأوغاد والأرذال .

وواضح مما ثقلته من مذكرات الأمير عبد الله ومن أشياء
أخرى في مذكراته أنه كان يرى أن ابن عمار هو الذي كان
يوجه سياسة المعتد هذا التوجيه السيئ ، وهو الاستعانة بالملك
الفونسو على أضرابه من ملوك الطوائف ، وقد أظهر ضغيان
الفونسو بعد استيلائه على طليطلة للمعتد خطأ تلك السياسة
ومقدار اساءتها لقضية العنصر العربي الاسلامي في الأندلس
مما آثار نخوته وجعل ضميره يؤنبه .

وسابق علاقات ملوك الأندلس المسلمين بيوسف بن تاشفين
أمير المرابطين كانت لا تبعث على الإيغال في سوء الظن بل لعلها
كانت توحى اليهم بعض الطمأنينة ، فصاحب النفح روى لنا^(١)
أنه حينما ملك يوسف المغرب وبنى مدينتي مراكش وتلمسان
الجديدة ، وأطاعته البربر مع شكيمتها الشديدة وتمهدت له
الأقطار التي بسط عليها سلطانه ، تاقّت نفسه الى العبور لجزيرة
الأندلس ، فهم بذلك ، وأخذ في انشاء المراكب والسفن ليعبر
بها ، ولما علم بذلك ملوك الأندلس كرهوا المامه بجزيرتهم .
وأعدوا له العدة والعدد ، ولكنهم أدركوا مع ذلك صعوبة
مدافعتهم ، وكرهوا أن يكونوا بين عدوين الفرنج عن شمالهم
والمسلمين عن جنوبهم ، وكانت الفرنج تشتد وطأتها عليهم ،

(١) الجزء السادس من نفح الطيب صفحة ٨٦ .

وتغير وتنهب ، وربما يقع بينهم صلح على شيء معلوم كل سنة يأخذونه من المسلمين ، والفرنج ترهب ملك المغرب يوسف بن تاشفين اذ كان له اسم كبير وصيت عظيم ، لنفاذ أمره وسرعة تملكه بلاد المغرب وانتقال الأمر اليه في أسرع وقت ، مع ما ظهر لابطال الملتزمين من بطولة في المعارك ، ولذلك كان ملوك الأندلس يحذرونه خوفا على ملكهم ، فلما رأوا ما دلّهم على رغبته في العبور اليهم راسل بعضهم بعضا يستنجدون آراءهم في أمره ، وكان مفزعهم في ذلك الى المعتمد بن عباد لأنه أشجع القوم وأكبرهم مملكة ، فوقع اتفاقهم على مكاتبتة لما تحققوا أنه يقصدهم يسألونه الاعراض عنهم ، وأنهم تحت طاعته ، وكتب عنهم كاتب من أهل الأندلس كتابا يقول فيه : « أما بعد فانك ان أعرضت عنا نسبت الى كرم ، ولم تنسب الى عجز ، وان أجبننا داعيك نسبت الى عقل ولم تنسب الى وهن ، وقد اخترنا لأنفسنا أجمل نسبنا ، فاختر لنفسك أكرم نسبتيك ، فانك بالمحل الذي لا يجب أن تسبق فيه الى مكرمة ، وان في استبقائك ذوى البيوت ما شئت من دوام لأمرك وثبوت والسلام » .

ولما وصل الكتاب يوسف بن تاشفين مع تحف وهدايا وكان لا يحسن معرفة اللغة العربية ، لكنه كان ذكى الطبع سريع الفهم ، وكان له كاتب يعرف اللغتين : العربية والمرابطية ، فقال له : « أيها الملك هذا الكتاب من ملوك الأندلس يعظمونك فيه ، ويعرفونك أنهم أهل دعوتك ، وتحت طاعتك ، ويلتمسون

منك أن لا تجعلهم في منزلة الأعداء ، فإنهم مسلمون وذوو
يسوتات فلا تغيّر بهم ، وكفى بهم من وراءهم من الأعداء
الكفار ، وبلدهم ضيق لا يحتمل العساكر ، فأعرض عنهم
اعراضك عن أطاعك من أهل المغرب .

فقال يوسف لكتابه : « فما ترى أنت ؟ » .

فقال كاتبه : « أيها الملك ان تاج الملك وبهجته شاهده الذي
لا يرد ، فانه خليف بما حصل في يده من الملك والمال أن يعفو
إذا استعفى ، وأن يهب إذا استوهب ، وكلما وهب جليلا جزيلا
كان لقدره أعظم ، فاذا عظم قدره تأصل ملكه ، وإذا تأصل
ملكه تشرف الناس بطاعته ، وإذا كانت طاعته شرفا جاءه الناس ،
ولم يتجشم المشقة اليهم ، وكان وارث الملك من غير اهلاك
لآخرته ، واعلم أن بعض الملوك الحكماء الأكابر البصراء بطريق
تحصيل الملك قال : « من جاد ساد ، ومن ساد قاد ، ومن قاد
ملك البلاد » .

فلما ألقى الكاتب هذا الكلام على السلطان يوسف بلغته
فهمه وعلم صحته ، فقال للكتاب : « أجب القوم ، واكتب بما
يجب في ذلك ، واقرأ على كتابك » .

فكتب الكاتب : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من يوسف ،
ابن تاشفين ، سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته ، تحية من
سالمكم وسلم عليكم ، وانكم مما في أيديكم من الملك في
أوسع اباحة ، مخصوصين منا بأكرم ايثار وسماحة ، فاستديموا

وفاءنا بوفائكم ، واستصلحوا اخاءنا باصلاح اخائكم ، والله
ولى التوفيق لنا ولكم والسلام .

ولما فرغ الكاتب من كتابه قرأه على يوسف بلسانه ،
فاستحسنه ، وقرن به ما يصلح لهم من التحف ودرق اللط
التى لا توجد الا ببلاده . و نفذ ذلت اليهم ، فلما وصلهم ذلك
وقرأوا كتابه فرحوا به وعظّموه ، وسروا بولايته ، وتقوت
نفوسهم على دفع الفرنج عنهم ، وأزمعوا ان رأوا من الفرنج
ما يريبهم أنهم يرسلون الى يوسف ليعبر اليهم أو يمدّهم
بإعانة منه .

ولم يذكر لنا المقرئ من أين استقى هذه الرواية ، ولكنها
ربّما قد يكون لها نصيب من الحقيقة فقد كان خلفاء بنى أمية
في الأندلس شديدي الحساسية بما يحدث في المغرب لتأمين
دولتهم وصيانة ملكهم ، وملوك الطوائف ساروا بطبيعة الحال
على هذه السياسة ، وكان الموقف يفرض عليهم على الدوام
ترصد أحوال المغرب ومراقبة الحركات التى تنشأ به ، لأن
الأندلس كانت شديدة التأثر بما يحدث فيه .

وروى لنا صاحب كتاب الحلل الموشية أن المعتمد بن عباد
حينما خلا بابنه الرشيد الذى كان رشحه لولاية العهد في أعقاب
حادثة اليهودى ابن شاليب قال له : « انا فى هذه الأندلس
غريب بين بحر مظلّم وعدو مجرم ، وليس لنا ولى ولا ناصر الا
الله تعالى ، وان اخواننا وجيراننا ملوك الأندلس ليس فيهم ولا
يرجى منهم نصره ولا حيلة ان نزل بنا مصاب أو نالنا عدو وهذا

اللعين الأذفشر وقد أخذ طليطة من ابن ذى النون بعد سبع سنين وعادت دار كفر ، وها هو قد رفع رأسه إلنا وان نزل علنا كما نزل بطليطة فانه ما يرفع عنا حتى يأخذ شيلية ، ونرى من الرأى أن نبعث الى هذه الصحراء وملك العدو نستدعيه للجواز ليدفع عنا هذا الكلب اللعين ذ لا قدرة لنا على ذلك بأنفسنا فقد تلف لحاؤنا وتدبرت بل تبردت جنادنا وأبغضتنا العامة والخاصة .

ولما أجابه ابنه الرشيد قائلا : « يا أبت أتدخل علينا فى أندلسنا من يسلبنا ملكنا ويبدد شملنا » .
فأجابه المعتمد : « أى بنى والله لا يسمع عنى أبدا أنى أعدت الأندلس دار كفر ولا تركتها للنصارى فتقوم على اللعة فى منابر الاسلام مثلما قامت على غيرى » .
فقال له ابنه : « يا أبت افعل ما أمرك الله » .
فقال المعتمد : « ان الله لم يلهمنى الا هذا وفيه خير وصلاح لنا ولكافة المسلمين » .

وواضح من هذه الروايات أن المعتمد تدبر الموقف وفكر فى شتى الاحتمالات ، ووجد أنه لا بد له من الخضوع لاحدى القوتين ، قوة ألفونسو أو قوة المرابطين ، وقد حرق سفنه مع ألفونسو فلم يبق له الا الارتقاء فى أحضان المرابطين .

ولما استقر المعتمد على هذا الرأى خاطب جاريه المتوكل عسر بن محمد صاحب بطليوس وعبد الله بن حبثوس الصنهاجى صاحب غرناطة يأمرهما أن يبعث كل واحد منهما قاضى حضرته ،

ففعلا ، ثم استحضر قاضى الجماعة فى قرطبة أبا بكر عبيد الله بن أدهم ، وكان يعد من أعقل أهل زمنه ، فلما اجتمع القضاة عنده بأشبيلية أضاف اليهم وزيره أبا بكر بن زيدون ، وعرفهم - أربعتهم - أنهم رسله الى يوسف بن تاشفين أمير المرابطين ، وأسند الى القضاة ما يليق بهم من وعظ يوسف وترغيبه فى الجهاد ، وأسند الى ابن زيدون ما لا بد منه فى تلك السفارة من إبرام العقود السلطانية .

وكان يوسف على بيّنة من سوء الأحوال فى الأندلس ، فقد كانت تفد عليه وفود ثغور الأندلس مستعطفين مجهشين بالبكاء ، ناشدين الله والاسلام ، مستنجدين بفقهاء حضرته ، ووزراء دولته ، وكان يستمع اليهم ، ويصغى لقولهم ، وترق نفسه لهم .

ولما انتهت الرسل الى سدة يوسف أقبل عليهم وأكرم مشواهم ، والظاهر أن يوسف وهو رجل مجرب بعيد النظر فى عواقب الأمور رأى قبل أن يبت فى الأمر أن يعرف شيئا عن طبيعة الأندلس من الناحية الحربية ، وأن يستشير أصحابه وخاصته فى الموضوع ، وكان كاتبه عبد الرحمن بن أسبط أندلسى الأصل ، فلما استشاره فيما جاء له الوفد شرح له ما يعترض الحرب فى الجزيرة من الأخطار لأن أكثرها فى بد النصارى والجزيرة ذاتها وعرة البسائط تعترضها جبال صعبة المسالك تعوق حركة الفتح السريع ، وأنها يمكن أن تشبه بسجن يندر أن يستطيع الداخلون اليه الخروج منه ، ومن حديثه معه

قوله (١) : « ان كنت جزت اليها ، وحصلت فيها ما يكون لك في نفسك من شيء ، وهذا الرجل الذي استدعاك ما بينك وبينه عتاب قديم ولا صداقة متصلة » ، وذكر له أنه اذا اقتصر على الأعداء قد يقطع عليه الرجل الذي استدعاه طريق العودة الى افريقية وأن هذا جد ميسور ، وأنهى حديثه معه بقوله : « الحاء ، كما ترون والنظر اليكم ، فاكتبوا اليه (أى الى المعتمد) بأنه لا يمكنك الجواز الى أن يعطيك الجزيرة الخضراء فتعجل فيها أثقالك وأجنادك ويكون الجواز بيدك متى شئت » .

وأطلع يوسف اخوته وبنى عمه وقال لهم : « ما ترون فيه كتب به هذا الرجل ؟ » . ويقول مؤلف « الحلل الموشية » انهم كانوا قوما صحراويين ولم يعاينوا قط نصرانيا ، ولا شهدوا حربا الا ما يكون بينهم ، وكانوا يريدون أن يغزوا ويدخلوا الأندلس » فلما استشارهم يوسف في الأمر صادف ذلك رغبة في نفوسهم فقالوا له : « أيد الله أمير المسلمين ، أما ما ذكرتم من استغاثة هذا الرجل بكم فواجب على كل مسلم يؤمن بالله ورسوله اغاثة أخيه المسلم »

وأخذ يوسف بنصيحة كاتبه فأثار مع الوفد القادم عليه مسألة الموضع الذى ينزل فيه جنوده ، فاقترح أبو بكر بن زيدون نزولهم فى جبل طارق ، ولكن يوسف فضل الجزيرة الخضراء كما أشار عليه كاتبه ، فأجابه مندوب المعتمد أنه ليس له

(١) الحلل الموشية .

من السلطة ما يجيز له البت في هذا الطلب ، فلم يسترح يوسف لهذا الرد ، ووعد الوفد وعودا غامضة فعاد الوفد أدراجه وهو لا يدري أوفق في مهمته أم أخفق ، وفي رواية أخرى أنه لما طلب يوسف من المعتمد تسليم الجزيرة الخضراء قال له ابنه الرشيد : « يا أبت ألا تنظر الى ما طلب » فأجابه المعتمد : « يا بني هذا قليل في حق نصره المسلمين » . ومهما يكن من أمر هاتين الروايتين فإن رجال الدين أفهموا يوسف أن مجاهدة الأفرنج عليه فريضة فاستنفر حشوده واستكمل أهبة ورحل الى سبتة فأقام بها وأخذ في تجويز عساكره حتى لم يبق منهم أحد وجاز في أثرهم ، وسرعان ما وجدت الجزيرة الخضراء أنها محفوفة بالحند وطلب الجيش المرابط تسليم المدينة وكان حاكمها الراضى ابن المعتمد فلم يجلس عن الجيش المؤونة ولكنه استعد للمقاومة حتى يرد عليه أمر التسليم من والده ، وأرسل اليه كتابا بالحمام الزاجل يخبره بواقع الأمر ، ولم يجد المعتمد بدا من النزول على أمر يوسف اذ لم يكن يستطيع التراجع بعد أن قطع شوطا بعيدا في التفاهم مع يوسف ، فبادر مسرعا الى ارسال الأمر لابنه بتسليم المدينة للجيش المرابط وأخلى الراضى المدينة وانسحب الى مدينة رندة ، ولما دخل يوسف الجزيرة الخضراء قوَّى حصونها وشحنها بالذخيرة والطعام والحرس وجعلها قاعدة حصينة ، وتقدم المعتمد للقاءه ومعه أعيان دولته على مرحلة من الجزيرة الخضراء ، ولما اقترب من محلة يوسف ركض نحو القوم وركضوا نحوه فبرز اليه يوسف وحده والتقى منفردين .

وتصافحاً وتعانقاً وأظهر كل واحد منهما مودة والخلوص ،
وتواصيا بالصبر ورحمة . وتضرعاً إلى الله في أن يجعل ذلك
خالصاً لوجهه مقرباً إليه .

وفي إحدى الروايات أن المعتمد أراد أن يترجل عن جواده
وأن يقبل يد يوسف فمنعه يوسف من ذلك وبادر إلى معانقته
وسأله عن حاله وانبطح معه في الحديث ، وهنأه ابن عباد
بسلامة الوصول ، وفي رواية المراكشي أن المعتمد سأل يوسف
دخول شبيلية - دار ملكه - ليستريح فيها أياماً حتى تزور
عنه وعشاء السفر ، ثم يقصد قصده ، فأبى عليه يوسف وقال :
« إنما جئت فاوياً جهاد العدو . فحيث كان العدو توجهت » .

ويقول الحميري في الروض المعطار : « أن يوسف عاد
لمحلته ، ولحق بابن عباد ما كان أعده من هدايا وتحف والطف ،
وباتوا تلك الليلة وأشار ابن عباد على يوسف بالتقدم إلى
شبيلية ففعل . ورأى الناس من عزة سلطانه ما سرهم : ونم
يبق من ملوك الطوائف بالأندلس إلا من أعان وخرج وأخرج .
فحضر حفيداً باديس الأمير عبد الله صاحب غرناطة وأخوه الأمير
تميم صاحب مالقة ، وكان الأول يقود ثلاثمائة فارس والثاني
جاء على رأس مائتي فارس ، وأرسل المعتصم صاحب المرية
كتيبة من الفرسان يقودها أحد أبناءه وأبدى أسفه ليوسف على
عجزه من الحضور لأن المسيحيين في حصن لبيط يهددون بلاده
ويضطرونه إلى البقاء للدفاع عنها .

وكذلك فعل الصحراويون مع يوسف في كل صقع من
أصقاعه رابطوا وكابدوا

وكان ألفونسو يحاصر سرقسطة حينما بلغتة الأنباء بأن
المرابطين جاءوا الى اسبانيا ، واعتقد ألفونسو أن ملك سرقسطة
لم يعلم بنزول المرابطين فوعده برفع الحصار اذا دفع له مبلغا
كبيرا من المال ، ولكن المستعين صاحب سرقسطة كان قد بلغتة
الأنباء السارة فامتنع عن دفع المال المطلوب ، فعاد ألفونسو
أدراجه الى طليطلة بعد أن أمر قائده ألقارو فانيز وغيره من
القواد أن يوافوه بجيوشهم في طليطلة .

واستنفر ألفونسو أهل بلاده وما يليها وما وراءها واجتمع
له من الجلالقة ومن ليون وأشتوريش وقشتالة عدد كبير ،
ووفدت في الوقت نفسه لنجدة النصارى الاسبان سريات من
الفرسان من ولايات فرنسا الجنوبية من لانجدوك وبروفانس
وبرجونية طامعة في جنى المغانم من أعداء الدين .

ورفع القسيسون والرهبان والأساقفة صلبانهم ونشروا
أناجيلهم .

وبعث ألفونسو الى المعتد رسالة يقول فيها ^(١) : « ان
صاحبكم يوسف قد تعنى من بلاده ، وخاض البحار ، وأثاب
أكفيه العناء فيما بقى ، ولا أكلفكم تعباً ، أمضى اليكم وألقاكم
في بلادكم ، رفقا بكم وتوفيرا عليكم » . وقال لخاصته وأهل

(١) نفع الطيب الجزء السادس صفحة ٩٦ .

مشورته : « انى رأيت أنى ان مكنتهم من الدخول الى بلادى
فناجزونى فيها وبين جدرها ، وربما كانت الدائرة على
يستحكمون البلاد ، ويحصدون من فيها غداة واحدة ، ولكنى
أجعل يومهم معى فى حوز بلادهم ، فان كانت على اكنفوا بما
نالوه ، ولم يجعلوا الدروب وراءهم الا بعد أهبة خرى فيكون
فى ذلك صون لبلادى ، وجبر لمكاسرى ، وان كانت الدائرة
عليهم كان منى فيهم وفى بلادهم ما خفت أنا أن يكون فى وفى
بلادى اذا ناجزونى فى وسطها » .

وأخذ يتسقط الأخبار ، ويث العيون والأرصاد ، وجمع
عساكره وحشد جنوده ، وتقدم من ضليطة ، وقال حين نظر الى
جنوده وتملكه الزهو والاعجاب والثقة من النصر : « بهؤلاء
أقاتل الجن والانس وملائكة السماء » واتجه بجيوشه الى الجهة
الغربية من الأندلس ، وكتب الى يوسف كتابا كتبه له بعض
غواة أدباء المسلمين يغلظ له فيه القول ويصف ما معه من القوة
والعدد والعدد ، وبالنغ فى ذلك ، فلما وصله وقرأه يوسف أمر
كاتبه أبا بكر بن القصيرة أن يجيبه ، وكان كاتبا مطلقا ، فكتب
وأجاد ، فلما قرأه على أمير المسلمين قال : « هذا كتاب طويل »
وأحضر كتاب ألفونسو وكتب فى ظهره : « الذى يكون ستراه »
وأرسله اليه ، فلما وقف عليه ألفونسو ارتاع له ، وعلم أنه
بلى برجل يؤثر العمل على القول .

ولما أتم يوسف استعدادده أرسل الى ألفونسو كتابا يعرض
عليه الدخول فى الاسلام أو الجزية أو الحرب ، ومن جملة ما فى

الكتاب : « بلغنا يا أذفنش أنك دعوت الى الاجتماع بنا ،
وتمنيت أن تكون لك سفن تعبر فيها البحر إلينا ، فقد عبرنا
إليك ، وقد جمع الله في هذه الساحة بيننا وبينك وسترى عاقبة
دعائك ، وما دعاء الكافرين الا في ضلال » .

وتقدم يوسف في جيشه ، وتأخر ابن عباد لبعض الأمر ، ثم
انزعج في اثره بجيش فيه حماة الثغور ورؤساء الأندلس ، وجعل
ابنه عبد الله على مقدمته ، وسار وهو يتفائل لنفسه مكمل
البيت المشهور :

« لا بد من فرج قريب يأتيك بالعجب العجيب »
غزو عليك مبارك في فيه الفتح القريب
لله سيفك انه سخط على دين الصليب
لا بد من يوم يكو ن اخا له يوم القلب

ووافى الجيوش كلها بطليوس ، فأناخوا بظاهرها ، وخرج
إليهم صاحبها المتوكل عمر بن محمد فلقبهم بما يجب من الأقوان
والضيافات ، وبذل مجهوده ، واتفقوا على أن يكون المعتمد في
قلب المقدمة والمتوكل بن الأفضس في ميمنتها ، وأهل الشرق في
ميسرتها وسائر أهل الأندلس في الساقة والمرابطون وأهل
العدوة كماين متفرقة تخرج من كل جهة عند اللقاء .

وجاءت الأخبار بشخص ألفونسو ، والتقى الجمعان بمكان
على مقربة من بطليوس أسماه المسلمون « الزلاقة » وأسماه
الأفرنج « ساكرالياس » وكان ألفونسو قد تلقى رسالة يوسف
التي يدعوها فيها الى الاسلام أو الجزية فكبر عليه الأمر ،

واشتد غضبه ، وقال في رده ان المسلمين يؤدون له الجزية منذ سنوات وأنه لا يعبأ بمثل هذه العروض المهينة ، وأن جيشه الضخم قادر على انزال العقوبة بأعدائه الذين جهلوا قدرهم وتجاوزوا حدهم .

وكان المعتمد عارفا بأساليب ألفونسو في المكر والدهاء فأذكى عيونه في محلات الصحراويين خوفاً عليهم من مكاييد ألفونسو ، اذ هم غرباء لا علم لهم بالبلاد ، وجعل يتولى ذاك بنفسه ، حتى قيل ان الرجل من الصحراويين كان يخرج عن طرق محلاتهم لبعض شأنه ، أو لقضاء حاجته ، فيجد المعتمد بنفسه مطيافاً بالمحلة بعد ترتيب الكراديس من خيل على أفواه طرق محلاتهم ، فلا يكاد الخارج منهم يخطئ اذ ذاك من لقاء المعتمد لكثرة تطوافه عليهم .

ولم يبق الا تحديد يوم المعركة حسب ما كان متبعاً في تلك الأيام ، وكانت الطلائع قد جاءت بخبر أن جيش العدو مشرف عليهم صبيحة يومهم ، وكان يوم الأربعاء فأصبح المسلمون قد أخذوا مصافهم وقام الفقهاء والعُبَّاد يعظون الناس ويحضونهم على الصبر ويحذرونهم الفرار ، وأراد ألفونسو أن يلجأ الى الخديعة فبعث للمعتمد في يوم الخميس يقول له : « غدا يوم الجمعة وهو عيدكم ، وبعده الأحد وهو عيدنا ، فليكن لقاءنا بينهما وهو يوم السبت » فعرف المعتمد بذلك يوسف ، فقال : « نعم » فقال له المعتمد : « هذه خديعة من ابن

فَرَزْدَكَ ، انما يريد غدر المسلمين ! فلا تطمئن اليه ، وليكن
الناس على استعداد له طول يوم الجمعة كل النهار » .

وبات الناس ليلتهم على أهبة واحتراس بجميع المحلات ،
خائفين من كيد العدو .

وفي أثناء ذلك جاء فارسان من طلائع المعتمد يخبران أنهما
أشرفا على محلة ألفونسو وسمعا ضوضاء الجيوش واضطراب
الأسلحة ، ثم تلاحق بقية الطلائع محققين بتحرك جيش ألفونسو ،
وجاءت الجواسيس من داخل محلة ألفونسو يقولون : « استرفنا
السمع الساعة فسمعنا ابن فرزند يقول لأصحابه : « ابن عباد
مسعر هذه الحروب ، وهؤلاء الصحراويون وان كانوا أهل
حفاظ وذوى بصائر فى الجهاد فهم غير عارفين بهذه الجهات ،
وانما قادهم ابن عباد ، فاقصدوه واهجموا عليه ، واصبروا ،
فان انكشف لكم هان عليكم الصحراويون بعده ، ولا أرى ابن
عباد يصبر لكم ان صدقتموه الحملة » .

عند ذلك أرسل المعتمد كاتبه ابن القصيرة الى يوسف
يعرفه باقبال جيش ألفونسو ويستحث نصرتة ، ومضى ابن
القصيرة يطوى المحلات حتى جاء يوسف فعرفه بجلية الأمر ،
فقال له : « قل له انى سأقرب منك ان شاء الله تعالى » وأمر
يوسف بعض قواده أن يمضى بكتيبة رسمها له حتى يدخل محلة
جيش ألفونسو فيضرمها ناراً ما دام جيشه مشغلا بمهاجمة
المعتمد .

وانصرف ابن القصيرة الى المعتمد ، فلم يصله الا وقد

غشيته جنود ألفونسو فثبت المعتمد ، وتلقى الصدمة ولم
ينكشف له ، وحميت الحرب بينهما ، ومال ألفونسو على المعتمد
بجموعه وأحاطوا به من كل جهة ، فاستحر القتال فيهم وصبر
ابن عباد صبراً لم يعهد مثله لأحد ، واستبطاً يوسف وهو
يلاحظ طريقه ، وعضته الحرب ، واشتد البلاء ، وأبطأ عليه
الصحراويون ، وساءت ظنون أصحابه ، وانكشف بعضهم
وفيهم ابنه عبد الله ، وأثخن المعتمد جراحات ، وضرب على
رأسه ضربة فلقت هامته حتى وصلت الى صدغيه . وجرحت
يمنى يديه ، وطعن في أحد جانبيه ، وعقرت تحته ثلاثة فرس .
كلما هلك واحد قدّم له آخر وهو في ذلك يضرب شمالاً ويميناً ،
وتذكر وهو في تلك الحالة ابناً له صغيراً كان مغرمًا به تركه
باشبيلية عليلاً ، اسمه : العلاء وكنيته أبو هاشم فقال :

أبا هاشم هشمتنى الشّفار ولله صبرى لذك الأوار
ذكرت شخيصك تحت العجاج فلم يشنى ذكره للمفرار
وكان أول من وافى المعتمد من قواد ابن تاشفين دود بن
عائشة ، وكان بطلا شهماً فنُقِسَ بمجيئه عن المعتمد ، ثم قبل
يوسف بعد ذلك وطبوله تصدع الجو ، فلما أبصره ألفونسو
وجّه اليه معظم جنوده فبادر اليه يوسف وصدّمهم بجسعه
فردّهم الى مراكزهم ، وانتظم به شمل ابن عباد ورأى بوادر
الاتصار ، ثم صدقوا جميعاً الحملة فتزلزلت الأرض بحوافر
الخيّل وأظلم النهار بالعجاج والغبار ، وخاضت الخيل في الدماء ،
وصبر الفريقان صبراً عظيماً ، ثم تراجع المعتمد الى يوسف

وحمل معه حملة نزل معها النصر ، وتراجع المنهزمون من أصحاب ابن عباد حين علموا بالتحام الفئتين ، فصدقوا الحملة ، فانكشف الطاغية ، ومرت هاربا منهزما ، وقد طعن في إحدى ركبتيه طعنة بقي أثرها بقية عمره ، ولجأ إلى تل كان يلي محلته في نحو الخمسمائة فارس كلهم مكلوم .

وأقبل المعتمد على يوسف فصافحه وهنأه وشكره وأثنى عليه ، وشكر يوسف مقامه وحسن بلائه وجميل صبره .

ولما انحاز ألفونسو بشرذمته جعل ابن عباد يحرض على أتباعه ومطاردته وقطع دابره ولكن يوسف خالفه في ذلك وقال له : « لو اتبعناه اليوم لقي في طريقه أصحابنا المنهزمين راجعين إلينا منصرفين فيهلكهم ، بل نصبر بقية يومنا حتى يرجع إلينا أصحابنا ويجتمعوا بنا ثم نرجع إليه فنحسم داءه » .

وكان المعتمد يرى أنها فرصة سنحت للقضاء عليه واستعجال هلاكه ، وكان رده على يوسف قوله : « انه ان فرأ من أمامنا لقيه أصحابنا المنهزمون فلا يعجزون عنه » .

ولكن يوسف أصر على رأيه .

ولما جاء الليل تسلل ألفونسو تحت ستاره وهو لا يلوى على شيء ، وكان أصحابه يتساقطون في طريق واحد بعد واحد من أثر جراحتهم ، وأغذ السير حتى دخل طليطلة .

وشاع ما حدث من اختلاف في الرأي بين المعتمد ويوسف ، واختلف الناس في تفسير أسبابه ، فشيعة المعتمد زعمت أن يوسف لم يخف عليه وجه الصواب في معالجة العدو واغتنام

فرصة هزيمته للقضاء عليه ، لكنه خاف أن يهلك العدو الذي من أجله استدعى فيقع لاستغناء عنه .

أما شيعة يوسف فقد ذهبت الى أن ابن عباد أراد قطع حبال يوسف من العود الى جزيرة الأندلس .

وقال آخرون : « كلا الرجلين أسراً حسو في ارتقاء ، وإن كان ابن عباد أحرى بالصواب » .

والأخبار التي وصلتتنا عن المعركة تميل بنا الى ترجيح رأى المعتد ، وربما كانت طبيعة الحذر والميل الى التحرى وشدة الاحتياط للطوارئ هي التي جعلت يوسف لا يبادر الى مطاردة فلول ألفونسو ، ومهما يكن من أمر هذا الاختلاف في وجهة النظر بين الرجلين ، فإن الثقة الكاملة لم تكن موفورة بينهما ، واستيلاء يوسف على الجزيرة الخضراء سوء كان عن رغبة صادقة من المعتمد أو أنه أرغم عليه رغاما وحمل عليه حملا ووجد نفسه فيه أمام الأمر الواقع ، قد ترك في نفس المعتمد جانباً من سوء الظن .

وكتب المعتمد الى ابنه باشبيلية يقول : « كتابى هذا من المحلة يوم الجمعة الموفى عشرين من رجب ، وقد أعز الله لدين ، ونصر المسلمين ، وفتح لهم الفتح المبين ، وأذق المشركين العذاب الأليم ، والخطب الجسيم ، فالحمد لله على ما يسره وسناه من هذه الهزيمة العظيمة ، والمسرة الكبيرة ، هزيمة اذفوتش أصلاه الله نكال الجحيم ، ولا أعدمه الوبال العظيم ، بعد اتيان النهب على محلاته ، واستئصال القتل في جميع أبطاله

وأجناده ، وحماته وقواده ، حتى اتخذ المسلمون من هاماتهم صوامع يؤذنون عليها ، فله الحمد على جميل صنعه ، ولم يصبني بحمد الله تعالى الا جراحات يسيرة ألت لكنها فرجت بعد ذلك وغنمت وظفرت .

وأرسل يوسف بن تاشفين الرسالة الآتية ^(١) الى تميم بن المعز بن باديس بالمهدية يصف فيها معركة الزلاقة وجوازه الى الأندلس للجهاد بها وهزيمته لألفونسو ، وقد رأيت ثقلها كاملة لأنها وثيقة هامة ، تحوى الكثير من الحقائق التاريخية التى تؤيد رواية صاحب الروض المعطار التى اعتمدت عليها فى وصف المعركة :

« الحمد لله الذى منّ علينا بالاسلام ، وفضلنا بمحمد نبيه عليه السلام ، أحمده حمداً يوجب المزيد من آلائه ، والسبوغ من سرائه ونعمائه ،

كان من قضائه جل ثناؤه ، وتقديس أسماؤه ، لما أراد قمع المردة الطغاة من زناته وغيرهم فى بلاد المغرب ، سبب إلينا منهم المطلب ، فغفونا آثارهم ، وأخلينا منهم ديارهم ، وكذلك نفعل .

(١) نقلت هذه الرسالة من المجلد رقم ١٥ من مجلة الأندلس الصادر فى مدريد سنة ١٩٥٠ ويرجع الفضل فى اطلاقى على هذا النص لصديقى العالم المؤرخ الأستاذ أحمد رمزى سفيرنا السابق فى بنجيكا وقد تفضل فأعارنى إياه حينما علم أنى أعد كتابا عن المعتمد بن عباد ويسرنى أن أغتنم هذه الفرصة لأقدم له خالص الشكر على هذه الأريحية بالاصالة عن نفسى ونيابة عن القراء الذين سيجدون فى هذه الوثيقة القيمة ، فوائد تاريخية وممتعة فكرية .

بالتقوم الظالمين ، فقوّمنا هنالك الدين ، ومهدنا بها للمسلمين ،
فصفت لنا ضمائرهم ، وخلصت لنا في الله تعالى نياتهم
وسرائرهم ، حتى وصلنا طنجة الركاب وذقنا بر غواطة سوم
العذاب ، ففتح الله لنا وبها ، وهو خير الفاتحين ، وأسرع
الحاسين ، لا اله غيره وهو أرحم الراحمين .

ولما بلغنا من استحواذ النصارى — دمرهم الله — على بلاد
الأندلس ومعاقليها ، والزام الجزية لرؤسائها ، واستتصال
أقاليسها ، وايطائهم البلاد داراً داراً ، لا يتخوفون عسكرياً يخرج
اليهم فيبدد جمعهم ، ، ويفل حدهم ، وهم مع ذلك كله يقتلون
الشيب والشبان ، ويأسرون النساء والصبيان ، فخطبنا عن
الجواز الى الأندلس من جميع الأحواز المرة بعد المرة ، وألوتنا
الأعداء ، الى وقت الأقدار ، ولم نجد للجوز باباً ، ولا لدخول
البحر أسبابة ، فانضم لنا منهم الرئيس الأجلّ المعتمد على الله
المولّى بنصرته ، أحسن الله في كل الأمور عونه ، وأقرّ بكل
صاحبة عينه . فعزمنا على الغزو ، وجوّزنا للعدوّ سوداً ضارية ،
وسباعاً عادية ، شيباً وشباناً بسواعد قوية ، وقلوب في سبيل
الله ثقية ، قد عرفوا الحرب وجرّبوها ، فهم وهم بنوها ،
يتلمظون تلسظ نفهود ، ويزأرون اليها زئير الأسود ، فشحننا
منهم القوارب ، وأوسقناهم على ظهور المراكب ، فجزنا في مرسى
الجزيرة الخضراء من دياره وفقه الله .

ففرع الناس من كل أفق اليهم ، ووفدوا من كل قطر عليهم ،
متعجبين من هيأتهم ، محتقرين لزيهم ونعماتهم ، لا يروهم منهم

حاشى الخيل والدرك ، وهم مع ذلك لا ينالون الا بعد جف
الريق ومسح العرق ، وقد رَوا أنهم طعم للسيوف وغرض
للحتوف ، وهدف للأرماح ونهب للسلاح ، وكل استصغروهم ،
والجميع منهم احتقرهم ، وتبلغ الينا أخبارهم وأقوالهم ، وتنتهى
الينا أفعالهم ، ثم اتبعناهم جيشاً بعد جيش ، بخيول كالعجول ،
عليها الكهول ، وعدد من كل أمرء ، على أجرد ، يتسابقون الى
اللقاء فى القضاء ، تسابق حين والقضاء ، ومع هذا كله ان أهل
الأندلس يستبشرون بنصرهم على أيدينا ، وازاحة غمهم بسبينا
وعساكرنا تتزيد ، وجوازنا يتأكد ، وكان آخر من جازمنا
ومعنا قطعة من صنهاجة بنى عمى ، فعسر البحر حينئذ للجواز ،
واضطربت منه الأمواج ، فاستصرخت البارى تعالى جده وعظم
اسمه ، ان كان فى جوازنا خيرة للمسلمين أن يسهل علينا ، فما
استكملت من كلامى حتى سهّل الله المركب ، وقرّب المطلب ،
فخرجنا من الحين فى مرسى الجزيرة الخضراء ، والتأم شعبنا مع
من جاز من عسكرنا فعملنا على السير .

وكان قد تقدم الينا بالعدوة من قبل الاذفونش أمير
النصارى رسالة يخاطبنا فيها بالجواز اليها اذا عجزنا عنه ، وفرقنا
منه ، نعطيه المراكب ونسلم اليه الشوانى والقوارب ، ليرد
علينا ، ويقاثلنا فى مأمنا ، فلم نلتفت اليه ولا عرجنا عليه .

ووصلنا أيدينا بالرئيس الأجلّ المعتمد على الله ، المؤيد
بنصر الله واستوثقنا منه غاية الاستيثاق ، وبنينا معه على اللحاق
بهم والورود عليهم ، ونحن فى ذلك كله لما نزل اليها وورد علينا

من رؤساء الأندلس مستبطين سريرة المختين ، لابسين كسوة
الصالحين ، وقلوبنا شتى ، حتى لحقنا أشبيلية حضرته ، عمرت
ببقائه ، وقد تجمع له من جنوده أعداد ، ومن حشمه وعبيده
وخيله ورجله أجناد ، فصرنا الى مدينة بطليوس ، وأقمنا بها
أياما ، منتظرين لوفد الرؤساء من جميع أقطار الأندلس ، فأخبرنا
وصح عندنا أن كل واحد منهم مشغول مع قضية كثيرة من
النصارى ، قد تغلبوا على حصونهم ، وأذلواهم في بلادهم ،
وأضعفواهم وقد يتجعونهم على مرادهم .

فحمدنا الله تعالى ، ودعونا بتيسير المرد ، واستنقاذ
العباد . فجمعنا عساكرنا ، وصرنا اليه ، وصرنا الى قتل قورية
من بلاد المسلمين - صرفها الله - فسمع بنا ، وقصد قصدنا ،
وورد ورودنا ، واحتل بفنائها منتظرا لنا ، فبعثنا اليه نحضه على
الاسلام . ودخوله في ملة محمد عليه السلام ، أو ضرب الجزية
عليه ، واسلام ما كان من المال والبيوت لديه ، كما أمرنا الله
تعالى ويبيّن لنا في كتابه من اعطاء الجزية عن يد وهم صاغرون ،
فأبى وتمرد ، وكفر ونخر ، وعمل على الاقبال اليها وحث في
الورود علينا ، فلحقنا وبيننا وبينه فراسخ ، فلما كان بعد ذلك
برزنا عليه أياما ، فلم يجبنا ، فبقينا وبقوا ، ونحن نخرج الطلائع
اليه ، وتتابع الوثوب عليه ، وبنينا على الغاية يوم الخميس
لاحدى عشرة ليلة خلت لرجب سنة تسع وسبعين وأربعمائة .

فلما كان يوم الجمعة ثانيه ، ورد علينا بكتائب قد ملأت
الآفاق ، وتقلبت قلب الختوف للأحداق ، وقد استلأموا الدروع

للكفاح ، وربطوا في سوقهم الألواح ، وبطونهم ملأى من
الخمور ، يقدرّون أن الدائرة علينا تدور ، ونحن في أخيتنا
صبيحة اليوم المذكور ، كل منا ساه ، وجميعنا لاه ، فقصد
أشدهم شوكة وأصلبهم عوداً ، وأنجدهم عديداً ، محلة المعتمد
على الله المؤيد بنصر الله ، وفقه الله ، عماد رؤساء الأندلس
وقطبهم ، يقدرّون أن لا عسكر الا عسكره ، ولا رجال الا
رجالهم ولا عديد الا عديده ، وداؤود من أصحابنا منا الى ازائه ،
فهبطوا اليه لفيفا واحدا كهبوط السيل بسوابق الخيل .

فلما رأهم من كان معه من جنده ، ومن جميع الطبقات
الذين كانوا يدخرون من قبله الأموال والضياع استكت
آذانهم ، واضطربت أضلاعهم ، ودهشت أيديهم ، وزلزلت
أقدامهم ، وطارت قلوبهم وصاروا كركب الحمير ، فرثوا يطلبون
معقلا يعصمهم ، ولا عاصم الا الله ولا هارب منه الا اليه ،
فلحقوا من بطليوس بالكثومات لما عاينوا من الأمور المضلات ،
وأسلموه أيّده الله ... وحده في طرف الأخبية مع عدد كبير من
الرجالة والرماة قد استسلموا للقضاء .

فوثنوا عليه وثب الأسد على لفرائس ، يعظمون الكنائس ،
فحبسهم حيناً وحده مع من اليه ممن ذكرناه ، وبسطوا منهم
الأرض ، ولم يبق من الكل الا البعض ، ولجأ في الأخبية بعد
أن عاين المنية وتخلصه الله بنيته في المسلمين وبلغه أمنيته ، بعد
أن وقف وقفة بطل مثله ، لا أحد يردّ عليه ، ولا فارس من

فرسانه وعبيده يرجع اليه ، ولا يروعه أحد منهم فيهزم ولا يهابهم فيسأم .

ثم قصدت كتيبة سوداء كالجبل العظيم ، أو ليل البهيم
عسكر داؤود وأخبيته فجالوا فيها جولانا ، وقتلوا من الخلق
ألوانا ، واستشهد الكل بحمد الله ، وصاروا نى رضون لله .
ونحن فى ذلك كله غافلون ، حتى ورد علينا ورد ، وقصد
الينا قاصد ، فخرجنا من وراء الشعب كقطع اللهب ، بجميع من
معنا على الخيل المسومة العرب . يتسابقن للطعن والضراب ،
فلما رأونا ، ووقعت أعينهم علينا ، ضنوا أن الدائرة فينا ولدينا ،
وأنا طعم أسيافهم ولفاء أرماحهم ، فكبرنا وكبر الكل معنا ،
مبتهلين لله وحده لا شريك له ، ونهضنا للسنون الذى لا بد منه ،
ولا محيص لأحد عنه ، وقلنا هذا آخر يومنا من الدنيا فلنمت
شهداء .

فحملوا علينا كالسهام ، فثبت الله أقدامنا ، وقوى أفئدتنا .
والملائكة معنا ، والله تعالى ولى النصر لنا ، فولوا هارين
وفروا ذهين ، وتساقط أكثرهم بقدر لله تعالى دون طعنة
تلاحقه ، ولا ضربة تشخه ، وأضعف الرعب أيديهم ، فطعنهم
بالسمهرية دون الوخز بالابر ، وضافت بهم الأرض بما رحبت ،
حتى أن هاربهم لا يرى غير شىء الا ظنه رجلا ، وفكت فيهم
السيوف ، على رغم الأنوف ، فوالله لقد كانت تقع على الدروع
فتفريها ، وعلى البيضات فتبريها ، وزرق الرجالة منا على
خيولهم الرماح ، فشكوهم بها ، فرمحت بهم ، فما كنت ترى

منهم فارساً الا وفرسه واقف على رأسه لا يستطيع الفرار ،
الكل يجبر عنانه كأنه معقل بعقاله ، ونحن راكبون على الجواد
الميمون ، العربي المصون ، السابق اللاحق ، المعد للحقائق ،
وما منا الا من له جرابان فيه سيفان ، وييدنا الثالث لما عسى
أن يحدث من حادث ، فصاروا في الأرض مجدولين ، موتى
معفرين .

وقد تراجع الناس بعد الفرار ، وأمنوا من العثار وتظافروا
مع عسكرينا ، وغيرهم ، يقطعون رءوسهم ، وينقلونها بازاء
المحلات حتى علت كالجبال الراسيات ، عدد لا يقدر ومدد لا
يجزّر ، ولتجريد فيهم ، والأيدى متعاودة لبطونهم ، واستأصلنا
أكابرهم ، وحللنا دون أباطيلهم وأمانيتهم ، وما ربك بغافل عما
يعمل الظالمون .

واقطع من عسكريهم نحو ألفى رجل أو أقل ، والاذفونش
فيهم - على ما أخبرنا - وقد أثخنوا جراحا بازاء محلاتهم ،
يرتادون الظلام للهروب في المقام ، ووالله لقد كان الفرسان
والرجالة يدخلون محلتهم ، ويعثرون في أخبيتهم ، وينتهبون
أزودتهم ، وهم ينظرون شزراً - نظر نتيوس على شفر
الجزارين ، الى أن جن الليل وأرخی سدوله ، فولثوا هارين
وأسلموا رحائلهم صاغرين ، فكم من دلاص على البقاع
ساقطة ، وخيول على البطاح رافضة ، وقد ارتبط كل فارس منا
الخمسة أفراس أو أزيد ، وأما البغال والحمير فأكثر من ذلك ،
وأما الثياب والمتاع فناهيك ، والأسرة بأوطية الحرير والثياب

والأوبار عدد ليلهم ، ولا يكلون من الانتقال ولا يسأمون من
تشریط الأموال .

ولحقوا قورية ، ومنها حيث ألقت رحلها أم قشعم ، فصحبنا
ضمائرنا ، وأخلصنا للسعتمد على الله نياتنا وسرائرنا بحمد الله
غانمين منصورين ، لم يستشهد منا إلا الفرقة التي قدّر الله
عليها بذلك ، وقدرنا أن الكل منهم هالك ، لقلة معرفتهم ،
وجاهلتهم بقتال النصارى ، وتراميمهم للشهادة ، قدس الله
أرواحهم ، وأكرم مشواهم وضريحهم ، وجعل الجنة ميعاداً بيننا
وبينهم ، وفقدنا من أكابرنا نحو عشرين رجلاً ممن شهرت
نجدته في المغرب ، وانقلب خير منقلب .

ولحقنا اشيلية حضرته — عسرت ببقائه — وأقمنا عدة أيام .
ورفعنا عنه مودعين . لا توديع قاضع ، ولا يمنعنا منه متى أحب
مانع ، ولحقنا الجزيرة الخضراء ونحن نريد أشياء أسأل الله تمامها
وانجازها ، وأن يسهل المراد ، ويوفقنا للسدد : ومتى تنفس
منهم متنفس ، أو رجع الى أحد منهم نفس ، يذكرون ما تقوا .
وبتذكرون ما بقوا ، وسنستدرجهم من حيث لا يعلمون ،
وأملئ لهم أن كيدى متين ، حتى لا يبقى على أديم الأرض منهم
حى ، ولا يحس منهم انسى .

والحمد لله رب العالمين على ما قضى وخوّل وأعطى ، وهذا
كله منّا منه علينا ، وصلى الله على محمد خاتم النبيين ، وقائد
الفر المحجلين ، الى جنات الله النعيم ، وآله الطيبين ، وسلّم
تسليماً . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وأقامت العساكر بموضع المعركة أربعة أيام حتى جمعت
الغنائم ، وتواردت على يوسف الأنباء من إفريقية بوفاة ولده
الأكبر أبى بكر سير الذى خلفه فى أثناء غيابه على حكومة
مراكش ، فعجّل بالعودة الى إفريقية ، وأمر على عساكره
بالأندلس قائده سير بن أبى بكر ، وفى طريق عودته مر بأشبيلية
وأراح بظاهرها ثلاثة أيام ، وسأله المعتمد أن ينزل عنده فأجابه
الى ذلك .

وفى سياق هذه الأحوال المضطربة وغمار هذه الأحداث
الجليلة ، ومصير الأندلس الإسلامية معلق بيد الأقدار ، لم ينس
المعتمد حبه للشعر ، ولم يعرض عما طبع عليه من الكرم
والأريحية ، قصده وهو مع يوسف ^(١) أبو محمد عبد الله بن
براهيم عم الحافظ الحجارى صاحب المسهب ، ورفع اليه قصيدة
يقول فيها :

لا روع الله سرباً فى رحابهم
وان رمونى بترويع وابعاد
ولاسقاهم على ما كان من عطش
الا ببعض ندى كف ابن عباد
ذى المكرمات التى مازلت تسمعها
أنس المقيم وفى الأشعار كالزاد
يا ليت شعرى ماذا يرتضيه لمن
ناداه ياموئلى فى جحفل النادى

(١) الجزء الخامس من نفح الطيب صفحة ١١٠ .

فلما انتهى الى هذا البيت قال له المعتمد : « أما ما أرتضيه لك فليست أقدر في هذا الوقت عليه ولكن خذ ما ارتضى لك الزمان » وأمر خادما له فأعطاه ما عاش في فائدته ، ثم أخذ منه البطاقة المكتوبة بها القصيدة وجعل يجيل نظر والفكر فيها والشاعر مترقب لسماع نقده فقد كان يعرف سمو مكانته في هذا الشأن ، فلما انتهى الى قوله :

ولاسقاهم على ما كان من عطش

الا ببعض ندى كف بن عباد

قال له : « لأي شيء بخلت عليهم أن يسقوا بكفه ؟ » . فأجابه الشاعر : « اذن كان يلحقني من النقد ما لحق ذا الرمة في قوله : « ولا زال منها بجرعائك القطر » وكان طوفان نوح أهون عليهم من ذلك » فتألفت غرة المعتمد وبدأت مسرته وقال : « انا لله على أن لم يعنا الزمان على مكافأة مثلك » .

ولما دخل يوسف اشبيلية مع المعتمد أمعن النظر فيها وفي محلها ، وهي من أجمل بلاد الأندلس وأحسنها منظرا ، وفي جانبها قصور المعتمد وأبيه المعتضد في غاية الحسن والبهاء ، وفيها أنواع ما يحتاج اليه من المطعوم والمشروب والملبوس والمفروش وغير ذلك ، وأنزل المعتمد يوسف في أحدها ، وتولى من اكرامه وخدمته ما أوسع شكر ابن تاشفين له ، وكان مع يوسف جماعة من أصحاب له ينبهونه على حسن تلك الحال وتأملها ، وما هي عليه من النعمة والاطراف ، ويغرونه باتخاذ مثلها لنفسه ،

ويقولون له ان فائدة الملك قطع العيش فيه بالتنعم واللذة كما يفعل المعتمد وأصحابه .

وكان يوسف مقتصدًا في أموره ، وقد ذهب صدر عمره في شطف العيش ، فأنكر على الذين أخذوا يغروونه بالاسراف وايشار الترف وقال لهم : « الذى يلوح لى من أمر هذا الرجل - يعنى المعتمد - أنه مضيع لما فى يديه من الملك ، لأن هذه الأموال التى تعينه على هذه الأحوال لا بد أن يكون لها أرباب لا يمكن أخذ هذا القدر منهم على وجه العدل أبدا ، فأخذه بالظلم ، وأخرجه فى هذه الترهات ، وهذا من أفحش الاستهتار ، ومن كانت همته فى هذا الحد من التصرف فيما لا يعدو الأجوفين متى يستجد همة فى ضبط بلاده وحفظها وصون رعيته والتوفير لمصالحها » .

وسأل يوسف عن أحوال المعتمد فى لذاته ، هل تختلف ، فتقص عما هو عليه فى بعض الأوقات ؟ فقليل له : « لا ، بل كل زمانه على هذا » .

فقال : « أفكل أصحابه وأنصاره على عدوه ومنجديه على الملك ينال حظا من ذلك ؟ » .

فقالوا : « لا » .

قال : « فكيف ترون رضاهم عنه ؟ » .

فقالوا : « لا رضا لهم عنه » .

فأطرق وسكت ، وأقام أياما عند المعتمد على تلك الحال . والظاهر أن بعض هذه الأحاديث والملحوظات التى أبدتها

يوسف وفريق من صحابته شاعت في المدينة وتناقلها أهلها ،
فهناك رواية^(١) تقول انه في أثناء تلك الزيارة استأذن رجل على
المعتمد فدخل وهو ذو هيئة رثة ، وكان من أهل البصائر ، فلما
مثل بين يديه قال له : « أصلحك الله أيها السلطان ! وإن من
أوجب الواجبات شكر النعمة ، وإن من شكر نعمة اهدء
النصائح ، وإنى رجل من رعيتك حالى فى دولتك الى الاختلال
أقرب منها الى الاعتدال ، ولكننى مع ذلك مستوجب لك من
النصيحة ما للملك على رعيته ، فمن ذلك خبر وقع فى أذنى من
بعض أصحاب ضيفك هذا يوسف بن تاشفين يدل على أنهم
يرون أنفسهم وملكهم أحق بهذه النعمة منك ، وقد رأيت رأيا ،
فإن آثرت الأصغاء اليه قلته » .

فقال له المعتمد : « قله » .

فقال له : « رأيت أن هذا الرجل الذى أطلعتة على ملكك
مستأسد على الملوك ، قد حكم على رفقاءه ببر العداوة ، وأخذ
الملك من أيديهم ، ولم يبق على واحد منهم ، ولا يؤمن أن
يطمح الى الطمع فى ملكك ، بل فى ملك جزيرة الأندلس كلها
لما قد عاينه من هناة عيشك ، وإنى لمتخيل مثل ذلك لسائر
ملوك الأندلس ، وإن له من الولد والأقارب وغيرهم من يود
له الحلول بما أنت فيه من خصب الجناب ، وقد أردى الأذفونش
وجيشه ، واستأصل شأفتهم ، وأعدمك منه أقوى ناصر عليه

(١) نفع الطيب الجزء السادس صفحة ١٠٩ .

لو احتجت اليه ، فقد كان لك منه أقوى عضد وأوفى مجن ،
وبعد فانه ان فات الأمر في الأذفونش فلا يفتك الحزم فيما هو
ممکن اليوم .

فقال له المعتمد : « وما هو الحزم اليوم ؟ » .

فقال : « أن تجمع أمرك على قبض ضيفك هذا واعتقاله في
قصرك ، وتجزم أنك لا تطلقه حتى يأمر كل من بجزيرة الأندلس
من عسكره أن يرجع من حيث جاء ، حتى لا يبقى منهم أحد
بالجزيرة طفل فمن فوقه ، ثم تتفق أنت وملوك الجزيرة على
حراسة هذا البحر من سفينة تجرى فيه له ، ثم بعد ذلك
تستحلفه بأغلظ الأيمان ألا يضم في نفسه عوداً الى هذه الجزيرة
الا باتفاق منكم ومنه ، وتأخذ منه على ذلك رهائن فانه يعطيك
من ذلك ما تشاء ، فنفسه أعز عليه من جميع ما يثلمس منه ،
فعند ذلك يقتنع هذا الرجل ببلاده التي لا تصلح الا له ،
وتكون قد سترحت منه بعد ما سترحت من الأذفونش ، وتقيم
في موضعك على خير حال ، ويرتفع ذكرك عند ملوك الجزيرة .
ويتسع ملكك . وينسب هذا لاتفاق لك الى سعادة وحزم ،
وتهابك الملوك ، ثم اعلم بعد هذا ما يقتضيه حزمك في مجاورة
من عاملته هذه المعاملة ، واعلم أنه قد تهيأ لك من هذا أمر
سماوى تتفانى الأمم ، وتجري بحار الدم دون حصول مثله » .
وقد راق هذا الكلام المعتمد ، واستصوبه ، فقد رأى من
بادىء الأمر في سلوك يوسف ما يبعث على الريبة ، وينفى
الضمانية ، ولذلك لم يقاطع الرجل في أثناء حديثه ، ولم ينهره .

وتركه يقول ما عنده ، ولما انتهى الرجل الى هذا الحد من الحديث انبرى له أحد الندماء الذين كانوا ينهمكون مع المعتمد في لذاته ، ويتقلبون في نعمته ، فقال للرجل : « ما كان المعتمد على الله - وهو امام أهل المكرمات - ممن يعامل بالحيف ، ويغدر بالضيف » .

فقال الرجل : « انسا الغدر أخذ الحق من يد صاحبه ، لا دفع الرجل عن نفسه المحذور اذا ضاق به » .

فأجابه النديم : « ضيم مع وفاء خير من حزم مع جفاء » .
وشعر الرجل من سكوت المعتمد ، وامتناعه عن ابداء الرأي بالقبول أو الرفض بأن هناك ما يستوجب التحفظ ومجانبة الصراحة ، فاستدرك الأمر وتلافاه ، وشكر له المعتمد ووصله بصلة .

وانصل الأمر بيوسف من أحد عيونه . فلم يتلبث في اشبيلية ، وتصدر الرحيل ، وقدم له المعتمد الهدايا الثمينة والتحف الفاخرة ، ومشى معه يوما وليلة حتى عزه عليه يوسف في الرجوع ، وكانت جراحاته تشب ، وتورم كظم رأسه ، فرجع ، وأمر ابنه بالمسير بين يدي يوسف أي فريضة المجاز حتى يعبر البحر الى بلاده .

ولما عاد المعتمد الى اشبيلية جلس يستقبل وفود المهنيين ، وأقبل عليه شعراء بلاطه ينشدونه القصائد التي أعدوها لتهنئته ، والاشادة بموقفه والتنويه ببسالته :

وقد هنأه ابن حمديس بقصيدة يقول فيها :

ليهنىء بنى الاسلام أن أبت سالما
وغادرت أنف الكفر بالذل راغما
كشفت كروبا عن قلوب كأنما
وضعت عليها من هوائك خواتما
صبرت لحر الطعن والضرب ذائدا
عن الدين واستصغرت فيه العظاما
رحمناك من وقع الصوارم واللقنا
فكان لنا فى حفظك الله راحما
وكم شجة فى حر وجهك لم يزل
لك الحسن منها بالشجاعة واسما
ويشير الى يوسف ورجال المرابطين بقوله :
نقمت على من آسفوك بيوسف
وما زلت ممن خالف الحق ناقما
وآذنت عمار القفار بحربهم
فياقرب ما شقوا اليك الخضارما
بنو الحرب غدتهم لبان تديها
ولم يستطيعوا منه الا العلاقما
يحشون للهيجاء جردا سلاها
وينضون فى البيداء بزلا صلاهما
اذا طعنوا بالسهمرية خلتهم
ضراغم تغرى بالقلوب أراقما

وان كر منهم ذو لثام مصمم
غدا لقم الهيجاء بالسيف لاثما
ويقول في ختام قصيدته في مدح بنى عباد :
حلمتم مراجيحنا ، وجدتم أكارما
وسدتم بها ليلا وصلتم ضراغما
سكنتم قلوب العارفين محبة
كما سكن الزهر الزكى كسائما
نذرت نذورا فاقتضاني قضاءها
ايابك من يوم العروبة سالما
وما وجدت الوفر أعوز راحتي
سجدت لربى ثم أصبحت صائما
وفي موقف المعتمد يوم الزلافة يقول الشاعر محمد بن عبادة
المعروف بابن الفزاز :

جلبت الى الأعادى أسد غاب
برائنها الأسنة وانصفاح
وقفت وموقف الهيجاء ضنك
وفيه لباعك الرحب انفساح
والسنة الأسنة قائلات
إذا ظهر المؤيد لا برح

وقالوا كفه جرحت فقلنا :
أعاديهِ توافقها لجراح

وما أثر الجراحة ما رأيتم
فتوهنها المناصل والرماح
ولكن فاض سيل البأس منها
ففيها في مجاريه انسياح
وقد صحت وسحت بالأمانى
وفاض الجود منها والسماح
رأى منه أبو يعقوب فيها
عقابا لا يثاؤ له جناح
فقال له لك القدح الملقى
إذا ضربت بمشهدك القداح
وفي يوم الزلافة يقول عبد الجليل بن وهبون ، ويشير الى
يوسف وحسن بلائه ، وما أظهر المعتمد من اخلاص وولاء ، في
قصيدة مطلعها :

أظن خطوبها قالت سلام
فلم يعبس لها منك ابتسام
ومنها :

فثار الى الطعان حليف صدق
تشور به الحفيظة والذمام
نما في حمير ونمتك لخم
وتلك وشائج فيها التحام
نهجن لسيله نهجا فوافي
وفي آذيه الطامى عرام

مهمل به كتيب الكفر هिला
وكل رقيقة منها ركام
وأصبح فوق ظهر الأرض أرضا
كأن وهادها منه أكام
عديد لا يشارفه حساب
ولا يحوى جماعته زمام
تألفت الوحوش عليه شتى
فما تقص الشراب ولا الطعام
فان ينج اللئيم فلا كحر
ولكن مثلما تنجو اللئام
ويختمها بقوله مادحا المعتد :

وأنت النعمة البيضاء فاسلم
لنا وليطرد فيك التمام
ويتحدث الفتح في القلائد عن موقف المعتمد يوم الزلافة
بقوله : « وكان للمعتمد رحمه الله فيه ظهور وغناء مشهور ،
جلا متكاثف عجابه ، وجلا الروم عن غيظانه وفجابه بعد ما
لقى حره ، وسقى أمره ، وكلم العدو يده ، وثلم عدده ،
وتخاذل فيه رؤساء الأندلس فلم يعمل لهم فيه سنان ، ولم
يكحل جفونهم من قتامة عُنَّان ، والمعتمد يلقى أسنتهم بلبانه
وتثنى الذوايل ولا ينثنى من عنانه » .
ورجع يوسف الى المغرب ، وفي نفسه أشياء كثيرة من ملوك
الأندلس وأحوالها ، وغير عجيب أن يكون قد أدهشه ما شاهد

فيها من مظاهر الترف ، ودلائل الاسراف ، والانطلاق وراء
المتع ، ولكنه كان في أثناء وجوده بها يخفى مشاعره ، ويظهر
التأفف من الإقامة بجزيرة الأندلس ، ويتشوق الى مراكش ،
ويصغر قدر الأندلس ، ويردد في أكثر أوقاته قوله : « كان أمر
هذه الجزيرة عندنا عظيما قبل أن نراها ، فلما رأيناها وقعت
دون الوصف » . وهو في ذلك كله على حد تعبير المراكشي :
« يشر حسوا في ارتغاء » .

وقد فقد ألفونسو في معركة الزلاقة زهرة جنده ، وعددا
من خيرة رجاله وقواده ، وتخلص أمراء الأندلس من دفع الجزية
له وهي التي كانت تثقل على خزائنها وتستذل نفوسهم ،
وتشعرهم بالهوان والضعفة ، وقد ترك يوسف بعض جنوده في
حصون غرب الأندلس ، ولذلك أصبح الغرب بمنجاة من غارات
ألفونسو التخريبية ، وعم السرور بلاد الأندلس بهذا النصر
الباهر ، واسترد الأندلسيون بعض الثقة بأنفسهم ، وأعجبوا
أشد الإعجاب ببسالة يوسف وصلاحه وتقواه وزهده وترفعه ،
فانه ^(١) لما جمعت غنائم معركة الزلاقة عفا عنها يوسف ، وآثر
بها ملوك الأندلس . وعرفهم أن مقصوده انما كان الغزو لا
النهب . ولما رأى ملوك الأندلس منه ذلك استكرموه وأحبوه
وشكروا له ، وأظهر أهل الأندلس التيمن بيوسف والتبرك به ،
وكثر الدعاء له في المساجد وعلى المنابر ، ونشأ له الود في قلوب
الأندلسيين ، وبخاصة بين الطبقة الفقيرة الكادحة .

(١) وفيات الأعيان الجزء السادس صفحة ١١٦ .

ورغم استيلاء يوسف على جزيرة الخضراء واختلافه في
الرأى مع المعتمد في أعقاب الانتصار في معركة الزلاقة ورفضه
متابعة فلول الجيش المنهزم ، فإن يوسف قد حرص على ألا تبدر
منه بادرة تسوء أحداً من ملوك الطوائف أو تثير الشبهة في
موقفه منهم وتبعث على سوء الظن به ، وقد حرص بوجه خاص
على اظهار الود والاعظام والاجلال للمعتمد بن عباد : وكان لا
يتردد في التصريح بقوله عن ابن عباد ^(١) : « إنما نحن في ضيافة
هذا الرجل وتحت امرته ، وواقفون عند ما يحده » . ولم يحدث
بعد ارتحال يوسف ما يكدر صفو العلاقات بينهما ، ومن المحتمل
أنهما كانا يتبادلان الرسائل الودية ، ذكر أبو الوليد نشقندي
في رسالته عن فضائل أهل الأندلس أن المعتمد كتب الى يوسف
بعد انصرافه الى حضرة ملكه رسالة تمثل فيها بقول ابن زيدون :

بنتم وبننا فسا بتلت جوانحنا

شوقا نيكم ولا جفت مآقينا

حالت لفقدكم أيامنا فعدت

سودا وكانت بكم بيضا ليالينا

فلما قرىء هذان البيتان على يوسف قال للقارىء : « يطلب
منا جوارى سوداً وبيضاً » فقال له القارىء : « لا يامولانا ، ما
أراد إلا أن ليله كان بقرب أمير المسلمين نهاراً ، لأن ليالى لسرور
بيض ، فعاد نهاره ببعده ليلاً ، لأن ليالى الحزن ليال سود » .

(١) المعجب للمراكشي صفحة ١٢٥ .

فقال يوسف : « والله جيد ، اكتب له في جوابه : ان دموعنا
تجری عليه ، ورؤوسنا توجعنا بعده » . وليس من المستبعد أن
تكون قد تبودلت بينهما رسائل أهم وأبلغ من هذه الرسالة
التي رأى يوسف أن يعبر فيها عن شوقه لرؤية المعتمد بهذا
الايجاز الساذج .

خاتمة ملوك الطوائف

أرغم دخول المرابطين شبه الجزيرة الاسبانية القشتاليين على الانسحاب من بلنسية ، وكانوا أصحاب السلطة الحقيقية فيها ، واضطروهم كذلك الى رفع الحصار عن سرقسطة ، وهزيمة ألفونسو في الزلاقة كلفته فقدان عدد من الجنود ربما قارب العشرين ألفا ، وأراح الأمراء من دفع الجزية السنوية ، وقد ترك يوسف حاميات من جنده في حصون الأندلس الغربية فأمن أهل غرب الأندلس هجمات جيوش ألفونسو عليهم ، وقدر الأندلسيون هذه الفوائد الملموسة ، وحمدوا الله لارساله يوسف لخلاصهم في ساعة استفحال الخطر وشد الكرب ، وأصبح اسم يوسف على كل لسان ، وكان لاقتصار يوسف في الزلاقة صدى مدو في جميع أنحاء العالم الاسلامي ، وأعجب رجال الدين بوجه خاص بتقوى يوسف وتقشفه وميله الى احترام رأى رجال الدين ، واكبار منزلتهم ، والعمل على استشارتهم ، واستماع نصائحهم ، وقد شجعهم ما عرفوه عن حرصه على النزول على رأى علماء الدين على أن يكونوا صرحاء معه ، فقد روى أنه طلب من أهل الأندلس المعونة على ما هو بصدده من مدافعة الاسبانيين ، ووصل كتاب منه بهذا المعنى الى المرية ، وذكر هذا الكتاب أن جماعة من العلماء

أفتوه بجواز طلب ذلك اقتداءً بعمر بن الخطاب ، فكلف أهل
المرية قاضيهم أبا عبد الله بن الفراء أن يكتب جوابه ، وكان هذا
القاضي قد اشتهر بالدين والورع ، فكتب الى يوسف ^(١) :
« أما بعد فما ذكره أمير المسلمين من اقتضاء المعونة ، وتأخرى
عن ذلك ، وأن أبا الوليد الباجي وجب جميع القضاة والفقهاء
بالعدوة والأندلس أفتوا بأن عمر بن الخطاب رضى الله عنه
اقتضاها ، وكان صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم
وضحيه في قبره ، ولا يشك في عدله ، فليس أمير المؤمنين
بصاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا بضحيه في
قبره ، ولا من لا يشك في عدله . فإن كان الفقهاء والقضاة أنزلوك
بمنزلته في العدل فالله سائلهم عن تقلدهم فيك ، وما اقتضاها
عمر حتى دخل مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وحلف أن
ليس عنده درهم واحد في بيت للمسلمين ينفقه عليهم ، فلتدخل
المسجد الجامع هناك بحضرة أهل العلم ، وتحلف أن ليس عندك
درهم واحد ، ولا في بيت المسلمين ، وحينئذ تستوجب ذلك
والسلام » . وأكبر الظن أن رجال الدين في ذلك العصر
المضطرب الذي اختلف فيه لمعايير معروف بعهد ملوك الطوائف
لم يكن في وسعهم الاجترار على ملوكهم بمثل هذه المجابهة
العنيفة ، ولكنهم أحبوا يوسف ووجدوا في حياته المثال الذي
يحسن بملوكهم اتباعه ، فلم يقف في طريقهم مانع عن اسدائه
النصح خالصا ، وبيان وجهة نظرهم دون تخرج أو خوف .

(١) الجزء السادس من وفيات الاعيان صفحة ١١٨ .

وكان ألفونسو رجلاً قوى الشكيمة ، ناهض العزم ، لا تلين قناته للشدائد والهزائم ، فبرغم الخسارة الفادحة التي منى بها لم يعتقد أنه خسر كل شيء ، ولم يستول عليه ليأس من استرجاع ما فقد ، فأخذ في ترميم بناء جيشه وإعادة تنظيمه . ولم يكن الالتصاف في الزلافة على لمعانه وجلالة شأنه تنصراً حاسماً ، وأبى القشتاليون على الأقل أن ينظروا إليه من هذه الناحية ، ورأوا أنهم لا يستطيعون في أحولهم الرهنة حينذاك أن يهاجموا بطليوس أو شيلية ، لأن الهجوم على نواحي الغربية من الأندلس لم يكن اذ ذاك مأمون لعواقب ، فوجهوا هجومهم على نواحي الشرقية ، وكانت على الدوام تضعف وأكثر تعرضاً للهجوم من النواحي الغربية ، وكان القشتاليون يمتلكون في الشرق حصن لبيط ، وهو حصن أشب يعز على من رامه ويطول في موضع هام من الناحية الحربية بين مرسية ولورقة ، وكان القشتاليون يشنون منه الغارات المتوالية على النواحي المجاورة . ويوقعون الرعب في قلوب أهلها ، وقد استطاعوا وهم مستندون الى هذا الحصن محاصرة المرسية ولورقة ومرسية ، ولولا ما اتخذ من اجراءات سريعة للدفاع عن هذه المدن لسقطت جميعها في أيديهم .

وكان المعتمد يعرف شدة الخطر الذي يتهدد هذه المدن الشرقية ، وأكثرها في حوزته ، وكان يمقت ابن رشيق الذي استولى على مرسية بعد أن خرج منها ابن عمار ، ولذلك أعد المعتمد حملة كبيرة لرد غارة القشتاليين من ناحية ، واخضاع

ابن رشيق من ناحية أخرى ، وضم الى جنده الجند الذين أعاره
اياهم يوسف قبل ارتحاله من الأندلس .

وخرج المعتمد من اشبيلية قاصدا لورقة ، وأراد أن يعهد
الى ابنه الراضى بالخروج فى عسكر جرده لمواجهة جيش العدو
الذى جاء قاصدا مهاجمة لورقة ، فأظهر الراضى التمارض وكان
محباً للاطلاع والدرس ، ميالا للأدب والشعر مثل أبيه ، فغضب
المعتمد لتقاعده عن مقاساة الحرب فأعرض عنه وأهمل شأنه ،
ووجّه ابنه المعتدّ على رأس ذلك الجيش ، وعندما التقى
الجيشان واشتبكا فى القتال لم يثبت لأندلسيون بالرغم من أن
عددهم كان أضعاف عدد القشتاليين ، ولاذوا بالفرار ، وغضب
المعتمد غضبا شديدا لهذه الهزيمة الشنعاء التى منى بها جيشه ،
ولم يغن الغضب عنه شيئا ، وكما عجز جيشه عن الوقوف
للجيش القشتالى القادم على لورقة كذلك لم يتمكن من أخذ
مرسية وخلع ابن رشيق الخارج عليه من ولايتها ، وعاد أدراجه
الى اشبيلية دون أن يظفر بشيء ، وأراد ابنه الراضى أن يهون
عليه الخطب ويسترضيه فأرسل اليه الأبيات الآتية :

لا يكرثنك خطب الحادث الجدى

فما عليك بذاك الخطب من عار

ماذا على ضيغم أمضى عزيمته

ان خانه حد أنياب وأظفار

لئن أتوك فمن جبن ومن خور

قد ينهض العير نحو الضيغم الضارى

عليك للناس أن تبقى لنصرتهم
 وما عليك لهم اسعاد اقدار
 لو يعلم الناس ما في أن تدوم لهم
 بكوا لأنك من ثوب الصبا عار
 ولو أطاقوا اتقاصا من حياتهم
 لم يتحفوك بشيء غير أعمار
 ولكن المعتمد كان لا يزال غاضبا عليه لتقاعده عن اطاعة
 أمره والخروج لمحاربة العدو وإيثاره المطالعة على المقارعة ،
 وتنادى في اعراضه عنه حتى عطفه عليه الحنو الأبوى فكتب اليه
 هازلا ساخرا :

الملك في طي الدفاتر فتخل عن قود العساكر
 طف بالسرير مسلما وارجع لتوديع المنابر
 وازحف الى جيش المعاد رف تقهر الحبر المغامر
 واطعن بأطراف الير اع - نصرت - في ثغر المحابر
 واضرب بسكين الدوا ة مكان ماضى الحد باثر
 أو لست رسطاليس ان ذكر الفلاسفة الأكابر
 وكذاك ان ذكر الخليل فأنت نحوى وشاعر
 وأبو حنيفة ساقط في الرأي حين تكون حاضر
 من هرمس من سيبويه من ابن فورك^(١) ان تناظر
 هذى المكارم قد حويت فكن لمن حاباك شاكر

(١) هو محمد بن الحسن بن فورك واعظ عالم بالكلام والاصول من فقهاء
 الشافعية حدث بنيسابور وبنى فيها مدرسة وله تأليف كثيرة .

واقعد فانك طاعم
فحجبت وجه رضاي عن
أو است تذكر وقت لو
لا يستقر مكانه
هلا اقتديت بفعله
قد كان أبصر بالعوا
كأس وقل : هل من مفاخر
ك وكنت قد تلقاه ساهر
رقة وقلبك ثم طائر
وأبوك كالضرغام خادر
وأطعته اذ ذاك آمر
قب والموارد والمصادر

وقد جرى المعتمد في نظم هذه الأبيات على طريقته في
الاستعانة على مغالبة غضبه بالسخرية اللاذعة ، وقد أثرت هذه
الأبيات في الراضى ، ودفعته الى أن يجيب عنها بقوله :

مولاي قد أصبحت كافر
وفلت سكين الدوا
وعلمت أن الملك ما
والمجد والعلواء في
لا ضرب أقوال بأقـ وال ضعيفات المكاسر
قد كنت أحسب من سفا
فاذا بها فرع لها
لا يدرك الشرف الفتى
وهجرت من سميتهم
مولاي ان تسخر فلا
بجميع ما تحوى الدفاتر
ة وظلت للأقلام كاسر
بين الأسنة والبواتر
ضرب العساكر بالعساكر
ه أنها أصل المفاخر
والجهل للانسان غادر
الا بعسال وبأثر
وجحدت أنهم أكابر
عار بنا ان كنت ساخر

ضحك الموالي بالعبـ اذا تؤمل غير ضائر
لو كنت تهوى ميتتى لو جدتنى للعيش هاجر
ان كان بى فضل فمنـ ك وهل لذك النور سائر

أو كان بى نقص فنى —ى غير أن الفضل غامر
ذكرت عبدك ساعة يبقى لهما ما عاش ذاكر
يا ليتته قد غيبته عندها احدى المقابر
أتريد منى أن أكو ن كس غدا فى الدهر نادر
هيئات ذلك مطمع يعبى لأوئى والأواخر
لا تنس يا مولاي قولة ضارع لا قول فاخر
ضبط الجزيرة عندما نزلت بعقوتها العساكر
أيام ضلت بها قريب —د نيس غير لله ناصر
ذ كان يغشى ناظرى لمع لأسنة والبواتر
ويصم أسعاعى بها قرع الحجارة بالحوافر
وهى الخضيض سهولة لكن بها ثبت مخاطر
هبنى أسأت كما أسأت ما لهذا العتب آخر
هب زلتى لبنوتى واغفر فان لله غافر

وقد أحسن الراضى فى هذه القصيدة الاعتذار عن خطئه ،
فطابت نفس المعتمد ، وصفح عنه وقربه وأدناه بعد هذا الدرس
الحكيم الذى قوم به اعوجاجه ، ورد اليه صوابه .

وكان معنى هزيمة جيش المعتمد وتمادى القشتاليين فى شن
الغارات المتوالية من حصن لبيط ، أنه حتى بعد الانتصار الرائع
فى الزلاقة ، وجد الأندلسيون أنفسهم عاجزين عن مدافعة
لقشتاليين ، وأنهم اذا لم ينجدهم يوسف ، ويخف الى مساعدتهم
فان لموقف يصبح كسا كان قبل وقعة الزلاقة وتأخذ أحوالهم فى
البوار ، وتصير قضيتهم خاسرة وموقفهم باعثا على اليأس .

وقدر أهل بلنسية ولورقة ومرسية حروجة الموقف ، وكثرت
شكواهم من غارات حامية لبيط ، وكان الفقهاء في طليعة
الشاكين المتذمرين ، واجتمعت الآراء على أن خلاصهم مما
يعانون مرتهن بيد يوسف ، وذهب كثيرون منهم الى قصره في
مراكش ، وأخذوا يثوونه شكواهم وآلامهم ، ويستثيرون حميته
للدفاع عن الدين ، ولكنهم تبنوا من معاريض حديثه ، أنه لم
يعد العدة للعودة الى الجهاد في الأندلس الا اذا استدعاه
الأمراء .

وكان المعتمد قد بدأ يشعر من جديد بحاجته الشديدة الى
الاستعانة بيوسف ، وهذا الشعور صرف عنه الارتياح الذي
كان قد داخله من ناحيته ، فعقد العزم على الذهاب الى يوسف
ليوضح له حقيقة الحال ، ويتبادل معه وجهات النظر ، وتحرك
المعتمد في خاصته وعبر البحر الى يوسف ، فتلقاه يوسف
بالداخلة على وادي سبيو بالترحيب و لا كراء وقال له : « ما
السبب الذي دعاك الى الجونة ايننا وهلا كتبت » . فقال له
المعتمد : « جئتك احتساباً و جهاداً و عتصاماً للدين ، وقد
أجرى الله الخير على يديك ، وحظك مما جئت الأوفر ، وقد
اشتد ضرر النصارى على حصن لبيط وعظم أذاه للمسلمين
لتوسطه في بلادهم ، ولا جهاد أعظم منه أجرا ولا أثقل في
الميزان » .

وأفضى اليه المعتمد بسوء الحالة في الأندلس ، وتعرض مدنها
الشرقية للغارات الشعواء ، وانه اذا عاونهم في الاستيلاء على

حصن لبيط المنيع ، فسيكون قد أقتنهم من شر مستطير ، وأدى
للاسلام أجل خدمة ، وأتم جميله على أهل الأندلس ، وأنه قد
تولى اتقاذهم في المرة الأولى ، وانهم يتطلعون الى اتقاذه لهم
في هذه المرة كذلك استكمالا لاتتصاره في معركة الزلاقة .

وعنى يوسف بما سعه من المعتمد ، وتلقى مقصده بالقبول ،
ووعده بالحركة والجواز وأكد له ذلك . وعاد المعتمد الى
حاضرتة اشبيلية . وتقدم الى كل طبقة من أهل مملكته
بالاستعداد . وأكثر من أعمال السهام والعرادات وما نى ذلك
من الآلات اللازمة للحرب والحصار ومهاجمة الحصون و تقلاع ،
ثم أخذ يتصوف على مملكته ويطالع أحوال عسالة ورعيته
وتوجه الى شرقى الأندلس ، فلما دانى أول بلاد المعتصم بن
صمادح صاحب لمرية (١) خرج اليه المعتصم في وجوه أصحابه ،
وتلقاه لقاءً نبيلًا ، وعزم عليه ليدخلن بلادده ، فأبى المعتمد
ذلك وبعد طول المراودة اتفقا على أن يجتسعا في أول حدود بلاد
المعتصم وآخر حدود بلاد المعتمد وكان بينهما خلاف قديم
ومنافسة سابقة ، فاصطلحا في الظاهر واحتفل المعتصم في اكرامه ،
وأظهر من الآلات السلطانية والذخائر الملوكية المعدة لمجالس
الأنس ما ظنه مكمدًا للمعتمد مشيرًا لغمه ، وكانت ولاية المعتصم
ضيقة الرقعة قليلة الجباية ، ولذلك كان قديم الحسد للمعتمد ،
كثير النفاسة عليه ، وجرت بينهما في بعض الأوقات مراسلات غير
ودية ، وكان المعتصم يعيب المعتمد في مجالسه وينال منه ،

(١) العجب للمراكشي صفحة ١٢٦ .

والمعتمد يترفع عن ذلك ولا يقابله بالمثل ، وقد رأى المعتمد أن يتجاوز عن ذلك كله ويتناساه ، واعتقد أنه بهذه الزيارة يستخلص مودته ويكسب صداقته ، وقد افترقا بعد أن أقام المعتمد في ضيافته ثلاثة أسابيع ، ورجع الى بلاده وهو يعتقد أن ما بينه وبين المعتصم قد أصبح عامراً .

ولما أتم يوسف أهبته عبر المضيق ، ونزل بالجزيرة الخضراء وتلقاه المعتمد على عادته ، وأنفذ يوسف كتبه الى ملوك الأندلس يستدعيهم للجهاد معه والموعد حصن ليظ ، واجتاز على مالقة واستنفر صاحبها المستنصر بالله تميم بن بلقين ، وتلاحق به عبد الله بن بلقين صاحب غرناطة ، وتوافى رؤساء الأندلس من شقورة وجيان وغيرهما من مدن الأندلس ، ولقيه المعتصم بن صسادح بهدايا فاخرة وتحف جليلة ، وتلطف في خدمته وبالف في التودد اليه حتى قرَّبه يوسف أشد تقرب ، وصار يقول لأصحابه عن المعتصم والمعتمد : « هذان رجلا الجزيرة » . وكان من أكبر أسباب تقرب يوسف للمعتصم ثناء المعتمد عليه عند يوسف ووصفه اياه عنده بكل فضل .

وحاصرت الجيوش المتحالفة حصن ليظ ، واتصلت الحرب على الحصن ليلا ونهاراً ، وكان عدد المدافعين عن الحصن ألف فارس واثنى عشر ألفا من المشاة ، ومع ذلك لم تنجح الجيوش المتحالفة في الاستيلاء عليه بالرغم مما بذلت من جهد وأعدت من آلات للحصار . وكانت حامية الحصن تنقض عليهم من الحين الى الحين فتكبدتهم خسائر فادحة ، وبأيت الحصن مناعته ، ورأى

المتحالفون أنه لا أمل في اقتحامه بالهجوم العاصف ، وأن ليس في طوقهم سوى احكام الحصار وتجويع الحامية .

وكان الملوك والأمراء المحاصرون قد اشتغلوا في أثناء ذلك بما بينهم من خلافات وأصبح معسكرهم وكرا للدسائس وتدير المؤامرات ، وكشفوا ليوسف عن جوانب من أخلاقهم جعلته يستصغر شأنهم ويشك في امكان التوفيق بينهم ، وكان ممن وصل من رؤساء الأندلس ابن رشيق المستولى على مرسية ، والثائر بها على المعتمد ، والظاهر أن المعتمد حاول تسوية خلافه مع ابن رشيق الذي استبد بالأمر في مرسية بعد خروج ابن عمار منها ولم يعترف بتبعيةها للمعتمد ، ولكن لم يتم التفاهم بينهما ، وكانت حجة ابن رشيق أن المعتمد لم يقدمه لمرسية وأن الذي قدمه ابن عمار ، واضطر المعتمد الى أن يشكو ابن رشيق الى يوسف ، وذكر له اعتدائه عليه وأنه دفع جباية مرسية للطاغية ألفونسو ، فعرض يوسف أمرهما على الفقهاء واستفتاهم في هذا الخلاف ، فجاء حكم الفقهاء مؤيدا لوجهة نظر المعتمد ، فأمر يوسف بالقبض على ابن رشيق وتسليمه للمعتمد بوصفه ثائرا على أميره ، ولكن يوسف في الوقت نفسه نهى ابن عباد عن قتله ، وأعمل ابن رشيق الحيلة ، وهرب من قبضة المعتمد ، واقتذى بمرسية ، ومنع الميرة عن الجيش المحاصر وغضب له أنصاره وشيعته فتخلوا عن موقفهم من الحصار المضروب حول الحصن ونكصوا على أعقابهم .

وكانت العلاقات بين المعتمد وابن صمادح صاحب المرية قد

تحسنت قبل قدوم يوسف الى الأندلس ، واطمأن اليه المعتمد ووثق به ، ولكن ابن صمادح عاوده حسده القديم للمعتمد وحقده عليه ، فلما اشتد تمكنه من يوسف ورأى عظيم مكائده عنده بدا له أن يغير قلبه على المعتمد ، وأن يفسد ما بينهما ، وجعل يقرر عنده عجب المعتمد بنفسه ، وفرط كبريائه ، وأنه لا يرى أحدا نظيرا له .

ولم يكن المعتمد يعلم شيئا من ذلك ، وكان يصارح المعتصم بما في نفسه حينما يخلو أحدهما الى الآخر ، فلما قال المعتصم يوما للمعتمد : « لقد طالت اقامة هذا الرجل بالجزيرة » - يقصد يوسف - أجابه المعتمد قائلا : « لو عوجت له اصبعي ما أقام بها ليلة واحدة لا هو ولا أصحابه ، وكأنك تخاف غائلته ... وأى شيء هذا المسكين وأصحابه ؟ انما هم قوم كانوا في بلادهم في جهد من العيش ، وغلاء من السعر ، جئنا بهم الى هذه البلاد نطعمهم حسبةً وائتجاراً ، فاذا شبعوا أخرجناهم عنها الى بلادهم ! » ... الى أمثال هذا الكلام ، وقد أوغر ذلك صدر يوسف ، ولم يدر المعتصم بذلك أنه : « ساقط في البئر الذي حفر » . كما يقول المراكشي^(١) .

وجعل أمراء الأندلس يوسف حكما في خلافاتهم ، وكان كل واحد منهم يكيل التهم للآخر ، ويقول الأمير عبد الله وهو يتحدث عن حضور يوسف للأندلس في هذه المرة^(٢) « وكانت

(١) المعجب صفحة ١٣٧ .

(٢) مذكرات الأمير عبد الله صفحة ١٠٩ .

تلك سمره اخرج الله فيها أضغان سلاطين الأندلس . وتقدم ليوسف الأمير تميم بن بلقين صاحب مالقة أخو الأمير عبد الله صاحب غرناطة بالشكوى من أخيه ، وأخذ قاضى غرناطة أبو جعفر بن القليعى يكثر من الوقوع فى الأمير عبد الله عند يوسف حتى ساء به ظنه وشك فى ولائه .

واقتنع يوسف فى خلال ذلك بأنه لا يتأتى أخذ الحصن الا بالمطولة ، وأقبل الشتاء ووجد الحلفاء المحاصرون للحصن أنهم فى ضيق وعناء كما استصرخ أهل الحصن سلطانهم ، فأخذ فى الاستعداد وحشد الجيوش ، وبلغ ذلك يوسف ، فرأى التوسعة عن الحصن والتأهب للقاء جموع ألفونسو وانتوى أن يستلحم لها ، ولكنه غير رأيه ، وأغلب الظن أن سبب ذلك كان شكه فى اخلاص الأندلسيين ، وخوفه من أن يغدروا به أو ينهزموا عنه حينما يشتبك جيشه فى المعركة مع جيش ألفونسو ، ولعله قدر كذلك أنه اذا تقدم للقاء ألفونسو فانه قد يقع فى الكماشة بين الجيش المهاجم والحامية المحصورة فى حصن لبيط ، وظهر ليوسف من ناحية أخرى أن غرض ألفونسو هو اخلاء الحصن واخراج من فيه واتخاذ حاميته ، ولذلك رأى أن الأسلم عاقبة هو الانسحاب الى لورقة ، وهكذا ألقوا حصن لبيط .

ورأى ألفونسو أن هذا الحصن على مناعته واقع فى بلاد المسلمين ، وأن الدفاع عنه غير ميسور دون حامية كبيرة ، وأن هذه الحامية معرضة للمحصار وقطع المؤونة عنها ، لذلك أثر

اخلاءه ، بعد هدم أسواره ، وعاد الى طليطلة حاملا الأسلاب والغنائم .

وقد تحقق الغرض الذى جاء من أجله يوسف الى الأندلس فى هذه المرة ، وأصبح حصن لبيط فى أيدي المسلمين ، ولكن بطريقة غير مشرفة ، واحجام يوسف عن مواجهة جيش ألفونسو ، كان يحمل فى طيه معنى من معانى الهرب ، ولكن غالبية أهل الأندلس الذين أشرب قلوبهم حب يوسف لم يقبلوا أن ينظروا الى الموضوع من هذه الزاوية .

وكان رجال الدين ناقلين على الأمراء وبطاناتهم لاقبالهم على المتع ، وانغماسهم فى الشهوات ، وتبذيرهم واهمالهم الاستماع الى مواعظهم ، كانوا ينقمون عليهم فرط عنايتهم بابتناء القصور الفخمة ، واقتناء الجوارى الحسان ، وشرب الخمر والاتفاق على الشعراء الذين يشيدون بمحاسنهم ويذيعون مفاخرهم ، والتفريط فى واجباتهم الملوكية باعتبارهم مسئولين عن رعيتهم ، وتوفير وسائل الأمن والرخاء لها ، ومصادقتهم فى أكثر الأحيان لملوك النصارى الساعين فى هدمهم واستلاب ملكهم ، على حين كان يوسف لا يقطع فى أمر دون استشارة الفقهاء ، والأخذ بأرائهم ، والعمل بنصائحهم .

وكانت طبقة العمال والمزارعين وسائر أصحاب الدخول المحدودة ناقمة على الحالة غير مستريحة لسلوك الأمراء ، ولكنها كانت قبل قدوم يوسف لا تنزع الى الثورة ، لأن العدو كان يرقب ، والثورة فى مثل هذه الحالة تزيد الأمر سوءا ، ولا تؤمن

عواقبها بحال ، فلما جاء يوسف الى الأندلس وجدوا فيه « المخلص » الجديد ، ولم يفكروا في أن مجيء أمير البربر الى الأندلس قد يعرض بلادهم للهزات الكثيرة الحدوث بالمغرب وأن جنوده غير المطبوعة على النظام قد تشيع الفوضى في بلادهم ، وأنهم سيصبحون خاضعين للبربر الذين كانوا يكرهونهم ويتعالون عليهم ، وشعر رجال الدين أن يوسف ميال الى خلع الأمراء ، وأنه لذلك أعارهم سمعه ، وفتح لهم صدره ، وشجعهم بذلك على المجاهرة بنقد الأمراء ، وتقديم الشكاوى التى تفضح أساليبهم ، وتظهرهم فى عينه بمظهر الطغاة المفسدين ، وأخذوا يغذون مطامع يوسف ، ويؤكدون له أن الدين يأمره بذلك ، ولكى تزول وساوسه قدموا له فتوى تجيز له خلعهم ، وأحلثوه من سابق تعهده للأمراء بالابقاء عليهم ، وصيانة ملكهم ، والمحافظة على عروشهم ، ووجد رجال الدين أنهم قد تورطوا مع يوسف الى أقصى حد ، وأن الأمراء الذين كانوا يعرفون مداخلتهم ليوسف واغراءه بهم لن يتوانوا عن الانتقام منهم اذا تخلى عنهم يوسف ، فازدادوا به تعلقا ، ولم يتركوا فرصة تمر دون اقناعه بضرورة القضاء على الأمراء .

وغلب على أفراد الشعب الاعتقاد بأن يوسف سيلقى الضرائب التى أثقل الأمراء بها كاهلهم اذا تم له الأمر وقضى على نفوذ الأمراء وأزال دولتهم ، وقد ألغى يوسف الضرائب فى بلاده ، فكيف لا يعمل مثل ذلك فى بلاد الأندلس ؟ .

وكان قضاة الأندلس وفقهاؤها قد قدموا ليوسف طلبا

ذكروا فيه أن من واجبه أن يأمر أمراء الأندلس بالخضوع لأحكام الدين ، وأن يكفوا عن فرض ضرائب أخرى جديدة ، وتسليح يوسف بهذا الطلب ، واعتمد على فتوى العلماء ، وأمر الأمراء بالغاء الضرائب التي يفرضونها على رعيتهم .

ورجع يوسف الى مراكش : « وفي نفسه من أمر الجزيرة المقيم المقعد » . كما يقول المراكشي^(١) ، ويسمى المؤرخون مجيئه الى الأندلس في هذه المرة بالجواز الثاني وكان ذلك في سنة ٤٩١ هجرية ، وقد كان يوسف في المرة الأولى يتظاهر بأنه جاء غازيا في سبيل الله ، وأنه زاعد في الأندلس وليس له فيها مطمع آخر ، وأنها خبيت ظنه لأنه رآها دون ما كان يتوقع ، ولكنه في هذه المرة اتجهت أفكاره اتجاهها آخر وقال لبعض ثقاته من وجوه أصحابه : « كنت أظن أنى قد ملكت شيئا ، فلما رأيت تلك البلاد صغرت في عيني مملكتى ، فكيف الحالة في تحصيلها ؟ » .

ورأى أصحابه أن يثيروا عليه برأى يجعل الاستيلاء عليها ميسورا الى حد كبير ، وأغلب الظن أنهم كانوا مثله يطمعون في امتلاكها والاستمتاع بخيراتها ، فعرضوا عليه أن يكتب للمعتمد يستأذنه في وضع رجال من صلحاء المرابطين رغبوا في الرباط بالأندلس ومجاهدة العدو والاقامة ببعض الحصون المصاوبة للروم الى أن يموتوا بها ، وراقت الفكرة يوسف .

(١) المعجب للمراكشي صفحة ١٣٩ .

فكتب بذلك الى المعتمد ، فأذن لهم المعتمد بعد أن وافقه على ذلك ابن الأفطس ، وانما أراد يوسف وأصحابه بذلك أن يكون قوم من شيعتهم مبثوثين بالجزيرة في بلادها ، فاذا كان أمر من قيام بدعوتهم أو اظهار ملكهم وجدوا في كل بلد لهم عوناً ، فهم شبيهون بمن كان يطلق عليهم في الاصطلاح السياسى الحديث اسم : « الطابور الخامس » .

وجهز يوسف من خيار أصحابه رجالاً انتخبهم ، وأمر عليهم رجالاً من قرابته يسمى بثلجيين وأسرَّ اليه ما أراده ، فجاز بلجين البحر الى الأندلس ، وقصد المعتمد ، وقال له : « أين تأمرنى بالكون ؟ » . فوجه المعتمد معه من أصحابه من ينزله ببعض الحصون التى اختارها لهم ، فنزل حيث أنزلوه هو وأصحابه ، وأقاموا هناك الى أن ثارت الفتنة على المعتمد .

وضعف ملوك الطوائف أمام ألفونسو وعجزهم عن مدافعته جعل كثيرين من ذوى رأى فى الأندلس يرون أن اتحاد الأندلس لاسلامية مع امبراطورية المرابطين ، هو الأمل الوحيد فى انقاذ البلاد ، ولكن الطبقة العليا المستنيرة المثقفة لم تكن ترى ذلك ، وكان عندها من الأسباب ما يميل بها الى هذا الاتجاه ، فيوسف لم يكن يحسن اللغة العربية ، وكانت معرفته بها معرفة أولية ، وكان لهذا يعد فى نظر المثقفين من البربر الجفاة الغلاظ ، وقد ظهر فى مواقف كثيرة نقص ثقافته الأدبية ، فحينما سأله المعتمد بعد أن توسط لشعراء الأندلس فى ملحه بعد معركة الزلاقة ، وهو فى اشيلية يستمع فى قصر المعتمد الى

اثباتهم : « أيعلم أمير المسلمين ما قالوه ؟ ». فأجاب يوسف
المعتمد قائلا (١) : « لا أعلم ولكنهم يطلبون الخبز ! ». وكان
هذا مدى تقديره للشعر ، وفي بلاد — مثل الأندلس الإسلامية
في القرن الخامس الهجري — بوجه خاص حافلة بالأدباء والعلماء
والشعراء ولأكثر ملوكها وأمرائها وأعيانها مشاركة قوية في
الأدب والعلم بعد هذا تقصير وتقص يرمى في رأيهم بصاحبه ،
ولا يمكن أن يستسيغوه بسهولة ، وكانت قصور الأمراء والملوك
ومعاهد أدب وميدان سباق للمواهب الأدبية والعلمية ، وكان
الأدباء والشعراء والعلماء ينعمون في ظل رعاية هؤلاء الملوك
والأمراء ، ولا يجدون مجالا للشكوى ، لأن هؤلاء الأمراء كانوا
يسمحون لهم بمشاركتهم في ملاهيهم وسويغات أنسهم ومجالس
شرابهم ، وكانوا يتيحون لهم الفرص لقرض الشعر والفراغ
لتأليف الكتب دون أن يخافوا الفاقة ، أو يخشوا الأذى
والاضطهاد أو النفي ، ولذلك كانت تختلف نظرتهم للأمراء عن
نظرة رجال الدين وجماعة المتشددين .

فلم يكن ليوسف اذن أنصار من الطبقة الراقية المثقفة يمكن
الاعتماد عليهم ، ولكن السواد الأعظم من الأهالي كانوا في
جانبه ، فقد كان التدمير عاما شاملا ، لأن كل مدينة من حواضر
الأندلس وقواعدها كان لها بلاطها الذي يسرف في الاتفاق ،
وكان داخعو الضرائب لا يشترون بالضرائب الباهظة الأمن

(١) نفع الطيب الجزء الرابع صفحة ١٨١ .

المنشود ، فقد كان الأمراء أضعف من أن يستطيعوا حماية رعاياهم ، ولذلك لم يكن هناك هدوء واستقرار ولا أمن على الحياة والملكية ، والناس في حيرة لا يعرفون ما يجيء به الغد وما تضره لهم بطون الغيوب ، ومثل هذه الحالة من الصعب احتسائها ، وغير عجيب أن تكون الطبقات العاملة في مثل هذه الحالة مترقبة للتحفز والثورة ، ولكن قبل قدوم يوسف لم تلح لهم فرصة للهرب من هذه الحالة ، وقد عبر عن هذا السخط الخفي والتذمر المكنون الشاعر أبو القاسم خلف بن فرج الألبيري المعروف بالسُّمَيْسِرِ الذي يقول عنه صاحب الذخيرة ^(١) : « كان باقعة عصره وأعجوبة دهره » - في قواه :

ناد الملوك وقل لهم	ماذا الذي أحدثتُم
أسلمتم الاسلام في	أسر العدا وقعدتم
وجب القيام عليكم	اذ بالنصارى قتم
لا تنكروا شق العصا	فعصا النبي شققتم

ولكن الثورة قد تجيء بالأسوأ ، فليس هناك سوى نصبر حتى تعرض الفرصة المناسبة ، وفي هذا يقول الشاعر نفسه :

رجوناكم فما أنصفتونا	وأملناكم فخذلتونا
سنصبر والزمان له انقلاب	وأنتم بالاشارة تفهسون
ويضرب على هذه النغمة في قوله : في الشماتة بالأمراء :	

(١) الذخيرة لابن بسام القسم الاول المجلد الثاني صفحة ٢٧٣ .

يا مشفقاً من خمول قوم نيس لهم عندنا خلاق
ذكثوا وقد طالما أذكثوا دعهم يذوقوا الذى أذاقوا
ولما رأى السمسرى الأمير عبد الله صاحب غرناطة يعمل
على تحصين المدينة بعد أن ساء ظنه بنيات أمير المرابطين قال
فيه :

صاحب غرناطة سفيه وأعلم الناس بالأمور
قد شاد بنيانه خلافا لطاعة الله والأمير
يبنى على نفسه سفاها كأنه دودة الحرير

والسمسرى يعبر عن موجة السخط التى غلبت على الناس
فى هذه الفترة وضيقهم بأمرائهم ، ومجىء يوسف جعل الثورة
بالأمراء ممكنة ، فهو رجل قوى عادل وملك عظيم النفوذ
مبسوط السلطان ، وقد انتصر فى الزلافة على المسيحيين
اقتصاراً باهراً بعد أن هرب من الميدان وحر الطعان رجال
الأندلس ، وسينتصر انتصارات أخرى اذا ثبتت قدمه فى
الأندلس وألقت مقادتها اليه .

على أن الرغبة فى تغيير الحال كانت تتفاوت قوتها فى
الولايات المختلفة ، ففى غرناطة كانت رغبة الأهالى من عرب
وأندلسيين قوية فى الخلاص من أميرها المستضعف البربرى
الأصل ، ولكن فى البلاد التى كان يحكمها المعتمد لم يكن
التململ كثير الانتشار ، فكرم المعتمد وسماحة نفسه وسجاجة
خلقه وكرامته للوشايات والدسائس ، كانت تميل بأهل مملكته
الى قبول حكمه والاعضاء عن عيوبه الأخرى ، مثل الافراط فى

الشراب والميل الى اللهو والاستمتاع . وفي المرية كان المعتصم
ابن حساح محبوباً مشهوراً بميله الى تحرى العدل وحسن
معاملة الرعية والترفق بهم — وذلك لى جانب مواهبه الأدبية
وتشجيعه للشعراء والعلماء . ومؤرخو الأندلس يثنون عليه
ولا يأخذونه بسوى حسده للمعتد الذى لم يستطع مغالبته
وايغار صدر يوسف عليه بالوشايات التى كان ينقلها اليه ،
وانتى لم تعلم بها المعتد الا قيل عودة يوسف الى مراکش
والتي جعلته يرسل اليه بهذين البيتين من الشعر :

يا من تمرس بى يريد مساءتى

لا تعرضن فقد نصحت لمندرم

من غرّه منى خلّاق سهلة

فالسّم تحت ليلان مس الأرقم

ولكن كان ليوسف مع ذلك أنصار من رجال الدين فى كل
ناحية من نواحي الأندلس ، وكان من أشدهم حملة على الأمراء
وأكثرهم سعياً فى هدمهم أبو جعفر بن القلاعى قاضى غرناطة ،
وكان هذا الرجل عربى الأصل ، ولذلك كان يكره البربر
حكام غرناطة لأنهم أعداء أبناء جلدته ، ولم يستطع اخفاء
عواطفه ، وكان لا يكف عن التحريض على خلع طاعة الأمير
عبد الله صاحب غرناطة ، وقد أدرك باديس جد الأمير عبد الله
بشاقب نظره خطر ابن القلاعى (١) فكان لا يدعه فى غرناطة

(١) مذكرات الأمير عبد الله الزيرى صفحة ١١٧ .

ويأمره بسكنى ضيعته لما كان يرى من شره وقدرته على الدواخل ، وقد حضر حصار حصن لبيط وكان خباؤه ملتقى الساخطين على الأمراء ، وقد استغل ميل يوسف الى علماء الدين ، وجدّ في تشويه سمعة الأمير عبد الله عنده ، وكانت له سابق معرفة بيوسف لأنه كان أحد أعضاء الوفد الذي أرسل اليه قبل وقعة الزلاقة ، ولما عاد الأمير الى غرناطة بعد حصار لبيط أفضى الخلاف بينه وبين القليعي الى اعتقاله ، ثم أطلق سراحه فاغتنم الفرصة وهرب من غرناطة ولجأ الى قرطبة ، وشكا الأمير عبد الله الى يوسف ، وزاد في الطين بلة كما يقول^(١) الأمير نفسه ، وكان هذا الخلاف الشديد بين القليعي والأمير عبد الله من دواعي اتجاه يوسف الى الخلاص من الأمير عبد الله خاصة وأمراء الأندلس عامة . وقد رأى يوسف أن هؤلاء الأمراء المتباغضين لا يمكن أن تكون منهم جبهة متحدة لدفع غارات المسيحيين على الأندلس ووقايتها من شرهم . . ولذلك عقد العزم على أن يتولى ذلك بنفسه ، وكان أهل الأندلس بطبيعة الحال يدركون أنه لم ينتصر في الجواز الثاني انتصاراً باهراً مثل انتصاره في الجواز الأول . ولكن علماء الدين نشطوا في اقناع الشعب أن منافسات الأمراء هي سبب ذلك ، وأنه لو كانت قيادة الجيوش الأندلسية في يده وأمورها اليه لأحرز انتصاراً لا يقل لمعاناً عن انتصاره في الزلاقة .

(١) مذكرات الأمير عبد الله الزيري صفحة ١١٦ .

ويشكو الأمير عبد الله الزيرى في مذكراته من المعاملة التى
 عومل بها فى أثناء حصار لبيط ويقول ^(١) : « ولم أرق قط قبل
 ذلك ذللاً ولا كدراً ، فأنكرت الأمور كلها مع السلطان على
 حسب ما كان يكرمنى سفرة بطليوس ورأيت ضد ذلك كله » .
 وقد أثارت هذه المعاملة فى نفسه الظنون فلما عاد الى غرناطة
 « صرف وجهه الى تشييد الحصون وبنائها واعداد ما يصلح
 لحصار ان كان » . كما يحدثنا فى مذكراته ، وأعد النبل
 والعراصات والأقوات ، والظاهر أنه كان يتوقع صراعاً بين
 المرابطين وألفونسو السادس ، ولذلك يقول فى مذكراته ^(٢) :
 « ان غلب المرابط لم يفتنا الدخول فى طاعته ، وان غلب الرومى
 كنا منه على حذر » . ولكن يبدو مع ذلك أن باعث هذا
 الاحتياط والاستعداد كان تخوفه من المرابطين .

ويحدثنا الأمير عبد الله انه ^(٣) حينما حان انصراف الأمراء
 الأندلسيين من حول حصن لبيط كلموا أمير المسلمين فى عسكر
 يتركه بالأندلس خوفاً من هجوم ألفونسو عليهم فأجابهم
 يوسف : « أصلحوا نياتكم تكفوا عدوكم » . ويقول ما معناه :
 ان هذا التصريح أثار مخاوفه ، فان ألفونسو لم يلبث أن أرسل
 اليه يطلب الجزية ، وهدد وأنذر من يمتنع عن دفعها ، وعاقده

(١) مذكرات الأمير عبد الله الزيرى صفحة ١١٤ .

(٢) مذكرات الأمير عبد الله الزيرى صفحة ١٢٠ .

(٣) مذكرات الأمير عبد الله الزيرى صفحة ١٢٢ .

صاحب سرقسطة ومن يليه من الشرق فدافعوا شره ، ودفعوا له ما سلف له عندهم ، ويقول الأمير عبد الله انه اضطر الى ارضاء ألفونسو باليسير مع معاقدته ألا يقرب له بلدا ، ويعتذر عن ذلك بقوله : انه لم يكن له قدرة على مدافعته ، وأدرك عبد الله أن هذه المعاهدة ستضر بسمعته عند المرابطين وتدركه تبعاتها ، وذكر ذلك لرسول ألفونسو اليه فقال له : « متى أدرككم في ذلك منه طلب فعلى الذب عن مدينتكم » .

ويذكر الأمير عبد الله أنه كتب ليوسف بما وقع وما دفعت اليه الضرورة في زعمه ، ولكن أمير المرابطين نظر الى المسألة من ناحية أخرى ، وعدّها خيانة من الأمير عبد الله فكتب اليه من رسالة ^(١) « أما مداهنتك وقولك الباطل فقد علمناه ، وستعلم عن قريب كيف ترضى الرعية ، وما تصنع اذ زعمت أنك نظرت لها ، ولا نسوف فان هذا قريب غير بعيد » .

واعتقد الأمير عبد الله أن القليعي هو الذي أفسد عليه أمير المسلمين ، فتكررت مخاطبته له مبينا حقيقة موقفه شاكيا من تحريض القليعي ، ولكن يوسف كان لا يراجعه الا بالشدة وقبول قول القليعي وأمثاله .

وساءت العلاقات بين الأمير عبد الله والمعتد ، لأن دخول رسول ألفونسو غرناطة وما دار بينه وبين صاحبها ، جعلت المعتد يسيء به الظن ويعتقد أن هناك اتفاقا بين الاثنين ،

(١) مذكرات الأمير عبد الله صفحة ١٢٧ .

واتفقت الأقاويل عند يوسف على أن الأمير عبد الله قد انضم
الى جانب ألفونسو .

وأثارت هذه المسائل كلها غضب يوسف . فركب البحر الى
الجزيرة الخضراء ، وهذا هو الجواز الثالث . وكان في سنة ٤٨٣
هجرية ، ووافاه بها المعتمد وتلقاه بالتعظيم كسألوف عادته .
واحتفل في التضييف والتكريم ، وتوالت على يوسف الأخبار
من ناحية الأمير عبد الله بما زاد في غضبه وحقده ، فقصد مالقة
واستنزل أخاه تميم بن بلقين ، وتوجه الى غرناطة ، ولما اقترب
يوسف من المدينة وعقد عبد الله مجلسا من خاصته للمشاورة
في الموقف نصحت له والدته بالذهاب للقاء ملك المرابطين .
وأكدت له أن ما بينهما من وشيجة الأصل البربرى ستحمل
يوسف على أن يحسن معاملته ، وعمل عبد الله بنصيحتها ولقى
يوسف خارج حاضرتة ، وترجل له وسلم عليه ، ودخل معه
المدينة ، وسلم اليه أمورها ، وقد احتمله يوسف وأخاه تميما
الى العدو ، وأسكنهما بأغमत وكان يوسف مطمئنا الى صنيعة
فقد ^(١) أفتاه علماء الدين بجواز خلع ملوك الأندلس وبقتلهم
أن امتنعوا .

ويقول الأمير عبد الله في مذكراته ان أمير المسلمين قبل
مجيئه الى غرناطة قد وعد المعتمد بها وقال له ^(٢) : « أنا رجل

(١) الجزء السادس من نفع الطيب صفحة ١٠٦ .

(٢) مذكرات الأمير عبد الله صفحة ١٦٥ .

مغربى ، وليس قدمنى أخذ مال ولا بلاد ، وقد ترى ما رفع
على صاحب غرناطة ، وما تتوقع عليها من الرومى ، وليس غرضى
أكثر من تخليصها ، فاذا صارت فى يدى ، ولا يمكنى امساكها
لبين بلاد الأندلس من العدو ، وضعتها عند ذاك فى يدك .
فتكون أعلم بما تصنع بها ، وأقعد لما يصلح المسلمين » .

ومهما يكن نصيب ما ذكره الأمير عبد الله من الحقيقة فإن
الذى يذكره مؤرخو الأندلس ، أن المعتمد والمتوكل صاحب
بطلوس قدما على يوسف فى غرناطة لتقديم التهنئة لاستيلائه
عليها ، وأرسل المعتصم بن صمادح ابنه لينوب عنه فى ذلك ،
وخطر ببال المعتمد أن يوسف قد يمنحه غرناطة تعويضا له عن
الجزيرة الخضراء التى كانت من أملاكه واستولى عليها المرابطون
وعرض المعتمد ليوسف بذلك ، أو استنجزه وعده اذا صحت
رواية الأمير عبد الله ، فأعرض يوسف عنه ، وقد قوبل أمراء
الأندلس بفتور شديد ، وأمر يوسف بسجن ابن المعتصم .

وكانت هذه الحوادث كافية لتنبه الغافلين ، ووضحت
لأمراء الأندلس مقاصد يوسف ، وأدركوا أن مصيرهم مثل
مصير الأمير عبد الله وأخيه تميم ، وانتحل المتوكل والمعتمد
الأعداء لسرعة العودة الى أملاكهما ، وأدرك ابن عباد الندم
على استدعاء يوسف وقال للمتوكل : « والله لا بد أن يسقينا
من الكأس التى أسقى بها عبد الله » . وأخذا ينصحان سائر
الأمراء الأندلسيين بالاستعداد للدفاع عن أنفسهم ضد المرابطين
الذين قد تكشف نياتهم الخفية ، وأمسك الأمراء عن امداد

المرابطين بالمؤن والرجال ، واعتزموا تكوين حلف مع ألفونسو لدفع خطر المرابطين عن بلادهم .

وعاد يوسف الى الجزيرة الخضراء ، وبحر منها الى افريقية تاركاً مهمة انتزاع عروش الأمراء الأندلسيين لقواده ، وصرّح الفقهاء بأن الساعة الحاسمة لاعلان فتوى صريحة بخلع الأمراء قد حانت ، وذاعت بعد ذلك بمدة قصيرة الفتوى المطلوبة ، وكان مضسونها : أن أمراء الأندلس فجرة فاسقون ، وأنهم ضربوا لرعيّتهم أسوأ الأمثال بامعانهم في الترف وانغماسهم في اللهو ، وأفسدوا بذلك أخلاق الرعية ، وجعلوا الناس لا يحفلون بأمور الدين وفرائضه ، وأنهم فرضوا على الشعب ضرائب غير مشروعة ، وظلّوا مستمسكين بفرضها بالرغم من أن يوسف أمرهم بالغائها ، وأنهم قد بلغ بهم الجور حد التحالف مع ألفونسو عدو الدين ، وأنهم من أجل ذلك غير جديرين بأن يكونوا حكاماً لجماعة من المسلمين ، وأن يوسف أصبح في حل من العهود التي قطعها على نفسه للمحافظة عليهم ، وإن عزلهم ليس حفاً من حقوقه فحسب ، بل هو واجب يفرضه عليه الدين ، وأنه لو ترك الأمراء على عروشهم لسلموا البلاد للكفرة ، ولم تخل الفتوى من الإشارة الى الرميكية ، واتهامها بأنها قد دفعت بزوجهما الى التبذير والامعان في اللهو ، وقالوا ليوسف في أحاديثهم معه : « ان كانوا عاهدوك فقد ناقضوك وأرسلوا الى ألفونسو أن يكونوا معه عليك حتى يوقعوك بين يديه ، ويعود أمرهم اليه ، فبادرهم بخلعهم ونحن بين يدي الله المحاسبون ،

فإن أذنبنا فنحن لا أنت المعاقبون ، فانك ان تركتهم وأنت قادر عليهم أعادوا بقية بلاد الاسلام الى الروم وكنت أنت المحاسب بين يدي الله تعالى » . ولكي يزيد يوسف قوة هذه الفتوى طلب اقرارها من فقهاء افريقية ، ثم أرسلها الى كبار علماء مصر وآسيا لكي يقرّوها آراء علماء المغرب فلم يترددوا في الموافقة على ما جاء بها ، وأرسلوا الى يوسف يحرضونه على الحكم بالعدل ولزوم الطريق القويم واستماع نصائح رجال الدين . وترك يوسف الأمير سير بن أبي بكر ، أحد قواده المشهورين ، ليقوم بمهمة خلع الأمراء ، وكتب اليه أن يأمرهم بالنقلة والرحيل الى أرض العدو : « فمن فعل فذاك ، ومن أبي فحاصره وقاتله » . وأوصاه بعدم التعرض للمعتمد الا بعد استيلائه على البلاد .

وفي سنة ٤٨٤ هجرية تحرك يوسف الى سبتة لجواز عساكره الى الأندلس لمنازلة ملوك الطوائف ، وأقام بها مترقبا أنباء الأندلس ، وقسّم سير بن أبي بكر جيشه الى فرق ، فأرسل فرقة لمحاصرة المريّة . وفرقا أخرى لمحاصرة حصون المعتمد ، وكانت أول مدينة من المدن التابعة للمعتمد سقطت في أيدي الجيش المرابطي مدينة طريف . وتقدمت جيوش يوسف بعد ذلك تقدما سريعا وحاصرت قرطبة وكان بها الفتح الملقب بالمأمون ابن المعتمد ، ولم تقاوم طويلا ، فقد أسلمها أهلها للمرابطين ، وحاول الفتح أن يشق طريقه بين الأعداء والخونة ولكنهم تكاثروا عليه وقتلوه واحتزوا رأسه ورفع على رمح

وطافوا به في شوارع المدينة ، وسقطت بعد ذلك قرمونة
وحوصرت اشبيلية ، وقد اتجه لمحاصرتها جيشان ، حاصرها
أحدهما من الناحية الشرقية ، وحاصرها الجيش الآخر من
الناحية الغربية ، وكان نهر الوادي الكبير يفصل هذا الجيش عن
المدينة وكان هناك أسطول للدفاع عن المدينة من هذه الناحية ،
وتخرج موقف المعتمد ، وأجمعت على الثورة باشبيلية طائفة .
وأعلم المعتمد بما اتتوته الطائفة المذكورة ، وكشف له عن
مرادها ، وحضّ على التخلص منها ، ولكنه أبى ذلك وكره أن
ينهى عهده بقتل جماعة من رعيته ، ودفع اليأس المعتمد الى
الاستنجاد بألفونسو وبذل له الوعود المغرية وقبل ألفونسو
شروطه وأرسل جيشا يقوده ألقارفانيز . ولكن المرابطين هزموا
هذا الجيش على مقربة من حصن المدور ، ووقع هذا الخبر على
المعتمد وقوع الصاعقة ، وكان المعتمد كسائر أهل عصره يصدق
بالتنجيم والاستدلال بالطوالع ، وكان معه في اشبيلية منجمه
أبو بكر الخولاني ، فكانت طوالعه وأحلامه تبعث بعض الأمل في
نفس المعتمد ، وتجعله يعتقد أنه قد تحدث المعجزة في لحظة من
اللحظات ، ولكن أخذت دلالات الطوالع تسوء وتنذر بوقوع
الشر ، ولم يكفّ الراغبون في تغيير الحكم باشبيلية عن محاولة
الاتصال بالجيش المحاصر ، وتيسير سبيل دخوله الى المدينة ،
وكان المعتمد قد فرض عليهم رقابة شديدة اتقاء لشرهم ، ولكن
هذه الرقابة لم تكن كافية ، وعرف المعتمد أن ملكه صائر الى
الانحلال والزوال ، فترك الأمور في يد ابنه الرشيد ، واستطاع

الناقمون على عهد هذه أحداث ثغرة في سور المدينة دخل منها بعض
المرايطين في يوم الثلاثاء منتصف رجب سنة ٤٨٤ ، كما يروى لنا
المراكشي ويصف لنا خروج المعتمد من قصره في ذلك اليوم
للدفاع عن حوزته قائلاً^(١) : « فبرز المعتمد من قصره سيفه
بيده ، وغلالته ترف على جسده ، لا درّقة له ولا درع عليه ،
فلقى على باب من أبواب المدينة يسمى باب الفرج فارساً من
الداخلين مشهور النجدة شاكنى السلاح ، فرماه الفارس برمح
قصير أنابيب القنّاة ، طويل شفرة السنان ، فالتوى الرمح
بغلالته ، وخرج تحت ابطه ، وعصمه الله منه ، ودفعه بفضله
عنه ، وصب هو سيفه على عاتق الفارس فشقه الى أضلاعه فخر
صريعاً ، وانهزمت تلك الجسوع ، ونزل المتسمنون للأسوار
عنها ، وظن أهل اشبيلية أن الحثاق قد تنفس ، فلما كان عصر
ذلك اليوم ، عاودهم القوم ، فظّهر على البلد من واديه ، ويئس
من سكنى ناديه ، وبلغ فيه الأمل حاسده وشانيه ، وشبت النار
في شوانيه ، فانتقض عندها الأمل والقول ... والتوت الحال أياماً
يسيرة الى أن ورد الأمير سير بعساكر متظاهرة ، وحشود من
الرعية وافرة ، والناس في خلال هذه الأيام قد خامرهم الجزع ،
وخائظ فلوبهم هلع . يتضعون السبل سياحة ، ويعبرون النهر
سباحة ، ويترامون من شرفات الأسوار حرصاً على الحياة ،
والموفون بالعهد المقيمون على صريح الود ثابتون ، الى أن كان

(١) المعجب للمراكشي صفحة ١٤٠ / ١٤٣ .

يوم الأحد لاجدى وعشرين ليلة حلت من رجب من السنة
المذكورة ، وهذا يوم الكائنة العظمى والطامة الكبرى ، فيه حم
الأمر الواقع ، واتسع الخرق على الراقع ، ودخل البلد من
واديه ، وأصيب حاضره وباده ، بعد أن جد الفرسان فى القتال ،
واجتهدت الفئتان فى النزال ، وظهر من دفاع المعتمد رحمه الله
وبأسه ، وتراميه على الموت بنفسه ، مالا مزيد عليه ، ولا تناه
خلق اليه » ، وفى ذلك يقول المعتمد بعد أن نزل بالعدوة أسيرا
حسيرا :

لما تماسكت الدموع	وتنهه القلب الصديع
قالوا الخضوع سياسة	فليد منك لهم خضوع
وألد من طعم الخضو	ع على فمى السم النقيع
ان تستلب عنى الدثنا	ملكى وتسلسنى الجموع
فالقلب بين ضلوع	لم تسلم القلب الضلوع
لم أستلب شرف الطبأ	ع آسلب الشرف الرفيع
قد رمت يوم نزالهم	ألا تحصننى الدروع
وبرزت ليس سوى الق	يى عن الحشاشىء دفعوع
وبذلت نفسى كى يسي	ل اذا يسيل بها النجيع
أجلى تأخر لم يكن	بهواى دلى والخشوع
ما سرت قط الى القتا	ل وكان من أملى الرجوع
شيم الألى أنا منهم	والأصل تتبعه الفروع
فشنت الغارة فى البلد ، ولم يترك البربر لأحد من أهلها	
سبدا ولا لبدا ، و انتهت قصور المعتمد نهبا قبيحا ، وأخذ هو	

قبضاً باليد ، وجبر على مخاطبة ابنه : المعتد بالله والراضى بالله
وكانا بمعقلين من معاقل الأندلس المشهورة لو شاء أن يمتنعا بها
لم يصل أحد اليهما ، أحد الحصنين يسمى رتدة والآخر
مارتلة ، فكتب اليهما ، وكتبت السيدة الكبرى أمهما مستعطفين
مسترحمين ، معلمين أن دم الكل منهم مسترهن بثبوتهما ، فأثفا
من الذل ، وأيا وضع أيديهما في يد أحد من الناس بعد أبيهما ،
ثم عطفتهما عواطف الرحمة ، ونظرا في حقوق أبويهما المقترنة
بحق الله عز وجل ، فتمسك كل منهما بدينه ونبذ دنياه ، ونزلا
عن الحصن بعد عهود مبرمة ومواثيق محكمة ، فأما المعتد بالله
فان القائد الواصل اليه قبض عند نزوله على كل ما كان يملكه ،
وأما الراضى بالله فعند خروجه من قصره قتل غيلة وأخفى
جسده » .

ويصف لنا الفتح سقوط قرطبة بقوله ^(١) : « ولما بدت
الفتنة وسال سيلها وانسحب على بهجة الهدنة ذيلها ، نازل
المرابطون قرطبة وفيها ابنه المأمون ، وكان أشهر ملوك أوانه
خبراً وأمنهم طيراً ، ... فأقاموا عليها شهوراً وأرخوا من
محاصرتها والتضييق عليها ستوراً ، يساورونها مساورة الأراقم
ويباكرونها بداء من الحصار فاقم ، والمأمون قد أوجس في نفسه
خيفة ، وتوقع منهم داهية مطيفة ، فنقل ماله وأهله الى المدور
بعد أن حصنه وملاه بالعدد وشحنه ، وأقام بقصر قرطبة

(١) تلائد العقيان للفتح بن خاقان صفحة ٢٠ .

مضطربا ، ولأول نبأة مصيخا ومرتبيا ، الى أن صبحوها يوما
لعدة كانت بينهم وبين أهلها في تسنم أسوارها ، وتقحم أنجادهما
وأغوارها ، فوققوا هارين ، وتشوفوا راهبين ، وأهلها يدعون
بشعارهم ، ويتبعون أهواء مردتهم ودعارهم ، وكلهم يبدى
تلومه واحجامه ، ويعتقده هولولا لا يرى اقتحامه ، الى أن
استسهلوا استصعابه ، وتوغلوا شعابه وصمموا الى القصر .
وقد علموا قعود الجماعة عن الحماية له والنصر ، فلما أحس بهم
المأمون خرج بعدد قليل وحد قليل . وقد رتبت له بطريقه
رصائد ونصبت له فيها مصائد ، علق فيها زمامه ، ورشق اليه
منها حسامه ، فائقضوا عليه اقضاض الجارح ، وانصبوا اليه
انصباب الطير الى المسارح ، فقطع رأسه وحيز وخيض به النهر
وأجيز ، ولما استقر بالمحلة رفع على سن رمح وطيف به في
جوانبها ، وأخيف به قلب مجانبها .

ويصف الفتح مصرع الراضى في رندة وهى أحد معاقل
الأندلس المنيعه بقوله : « فأناخوا منها على بعد (يقصد جيش
المرابطين) وأقاموا من الرجاء بها على غير وعد ، وفيها ابنه
الراضى لم يحفل باناختهم بازائه ولا عدها من أرزائه ، لامتناعه
عن منازلتهم ، وارتفاعه عن مطاولتهم ، الى أن اقضى في أمر
اشيلية ما اقضى ، وأفضى أمر أييه الى ما أفضى ، فحل على
مخاطبة ولده لينزل عن صياصيه ، ويمكنهم من نواصيه ، فنزل
بأمر أييه ، وابقاء على أرواح ذويه ، بعد أن عاقدتهم مستوثقا .
وأخذ عليهم عهدا من الله وموثقا ، فلما وصل اليهم ، وحصل في

يسيههم ، مانوا به عن الحصن وجرعوه الردى ، وأقطعوه الثرى
حين أودى .

وقد رثى المعتمد ابنه المأمون والراضى وكان رأى قمرية
نائحة على سكنها وأمامها وكر فيه طائران يرددان نغما :
بكت لم ترق دمعاً وأسبلت عبرة

مساءً وقد أخنى على الفها الدهر

بكت لم ترق دمعاً وأسبلت عبرة

يقصر عنها القطر مهما همى القطر

وناحت وباحت واستراحت بسرها

وما نطقت حرفاً يبوح به سر

فمالى لا أبكى ! أم القلب صخرة

وكم صخرة فى الأرض يجرى بها نهر

بكت واحدا لم يشجها غير فقده

وأبكى لآلاف عديدهم كثر

بنى صغير أو خليل موافق

يمزق ذا قصر ويفرق ذا بحر

ونجمان ، زين للزمان ، احتواهما

بقرطبة النكداء أو رندة القبر

غدرت اذن ان ضنّ جفنى بقطره

وان لؤمت نفسى فصاحبها الصبر

فقل للنجوم الزهر تبكيهما معى

مثلهما فلتحزن الأنجم الزهر

ويصف الفتح المعتمد يوم سقوط اشيلية في يد المرابطين بقوله : « ولما انتشر الداخلون في البلد ، وأوهنوا القوى والجلد ، خرج والموت يتسعر في الحاظه ، ويتصدر من ألفاظه ، وحسامه يعد بمضائه ، ويتوقد عند انتضائه ؛ فلقبهم في رحبة القصر ، وقد ضاق بهم فضاؤها ، وتضعضت من رحبتهم أعضاؤها ، فحمل فيهم حملة صيرتهم فرقا ، وملأتهم فرقا ، وما زال يوالى عليهم الكر ، حتى أوردتهم النهر ، وما بهم جواد ، وأودعهم حشاه كأنهم له فؤاد ، ثم انصرف وقد أيقن بانتهاب ماله ، وذهاب ملكه وارتحاله ، وعاد الى قصره واستمسك به يومه وليلته مانعا لحوزته ، دافعا للذل عن عزته ، وقد عزم على أفطع أمر ، وقال بيدي لا بيد عمرو ، ثم صرفه تقاه ، عما كان نواه ، فنزل من القصر بالقصر ، الى قبة الأسر ، فقيد للحين . وحن له يوم شر ما ظن أنه يحين ، ولما قيدت قدماءه ، وبعدت عنه رقة الكبل ورحماءه قال يخاطبه :

اليك فلو كانت قيودك أسعرت

تضرم منها كل كف ومعصم

مخافة من كان الرجال بسبيبه

ومن سيفه في جنة أو جهنم

ولما آله عضه ، ولازمه كسره ورضه ، وأوهاه ثقله ، وأعياه

ثقله ، قال :

تبدلت من عز ظل البنود بذل الحديد وثقل القيود

وكان حديدى سنانا ذليقا وعضبا رقيقا صقيل الحديد
فقد صار ذاك وذا أدهما يعض بساقى عض الأسود
وهكذا تهاوت حصون المعتمد ومعاقله ، وسقطت قاعدة
ملكه ، وانهار بناء الدولة العبادية أقوى دول ملوك الطوائف ،
وأوسعها رقعة ، وأبعدها شهرة .

وعجل سقوط اشيلية بسقوط المرية ، وقد أُنقذ الموت
صاحب المرية من الوقوع فى الأسر ، فقد حاصر المرابطون
المدينة وهو على فراش الموت ، ولما سمع ضجة الجند المحاصر
للمدينة قال : « لا اله الا الله ، نَعَص علينا كل شى حتى
الموت » . ودمعت عيناه وأنشد جاريته أروى بصوت لم تك
تسمعه :

ترفق بدمعك لا تفنه فبين يديك بكاء طويل
وكان قد أوصى ابنه بركوب البحر والهرب من المرية اذا
بلغه خبر سقوط الدولة العبادية ، وعمل ابنه بالوصية ، وركب
البحر ونجا ، وسقطت بعد ذلك فى يد المرابطين مرسية ودانية
وشاطبة ، وتحولوا بعد ذلك الى بطليوس ، ولم يجد المرابطون
مشقة فى الاستيلاء عليها وأسر المتوكل ، وعذب لارغامه على
اظهار كنوزه المخبوءة ، وأمر سير بعد ذلك بقتله وقتل ابنه :
الفضل والعباس . وبذلك تم استيلاء المرابطين على الأندلس
والقضاء على ملوك الطوائف وأمرائها ما عدا بنى هود فى
سرقسطة ، فقد رأى يوسف أن يتركهم باعتبارهم جبهة أمامية
بينه وبين الدول المسيحية فى الشمال ، وقد انتزع المرابطون
بعد ذلك ملكهم بعد وفاة يوسف .

المعتمد في طريقه إلى المنفى

بعد سقوط اشبيلية جُمع المعتمد وأهله بعد استئصال
جميع ماله وحملتهم الجوارى المنشآت في نهر الوادى الكبير
وبحر الظلمات حتى حلَّ بالعدوة ، وكان نزوله منها بطنجة ،
ويصف لنا شاعره الوفى ، أبو بكر بن اللبانة خروجه من اشبيلية
بقصيدة يقول فيها :

تبكى السماء بمزن رائح غاد
على البهاليل من أبناء عباد
على الجبال التى هدت قواعدها
وكانت الأرض منها ذات أوتاد
عريسة دخلتها النائبات على
أساود لهم فيها وآساد
وكعبة كانت الآمال تخدمها
فاليوم لا عالف فيها ولا باد
ياضيف أققر بيت المكرمات فخذ
فى ضم رحلك واجمع فضلة الزاد
ويا مؤمل واديهم ليسكنه
خف القطين وجف الزرع بالوادى

وأنت يافارس الخيل التي جعلت
تختال في عدد منها وأعداد
ألق السلاح وخل المشرفى فقد
أصبحت في لهوات الضيغم العادى
لما دنا الوقت لم تخلف له عدة
وكل شيء لميقات وميعاد
ان يخلعوا فبنو العباس قد خلعوا
وقد خلت قبل حمص أرض بغداد
حموا حريمهم حتى اذا غلبوا
سيقوا على نسق فى جبل مقتاد
وأنزلوا فى متون الشهب واحتملوا
فويق دهم لتلك الخيل أنداد
وعيث فى كل طوق من دروعهم
فصيغ منهم أغلال لأجياد
نسيت الا غداة النهر كونهم
فى المنشآت كأموات بألحاد
والناس قد ملؤا العبرين واعتبروا
من لؤلؤ طافيات فوق أزباد
حط القناع فلم تستر مخدرة
ومزقت أوجه تمزيق أبراد
حان الوداع فضجت كل صارخة
وصارخ من مفداة ومن فاد

سارت سفائنهم والنوح يصحبها
كأنها ابل يحدو بها الحادى
كم سال فى الماء من دمع وكم حملت
تلك القطائع من فلذات أكباد
ويقول ابن حمديس فى وصف هذه الحالة :

ولما رحلتم بالندى فى أكفكم
وقلقل رضوى منكم وثير
رفعت لسانى بالقيامة قد دنت
فهذى الجبال الراسيات تسير

وأقام المعتمد فى طنجة أياما ، ولقيه بها الحصرى الشاعر
وهو من فحول شعراء افريقية فى القرن الخامس وكان قد ارتحل
الى الأندلس ، ومدح ملوك الطوائف واستقر أخيرا بطنجة ،
وكان قد سبق له أن مدح المعتمد فى اقبال دولته بقصيدة يقول
فى مطلعها :

أعن الاغريض أم البرد ضحك المتعجب من جلدى
وفيهما يقول فى مدح بنى عباد والمعتمد :
وبلوت الناس فلست أرى كبنى عباد من أحد
القوم بحار مسجورا ت محفوفات بالزبد
أبنى عباد ما حسنت الا بكم الدنيا فقد
نقد الكرماء الدهر معى فتخيركم فى المنتقد
وقضى لكم بالفضل على من فى أدنى أو فى البعد
دانت بغداد لقرطبة وخلائقها للمعتمد

قرأوا شعر اللخمي فلم يرض المعتز عن الولد
يا فرع المنذر والنعمان بلغت النجم فطل وزد

وكان الحصري قد ألف للمعتمد كتاب : « المستحسن من
الأشعار » فلم يقض بوصوله اليه الا وهو على تلك الحال ،
وقد أضاف الى ذلك الكتاب قصيدة استجدها عند وصول
المعتمد ، ولم يكن عند المعتمد فيما زود به أكثر من ستة وثلاثين
مثقالا ، فطبع عليها وكتب معها بقطعة شعر يعتذر من قلتها
ووجه بها اليه ، فلم يجاوبه الحصري عن القطعة على سهولة
الشعر على خاطره فقد كان - كما يؤكد لنا المراكشي - أسرع
الناس في الشعر خاطرا فأرسل اليه المعتمد بقطعة يقول فيها :

قل لمن قد جمع العدم وما أحصى صوابه
كان في الصخرة شعر فتنظرنا جوابه
قد أثبتناك فهلا جلب الشعر ثوابه

وسمع زعاقفة الشعراء ومحترفو الكدية بما صنع المعتمد
مع الحصري ، فتعرضوا له بكل طريق ، وقصدوه من كل ناحية ،
وفي ذلك يقول المعتمد :

شعراء طنجة كلهم والمغرب
ذهبوا من الاغراب أبعد مذهب
سألوا العسير من الأسير وانه
بسؤالهم لأحق فاعجب واعجب
لولا الحياء وعزة لخمية
طى الحشا ساواهم في المطلب

قد كان ان سئل 'لندي يجزل وان
نادى الصريخ ببابه اركب يركب
وللمعتمد في هذا المعنى :

قبح الدهر فماذا صنعا
كلما أعطى نفيسا نزعا
قد هوى ظلنا بسن عاداته
أن ينادى كل من يهوى لعا
من اذا الغيث همى منهمرا
أخجلته كفه فاقطعا
من غمام الجود من راحته
عصفت ريح به فاقشعا
من اذا قيل الخنا صمّ وان
نطق العافون همساً سمعا
قل لمن يطمع في نائله
قد أزال اليأس ذاك الطمعا
راح لا يملك الا دعوة
جبر الله العفاة الضيعا

وأقام المعتمد أياماً في طنجة ، ثم قفل الى مدينة مكناسة
فأقام بها أشهراً الى أن نفذ الأمر بتسييرهم الى أغمات ، وعتب
المعتمد على ابنه الرشيد في طريقه من مكناسة الى أغمات عتبا
أفرط فيه ، فكتب اليه الرشيد يستعطفه :

يا حليف الندى ورب السماح
وحبيب النفوس والأرواح
من تمام النعمى على التماحي
لمحة من جبينك الوضاح
قد غنينا ببشره وسنانه
عن ضياء الصباح والمصباح
فأجابه المعتمد :

كنت حلف الندى ورب السماح
وحبيب النفوس والأرواح
اذ يمينى للبذل يوم العطايا
ولقبض الأرواح يوم الكفاح
وشمالى لقبض كل عنان
يقحم الخيل فى مجال الرماح
وأنا اليوم رهن أسر وفقير
مستباح الحمى مهيض الجناح
لا أجيب الصريخ ان حضر النا
س ولا المعتفين يوم السماح
عاد بشرى الذى عهدت عبوسا
شغلتنى الأشجان عن أفراحي
فالتماحي الى العيون كرية
ولقد كان ثرفة اللماح

ومدينة أغمات التى تقل اليها المعتمد وأسرتة كما يقول
ياقوت ^(١) : « مدينتان متقابلتان ... كثيرة الخير ... وليس
بالمغرب فيما زعموا بلد أجمع لأصناف من الخيرات ، ولا أكثر
ناحية ولا أوفر حظاً ولا خصباً منها تجمع بين فواكه الصرود
والجروم » (أى فواكه الحر والبرد) .

وبين مدينة أغمات ومراكش ثلاثة فراسخ ، وهى فى سفح
جبل هناك ، وكانت أغمات كبرى مدن الاقليم قبل انشاء
مدينة مراكش سنة ٤٥٤ هجرية ، ويقول عنها الدكتور
عبد الوهاب عزام فى كتابه القيم عن المعتمد : « وهى اليوم
مزارع وبساتين واسعة كثيرة الثمار ، عذبة المياه وارفة
الظلال » .

وواضح أن يوسف بن تاشفين أراد بنقل المعتمد الى أغمات
أن يكون قريباً من رقابته حتى يأمن جانبه ، ويضمن من ناحيته ،
فهى قريبة من قاعدة ملكه ، وبعيدة عن بر العدو ، ويصعب
على المعتمد أن يجد بها سبيلاً الى الهرب ، أو طريقاً الى الثورة
ورفع راية العصيان .

(١) نقلت هذا النص من كتاب الدكتور عبد الوهاب عزام عن المعتمد بن عباد

المعتمد في المنفى

أقام المعتمد في أغمات أسيرا قد ضيَّق عليه ، كاسف
البال ، كسير القلب ، يسام سوء المعاملة ، ويتجرع مر الهوان ،
وتزدحم على خواطره الهموم ، وتطوف به ذكريات ملكه السابق
ومجده السالف ، وليس الى جانبه صاحب ولا خدين يفضى اليه
بآلامه ومواجهه ، ويطارحه الحديث الذي يرفه به عن نفسه ،
ويخفف من أساه ولوعته ، ولكنه مع ذلك كان يتجلد ويتماسك
ويتذرع بالصبر ، وكان يؤلمه ويشقيه منظر بناته الناشئات في
ظلال النعيم وهن في الأطمار يغزلن ليحصلن على القوت ، وكان
ينفس عن نفسه بنظم القصائد المشجية المؤثرة ، ولم تخذله
قريحته الخصبية وبديهته الموفقة في خلال تلك الأيام المظلمة
والسنين العجاف ، وقد دخل عليه بناته السجن في يوم عيد ،
فلما رآهن في الأطمار الرثة ، وقد بدت عليهن آثار الفاقة وما
أصابهن من بؤس وشقاء أنشد :

فيما مضى كنت بالأعياد مسرورا

فساءك العيد في أغمات مأسورا

تري بناتك في الأطمار جائعة

يغزلن للناس لا يملكن قطميرا

برزن نحوك للتسليم خاشعة
أبصارهن حسيرت مكسيرا
يطآن في الطين والأقدام حافية
كأنها لم تطأ مسكا وكافورا
لاخذً الا ويشكو الجذب ظاهره
وليس الا مع الأتفاس مسضورا
أفطرت في العيد لا عادت اساءته
فكان فطرك للأكبَاد تفضيرا
قد كن دهرك ان تأمره ممتثلا
فردك لدهر منهيأ ومأمورا
من بات بعدك في ملك يسر به
فانما بات بالأحلام مغرورا

وأثر سوء الحال وشظف العيش وردة لمضعم والمسكن في
صحتهم ، واتفق وفود الوزير الأندلسي أبي العلاء زهر بن
عبد الملك بن زهر في مراکش ، وكان قد استدعى لعلاج أمير
المسلمين ، فكتب اليه المعتمد يستقدمه لعلاج بعض كرائمه ،
ومطالعة أحوالها بنفسه ، وابن زهر اشبيلي لأصل وأحد أفراد
أسرة اشتهرت بالأدب والعلم ، فلم يتردد في تلبية دعوة المعتمد ،
وقام بعلاجها على الوجه المرضي ، ورفع قدر المعتمد بالتبجيل
ودعا له بطول البقاء ، فكتب اليه المعتمد اثر ذلك بالأبيات الآتية:

دعا لي بالبقاء وكيف يهوى
أسير أن يطول به البقاء

أليس الموت أروح من حياة
يطول على الشقى بها الشقاء
فمن يك من هواه لقاء حب
فان هواى من حتفى اللقاء
أأرغب أن أعيش أرى بناتى
عوارى قد أضراً بها الحفاء
خوادم بنت من قد كان أعلى
مراتبه - اذا أبدو - النداء
وطرد الناس بين يدي ممرى
وكفهم اذا غص الفناء
وركض عن يمين أو شمال
لنظم الجيش ان رفع اللواء
يعنيه امام أو وراء
اذا اختل الامام أو الورا
ولكن الدعاء اذا دعاه
ضمير خالص تقع الدعاء
جزيت أبا العلاء جزاء بر
نوى برا وصاحبك العلاء
سيسلى النفس عما فات علمى
بأن الكل يدركه الفناء

وقد أشار المعتمد فى هذه الأبيات الى حادثة وقعت لآثر
حظياته وأكرم بناته حينما أُلجئت الى أن تستدعى غزلا من الناس

تسد بأجرته بعض حالها ، فأدخل عليها فيما أدخل غزل لبنت
عريف شرطة أبيها ، وكان يقف بين يديه يزع الناس يوم بروزه ،
ولم يكن المعتمد يراه الا في ذلك اليوم .

وكانت الأحزان التي تتقاذف بنفسه ، وتضغنى على خواطره
تميل به الى اطالة التفكير في غير الدهر وتقلب الأيام فيعبر عن
ذلك في شعره مثل قوله :

أرى الدنيا الدنية لا تواتي
فأجمل في التصرف وانضاب
ولا يفررك منها حسن برد
له علمان من ذهب الذهاب
فأولها رجاء من سراب
وآخرها رداء من تراب

وتطوف به الذكريات على قصوره بالأندلس مثل قصر
« المبارك » وقصر « الزاهى » و « الثريا » و « الوحيد »
فيقول :

بكى المبارك في اثر ابن عباد
بكى على اثر غزلان وآساد
بكت ثريّاه لا غمّت كواكبها
بمثل نوء الثريا الرائح الغادي
بكى الوحيد ، بكى الزاهى وقبته
والنهر والتاج كل ذله بادي

ماء السماء على أنبائه درر

يا لجة البحر دومي ذات ازباد

وطلب حين قدومه أغمات من حواء بنت تاشفين خباء عارية ،
فاعتذرت بأنه ليس عندها خباء ، فكبر ذلك على نفس المعتمد ،
ونظم هذه الأبيات ، وقد أشار فيها الى ذكر يوسف بن تاشفين
ويوم العروبة :

هـم أوقدوا بين جنبيك نارا

أطالوا بها في حشاك استعارا

أما يخجل المجد أن يرحلو

ك ولم يصحبوك خباءً معارا

فقد قنّعوا المجد ان كان ذاك

وحاشاهم منك خزيا وعارا

يقل لعينيك أن يجعلوا

سواد العيون عليكم شعارا

تراهم نسوا حين جرت القفا

ر حنينا اليهم وخضت البحارا

بعهد لزوم لسبل الوفاء

إذا حاد من حاد عنها وجارا

وقلبي نزوع الى يوسف

فلولا الضلوع عليه لطارا

وهو هنا يعتب على يوسف ويذكره بسفره اليه وقدومه
عليه وما قطع يوسف على نفسه من عهد ، ويبدو أن المعتمد

أحس بما في هذه الآيات من شديد العتب فأتبعها بأيات في
مدح يوسف و لا شادة بموقفه يوم الزلافة :

ويوم العروبة ددت العدا

نصرت الهدى وأبيتَ نقرارا

ثبتَ هناك ون القلو

ب بين الضلوع لتأبى القرا

ولولاك يا يوسف لمتقى

رأينا الجزيرة للكفر دارا

رأينا لسيوف ضحى كالنحو

م وكالليل دك نغبار مثارا

فله درك في هوله

لقد زاد بأسك فيه شتھارا

تزيد اجترأ اذا ما الرما

ح عند التناجز زدن اشتجارا

اذا نار حربك ضربتها

حسبنا الأسنة فيها شرارا

ستلقى فعالك يوم الحسا

ب تثنَّثر بالمسك منك انتشارا

وللشهداء ثناء عليك

بحسن مقامك ذاك النهارا

وأنهم بك يستبشرو

ن ألا تخاف وألا تضارا

ولم أر فيما قرأته من شعر المعتمد في المنفى اشاره الى اسم يوسف في غير هذه الأبيات ، ولعله حاول أن يستميله ويستلين قلبه بالاشادة بموقفه في يوم الزلافة ، ولعله حين لم يجد فائدة من ذلك طوى ذكره ، وأمسك عن الاشارة اليه ، وتلقى مصيره صابراً محتسباً ، ويطيل التأمل في تقلبات الدهر ويقول :

من يصحب الدهر لم يعدم تقلبه
والشوك ينبت فيه الورد والآس

يَمُرُّ حيناً وتحلو لى حوادثه
فقلمما جرحت الا ابثنت تاسو

وكن المعتمد يعرف مكائنه في نفوس الكثيرين لسالف أياديه ، وقديم احسانه ، وسابغ كرمه ، ويعلم أن أخبار أسره وسجنه وما حل به من الارزاء ، سيكون لها وقع بالغ في نفوس كثيرة ، وقد عبر عن هذا الشعور في قوله :

أنباء أسرك قد طبقن آفاقا

بل قد عمن جهات الأرض اقلاقا
سرت من الغرب لا تطوى لها قدم

حتى أتت شرقها تنعاك اشراقا
فأحرق الفجع أكباداً وأفئدة

وأغرق الدمع آماقاً وأحداقاً
قد ضاق صدر المعالي اذ نعت لها

وقيل ان عليك القيد قد ضاقا

أتى غلبت وكنت الدهر ذا غلب
للفالين وللسباق سباقا
قلت الخطوب أذلتني طوارقها
وكان عزمي للأعداء طراقا
متى رأيت صروف الدهر تاركة
إذا انبرت لذوى الأخطار أرماقا

وكان كل ما حوله وكل ما يعرض له يذكره بمحنته ، اجتاز
عليه في أسره سرب قطا ، فأثار شجونه ، وجعله يوازن بين
الحرية التي يتستع بها السرب الطائر وبين ما يعاينه هو من الأسر
والضييق والحرمان ، وهو مع ذلك لا يحسدها على حرقتها ،
ولا ينفس عليها انطلاقها . وإن يود أن يكون حائه كحائها :

بكيت الى سرب القطا اذ مررن بي
سوارح لا سجن يعوق ولا كبل
ولم تك - والله المعيد - حسادة
ولكن حينما ان شكلى لها شكل
فأسرح لا شملى صديع ولا الحشا
وجيع ولا عيناى يكيهما ثكل
هنئاً لها ان لم يفرق جميعها
ولا ذاق منها البعد من أهلها أهل
وأن لم تبت مشلى تطير قلوبها
إذا اهتز باب السجن أوصلل القفل

وما ذاك مما يعتريني وإنما
وصفت الذي في جيلة الخلق من قبل
لنفسى الى لقياء الحمام تشوق
سواى يحب العيش فى ساقه حَجَل
ألا عصم الله القطا فى فراخها
فان فراخى خانها الماء والظل
ونعت غريان بجوار المكان الذى كان أسيرا فيه ، وورد
اثر ذلك النبأ بقدم بعض نسائه عليه فقال :
غريان أغمات لا تعد من طيبة
من الليالى وأفنانا من الشجر
تظيل زغب فراخ تستكن بها
من الحرور ، وتكفيها أذى المطر
كما نعتن لى بالفال يعجبني
مخبرات به عن أطيب الخبر
ان النجوم التى غابت قد اقتربت
منا مطالعها تسرى الى القمر
على ان صدق الرحمن ما زعمت
ألا يرو عن من قوسى ولا وترى
والله والله لا تفتر واقعها
ولا تطيرت للغربات بالصور
ويا عقاربها لا تعدى أبدا
شجا وعقراً ولا نوعاً من الضرر

كما ملأتني قلبي مذ حلت بها
مخافة أسلمت عيني إلى السهر
ماذا رمتك به الأيام يا كبدي
من نبلهن ، ولارء سوى القدر
أسر وعسر ولا يسر أو ملة
أستغفر الله كم لله من نظر

وهو مع ذلك صابر لحكم الأقدار ، وقضاء مة ، لا يحمل
ضعفة ولا حقدًا وانما يأسى ، لأن العمر عاقه عن سد خائ
المعسرين . وتفريج هموم لمكرويين ، كما عاقه القيد عن حمل
السيف وخوض غمار الحروب .

ويذكر ولديه المأمون قتيل قرطبة ، وراضى قتيل رندة ،
وابنه سراج الدولة الذي قتله ابن عكاشة في قرطبة فتأجج
حسراته وتسيل عبراته فيقول في رثائهم :

يقولون صبراً ، لاسبيل إلى الصبر
سأبكى وأبكى ما تطاول من عمري
هوى الكوكبان : الفتح ثم شقيقه
يزيد فهل عند الكواكب من خبئر
تري زهرها في مآتم كل ليلة
تخمش لهفا وسطه صفحة البدر
نحن على نجمين ، أكلت ذا وذا
وأصبر ما للقلب في الصبر من عذر

مدى الدهر فليك الغمام مصابه
بصنويه يعذر في البكاء مدى الدهر
بعين سحاب واكف قطر دمعها
على كل قبر حلّ فيه أخو القطر
وبرق ذكى النار حتى كأنما
يُسَعَّرُ مما في فؤادى من الجمر
أفتح لقد فتحت لى باب رحمة
كما بيزيد الله قد زاد فى أجرى
هوى بكما المقدار عنى ولم أمت
وأدعى وفيا قد نكصت الى الغدر
توليتما والسن بعد صغيرة
ولم تلبث الأيام أن صغرت قدرى
فاوعدتما لاخترتما العود فى الثرى
إذا أتما أبصرتما فى الأسر
يعيد على سمعى الحديد نشيده
ثقيلا فتبكى العين بالجس والنقر
معى الأخوات الهالكات عليكما
وأمكما الثكلى المضرمة الصدر
فتبكى بدمع ليس للقطر مثله
وتزجرها التقوى فتصغى الى الزجر
أبا خالد أورثتنى الحزن خالدا
أبا النصر مذ ودعت ودعنى نصرى

وقبلكما قد أودع القلب حسرة

تجدد طول الدهر ثكل أبي عسرو

ودخل عليه السجن ولده أبو هاشم وكان أصغر أولاده ،
وأحبهم إليه ، وأحفظاهم على صغره أو لصغره لديه ، وهو
الذى تذكره يوم الزلافة والحرب متسعة لأوار ، والمعركة
دائرة الأرحاء ، فرأى القيود قد التوت على ساقيه ، وهو
لا يطيق أعمال قدم ، وعهده به متربعا على سرير الملك ، أو
متسنا منبر الخطابة ، أو ممتضيه صهوة جواده تخفق عليه
الألوية ، وتحف به الأبطال وغلب لرجال فلم يستطع أن يخفى
تأثره ، ويملك سوابق عبرته ، فقال المعتمد :

قيدي أما تعلني مسلتي

أبيت أن تشفق أو ترحما

دمي شراب لك واللحم قد

أكلته لا تهشم الأعظما

يبصرني فيك أبو هاشم

فينثني والقلب قد هشما

ارحم طفيلًا طائشا به

لم يخش أن يأتيك مسترحما

وارحم أخيات له مثله

جرعتهن السم والعلقما

منهن من يفهم شيئا فقد

خفنا عليه للبكاء العنى

والغير لا يفهم شيئاً فما

يفتح الا لرضاع فما

ويحاول أن يحمل نفسه على قبول ما ابتلاه به الحظ
العاثر ، ورضيه له القدر الساخر ، ليريح قلبه المصدوع ،
ويبعث بعض الطمأنينة في نفسه الوالهة المعذبة فيقول :

اقنع بحظك في دنياك ما كانا

وعز نفسك ان فارقت أوطانا

في الله من كل مفقود مضى عوض

فأشعر القلب سلوانا وإيماننا

أكلما سنحت ذكرى طربت لها

مجتّ دموعك في خديك طوفانا

أما سمعت بسلطان شبيهك قد

بزته سود خطوب الدهر سلطانا

وطن على الكره وارقب اثره فرجا

واستغنم الله تغنم منه غفرانا

وكانت تمر به ساعات يغلبه فيها اليأس ، وتطبق عليه

الشجون ، وتغيم آفاق نفسه فيقول :

تؤمل للنفس الشجية فرجة

وتأبى الخطوب السود الا تماديا

لياليك من زاهيك أصفى صحبتها

كذا صحبت قبل الملوك اللياليا

نعيم وبؤس ذا لذلك ناسخ
وبعدهما نسخ المنايا الأمانيا
ويوجه عتابه الى الدهر الذى لم يجعل فى معاملته ، ولم يقن
الحياء فى سلوكه معه فيقول :

أبى الدهر أن يقنى الحياء ويندما
وأن يمحو الذنب الذى كان قدما
وأن يتلقى وجه عتبى وجهه
بعذر يُغَشَّى صفحته التذمما
ستعلم بعدى من تكون سيوفه
الى كل صعب من مراقبك سلما
سترجع ان حاولت دونى فتكة
بأخجل من خد المبارز أحجما

والخطوب التى حلت به لم تنل منه وحده ، وانما نالت
كذلك من الذين كانوا يؤملون خيره ويرجون برّه وينيطون
به آمالهم ويعلقون عليه رجاءهم :

سلت على يد الخطوب سيوفها
فجذذن من جلدى الحصيف الأمتنا
ضربت بها أيدي الخطوب وانما
ضربت رقاب الآملين بها المنى
يا آملى العادات من تفحاتنا
كفّشوا فان الدهر كف أكفنا

وينقل المقرئ عن ^(١) أبي بكر الداني أنه في سنة ٤٨٢ هجرية أخذ بمالقة رجل كبير يعرف يابن خلف ، فسجن مع أصحاب له ، فنقبوا السجن ، وذهبوا الى حصن منت ميور ليلاً فأخرجوا قائده ولم يضرّوه ، وبينما هم كذلك اذ طلع عليهم رجل ، فسألوه ، فاذا هو عبد الجبار بن المعتمد ، فولوه على أنفسهم ، وظن الناس أنه الراضي ، فبقى في الحصن ، ثم أقبل مركب من الغرب يعرف بمركب ابن الزرقاء فانكسر بمرسى الشجرة قريباً من الحصن ، فأخذوا بنوده وطبوله وما فيه من طعام وعدة فاتسعت بذلك حالتهم ، ثم وصلت أم عبد الجبار اليه ، ثم خاطبه أهل الجزيرة وأهل أركش فدخلها سنة ٤٨٨ ولما بلغ خبر عبد الجبار الى ابن تاشفين أمر بثقاف المعتمد في الحديد ، وبقي الى أن توفي رحمه الله سنة ٤٨٨ هجرية . ويبدو لي أن هذه الرواية صحيحة في جوهرها وانما الخطأ في تحديد تاريخ دخول عبد الجبار أركش وموته ، وقد رواها صاحب القلائد بصورة لعلها أقرب الى الحقيقة ، قال في حديثه عن ثورة عبد الجبار هذا ^(٢) : « أقام (المعتمد) بالعدوة لا يروع له سرب وان لم يكن آمناً . ولا يشور له كرب وان كان في ضلوعه كامناً ، الى أن ثار أحد بنيه بأركش وهو معقل كان مجاوراً لاشيلية مجاورة الأنامل للراح ، ظاهر على بسائط وبطاح ، لا

(١) نفع الطيب الجزء الخامس صفحة ٣٤٨ .

(٢) نفع الطيب الجزء الخامس صفحة ٣٤٩ ، وقلائد العقيان صفحة ٢٧ .

يمكن معه عيش ، ولا يتمكن من منازلته جيش ، فغدا على أهلها
بالمكاره وراح ، وضيق عليهم المتسع من جهاتها والبراح ، فسار
نحوه الأمير سير بن أبى بكر رحمة الله عليه ، قبل أن يرتد طرف
استقامته اليه ، فوجده وشره قد تشمر ، وصركده قد تنمر ،
وجمره قد تسعر ، وأمره متوعر ، فنزل عُدْوَتَه ، وحل للحزم
حُبْنَوَتَه ، وتدارك داءه قبل اعضاله ، ونازله وما أعد آلات
نضاله ، وانحشدت اليه الجيوش من كل قطر ، وأفرغ من
مسالكه كل قطر ، فبقى محصورا لا يشد اليه الا سهم ، ولا ينفذ
عنه الا نفس أو وهم ، وامتسك شهورا حتى عرضه أحد الرماة ،
بسهم رماه فأصماه ، فهوى فى مطلعته ، وخر قتिला فى موضعه ،
فدفن الى جانب سريريه ، وأمن عاقبة تغريره .

وثورة عبد الجبار هذه جعلت المرابطين يستريبون بالمعتمد
ويشددون عليه الرقابة ، ويثقلونه بالقيود ، ويقول الفتح فى
ذلك : « ولما زار الشبل خيفت سَكْوَرَةُ الأسد ، ولم يرج صلاح
الكل والبعض قد فسد » . وقد عرف المعتمد ما سيحقيق به من
الضرر والمبالغة فى سوء المعاملة حينما بلغته أنباء ثورة ابنه
عبد الجبار فكان يتشكى من فعله ويتظلم ، ويتوجع ويتألم ،
ويقول : « عرض بى للمحن ورضى لى أن امتحن » . ويظهر أن
هذه الثورة الفاشلة بعثت فى بادية الأمر شيئا من الأمل فى
نفس المعتمد ، وغير غريب أن يتعلق المعتمد وهو فى سجنه
وعزلته ، وضيقه وحيرته بالأمل الواهى ، والذى تقل خبر
تشكيه للفتح صاحب القلائد يقول : انه بعد أن عبر عن ألمه لما

قام به ولده : « أطرق ورفع رأسه وقد تهلت أسرته ، وظللت مسرته ، ورأيته قد استجمع ، وتشوف الى السماء وتطلع ، فعلت أنه قد رجا عودة الى سلطانه ، وأوبة الى أوطانه ، فما كان الا بمقدار ما تنداح دائرة ، وتلتفت مقلة حائرة حتى قال :

كذا يهلك السيف في جفنه الى هز كفى طويل الحنين
كذا يعطش الرمح لم أعقله ولم تروه من نجيع يميني
كذا يمنع الطرق عنك الشكيم مرتقبا غرة في كمين
كأن القوارس فيه ليوث تراعى فرائسها في عرين
ألا شرف يرحم المشرفي مما به من شَمَات الوتين
ألا كرم ينعش السمهرى ويشفيه من كل داء كمين
ألا حَنَّة لابن محنية شديد الحنين ضعيف الأنين
يؤمل من صدرها ضمة تبوئه صدر كف مَعِين

وهكذا ذكرته ثورة ابنه بمواقفه في الحروب ، وأثارت حنينه الى حمل السلاح ، وضرب الهام واراقة الدماء وازهاق الأرواح .

وكانت طائفة من أهل فاس^(١) قد عاثت فيها فسادا ، وأزعجوا أهلها بافراطهم في التعدي والاقدام على الكبائر ، فتدارك أمرهم يوسف ، وأطفأ جمرهم ، وأوجعهم ضرباً ، وسجنهم بأغمات ، والمعتد اذ ذاك معتقل هناك ، ولما علمت جماعة منهم بوجود المعتد في السجن رغبوا الى سجانهم أن

(١) الجزء الخامس من نفح الطيب صفحة ٣٥٢ .

يرخص لهم بلقائه ، والاستمتاع بحديثه ، فخلّى السجان ما
بينهم وبينه ، فكان المعتمد يتسلى بمجالستهم ، ويأنس بقربهم ،
ويستريح اليهم بجواه ، ويبشهم آلامه وشكواه ، الى أن شفع
فيهم وانطلقوا من وثاقهم ، وبقي هو وحيدا في محبسه يشكو
ضيق الكبل ، فلما دخلوا عليه مودعين رثين لحاله قال :

أما لانسكاب الدمع في الخد راحة
لقد آن أن يفنى ويفنى به الخد
هبوا دعوة يا آل فاس لمبتلى
بسا منه قد عافاكم الصمد الفرد
تخلصتم من سجن أغمات والتوت
على قيود لم يحن فكها بعد
من الدهم أما خلقها فأساود
تلوى وأما الأيد والبطش فالأسد
فهنيتم النعمى ، ودامت لكلكم
سعادته ان كان قد خاتنى سعد
خرجتم جماعات وخلفت واحدا
ولله فى أمرى وأمركم الحمد

وفى يوم سقوط اشبيلية فى يد المرابطين واحاطتهم بقصر
المعتمد ووقوع السلب والنهب فيه كان فى جملة من سبى من
نساء القصر بثينة ابنته ، وأمها الرميكية ، وكانت بثينة هذه
مثل أمها فى الجمال والبديهة الحاضرة وبراعة النادرة ، وهى

تعد (١) من أدبيات الأندلس ونسائها المشهورات بالبلاغة ، وقد
ظل المعتمد والرميكية في وله دائم لا يعلمان ما آل اليه أمر
بثينة ، وكان أحد تجار اشبيلية اشتراها على أنها جارية سرّية ،
ووهبها لابنه ، فلما هيئت له وأراد الدخول عليها امتنعت ،
وأظهرت له نسبها ، وقالت له : « لا أحلّ لك الا بعقد زواج
شرعى ان رضى أبى بذلك » ، وأشارت عليهم بتوجيه كتاب من
قبلها لأبيها ، وانتظار جوابه ، وقد ضمنت كتابها لأبيها هذه
الآيات :

اسمع كلامى واستمع لمقالتي
فهى السلوك بدت من الأجياد
لا تنكروا أنى سبيت وأنى
بنت لملك من بنى عباد
ملك عظيم قد تولى عسره
وكذا الزمان يؤول للافساد
لم أراد الله فرقة شملنا
وآذنت طعم الأسى من زاد
قام النفاق على نبى فى ملكه
فدنا الفرق ولم يكن بمراد
فخرجت هاربة فحازنى امرؤ
لم يأت فى أفعاله بسداد

١ الجزء السادس من ثفع الطيب صفحة ٢٠ .

اذ باعنى بيع العبيد فضمنى
من صائنى الا من الأنكاد
وَرادنى نكاح نجل طاهر
حسن الخلائق من بنى الأنجاد
ومضى اليك يسوم رأيك فى الرضا
ولأنت تنظر فى طريق رشادى
فعساك يا أبتى تعرفنى به
ن كان مسن يرتجى لوداد
وعسى رميكية الملوك بفضلها
تدعون بالخير والاسعاد

فلما وصل شعرها لأبيها المعتسد وهو واقع فى شرك
الكروب والأزمات ، سر هو وأمها بحياتها ، اذ علما مآل
أمرها ، ووافق المعتسد على زوجها من الصبى المذكور ،
وكتب اليها كتابا يدل على حسن صبره ، وجميل رآيه ، وأوصاها
فيه بزوجها قائلا :

بنيتى كونى به برّة فقد قضى الدهر بسعافه
ووفى له شعراء بلاطه ، ولم ينسوا له ما طوّق به عناقهم
من الجسيل ، وما أسداه اليهم من المن والأيدى البيض .
فتجشموا الرحلة الى أغمات لمواساته فى كربته ، ومشاركته فى
محنته .

ومن الشعراء الذين وفوا له الأديب الشاعر أبو بكر الدانى
المعروف بابن اللبانة ، وكان المعتسد يخصه بالتقريب ، ووليه

انعاما واحسانا ، ولما رأى الدانى المعتمد وهو يعانى ظلمة
السجن وقد عضت بساقيه حلقات الكبل نظم قصيدته التائية
المشهورة التى يقول فى مطلعها :

لكل شىء من الأشياء ميقات
وللسنى من مناياهن غايات
والدهر فى صبغة الحرباء منغمس
ألوان حالته فيها استحالات
ونحن من لعب الشطرنج فى يده
وربما قُمرت بالبيدق^(١) الشاة
فانقض يدك من الدنيا وساكنها
فالأرض قد أقفرت والناس قد ماتوا
وقل لعالمها الأرضى قد كتمت
سريرة العالم العلوى أغمات
طوت مَظَلَّتْهَا لا بل مذلتها
من لم تزل فوقه للعز رايات
من كان بين الندى والبأس أنصله
هنديّة وعطاياه هنيّادات
رماه من حيث لم تستره سابعة
دهر مصيياته نبل مصييات

(١) علق ابن خلكان فى وفياته على هذا البيت بقوله : « هذا غلط ، فان الشاء
بالهاء الملك بالعجمى ، واذا كان كذلك فلم تسلم له التاء فيه لأنها على حرف التاء » .
(الجزء الرابع صفحة ١٢٣) .

أنكرت إلا التواءات القيود به
وكيف تنكر في الروضات حيات
وقلت هن ذؤابات فلم عكست
من رأسه نحو رجله الذؤابات
رأوه ليثا فخافوا منه عادية
عذرتهم فلمعدو الليث عادات
لو كان يفرج عنه بعض آونة
قامت بدعوته حتى الجمادات
بحر محيط عهدناه تجيء له
كنقطة الدارة السبع المحيطات
لهفى على آل عباد فانهم
أهله ما لها فى الأفق هالات

وفى سنة ٤٨٦ أى بعد مضى سنتين على تقى المعتمد فى
أغمات ، كان الدانى هناك يواسى أميره ويفد عليه « وفادة وفاء
لا وفادة استجداء » كما كان يقول ، وقد نظم بها قصيدة طويلة
عبر فيها عن خالص وجدانه ، وبث فيها أحزانه لما أصاب المعتمد،
وبكى سالف أيامه ، يقول فى مطلعها :

تنشق رياحين السلام فانما
أفض بها مسكا عليك مختما
وقل لى مجازاً ان عدمت حقيقة
لعلك فى نعمى وقد كنت منعما

أفكر في عصر مضى لك مشرقا
فيرجع ضوء الصبح عندى مظلماً
ومنها :

لئن عظمت فيك الرزية اننا
وجدناك منها في البرية أعظماً
قناة سعت للبطعن حتى تقصدت
وسيف أطال الضرب حتى تثلما
بكى آل عباد ولا كمحمد
وأولاده صوب الغمام اذا همى
صباحهم كناية نحمد السرى
فلما عدمناهم سرينا على عمى
وكنا رعيننا العز حول حماهم
فقد أجذب المرعى وقد أقفر الحمى
وقد ألبست أيدي الليالى محلهم
مناسج سدئ الغيث فيها وألحما
نصور خلت من ساكنيها فما بها
سوى الأدم تمشى حول واقعة الدمى
تجيب به الهام الصدى ولطالما
أجاب القيان الطائر المترنما
كأن لم يكن فيها أنيس ولا التقى
بها الوفد جمعا والخميس عرمرما

ومنها :

حكيت وقد فارقت ملكك مالكا
ومن ولهى أحكى عليك متما
مصاب هوى بالنيرات من العلى
ولم يبق فى أرض المكارم معلما
تضيق على الأرض حتى كأنما
خلقت وإياها سواراً ومعصما
بكيتك حتى لم يخل لى الأسى
دموعاً بها أبكى عليك ولا دما
بكاك الحياء، والريح شقت جيوبها
عليك وتاج البرق باسمك معلما
ومزق ثوب البرق واكتست الضحى
حدادا وقامت أنجم الجو مأتما
وحار ابنك الاصباح وجدا فما اهتدى
وغار أخوك البحر فيضا فماطى
وما حل بدر التم بعدك دارة
ولا أظهرت شمس الظهيرة مبسما
وكانت قيود المعتمد قد انفكت عنه فأشار الى ذلك بقوله :
قيودك ذابت فانطلقت لقد غدت
قيودك منهم بالمكارم أرحما
عجبت لأن لان الحديد وان قسوا
لقد كان منهم بالسريرة أعلما

سينجيك من نجى من السجن يوسف
ويؤويك من آوى المسيح بن مريم

ولما عزم الداني على الارتحال وأزمع السفر بعث اليه المعتمد
مع ابنه شرف الدولة بعشرين مثقالا مرابطية وثوبين غير مخيطين ،
وذلك بعد أن صرف حيلة واستنفد ما قبله ، وكتب معها :

اليك النزر من كف الأسير

فإن تقبل تكن عين الشكور

تقبل ما يذوب له حياءً

وان عذرتة حالات الفقير

ولا تعجب لخطب غض منه

أليس الخسف ملتزم البدور

ورج بجبره عقبى نداء

فكم جبرت يداه من كسير

وكم أعلت يداه من حضيض

وكم حطت ضباه من أسير

وكم أحطى رضاه من حظى

وكم شهرت علاه من شهير

وكم من منبر حنت اليه

أعلى مرتقاء ومن سرير

زمان تنافست في الحظ منه

ملوك قد تجور على الدهور

زماناً تراجعت عن جانبيه
جياذ الخيل بالموت المبير
بحيث يضير بالأبطال دعر
ويثلقى ثم أرجح من ثبير
فقد نظرت إليه عيون نحس
مضت منه بسعدوه النظر
نحوس كن في عقبى سعود
كذلك تدور أقدار القدير
فرد الداني صلته هذه وكتب إليه :
سقطت من الوفاء على خير
فذرني والذي لك في ضميري
تركت هوائك وهو شقيق ديني
لئن شقت برودي عن غدور
ولا كنت الطليق من الرزاي
لئن أصبحت أجحف بالأسير
أسير ولا أصير الى اغتنام
معاذ الله من سوء النصير
إذا ما الشكر كان وأن تناهي
على نعي فما فضل الشكور
جذيمة أنت والزباء خانت
وما أنا من يقصر عن قصير

أنا أدرى بفضلك منك انى
لبست الظل منه فى الحرور
غنى النفس أنت وان ألحت
على كفيك حالات الفقير
تصرف فى الندى حيل المعانى
فتسمح من قليل بالكثير
أحدث منك عن نبع غزير
تفتح عن جنى زهر نضير
وأعجب منك أنك فى ظلام
وترفع للعفاة منار نور
رويدك سوف توسعنى سروراً
إذا عاد ارتقاؤك للسريـر
وسوف تحلنى رتب المعالى
غداة تحل فى تلك القصور
تزيد على ابن مروان عطاء
بها وأزيد ثم على جرير
تأهب أن تعود الى طلوع
فليس الخسف ملتزم البدور
فراجعـه المعتمد بهذه الأبيات :

رد برى بغياً على وبراً
وجفا فاستحق لوما وشكراً

حاط نررى اذ خاف تأكيد ضررى
فاستحق الجفاء اذ حاط نررا
فاذا ما طويت فى الحمد بعضا
عاد لومى فى البعض سرا وجهرا
يا أبا بكر الغريب وفاء
لا عدمناك فى المغارب ذخرا
أى تقع يجدى احتياط شفيق
مت ضراً فكيف أرهب ضرا
فأجابه ابن اللبانة :

أيها الماجد السّميدع عذرا
صرفى البر انما كان برا
حاش لله أن أجيح كريم
يتشكى فقراً وكم سد فقرا
لا أزيد الجفاء فيه شقوقاً
غدر الدهر بى لئن رمت غدرا
ليت لى قوة أو آوى لركن
فترى للوفاء منى سرا
أنت علمتنى السيادة حتى
ناهضت همى الكواكب قدرا
ربحت صفقة أزيل برودا
عن أديمى بها وألبس فخرا

وكفاني كلامك الرطب نيلًا
كى ألقى دُرًّا وأطلب تبرًا
لم تمت انما المكارم ماتت
لا سقى الله بعدك الأرض قطراً

وقد ألف الداني كتابا اشتمل على قصائد ومقطوعات في
البكاء على أيام بنى عباد واندثار دولتهم سماه : « السلوك في
وعظ الملوك » . وقد وفد على المعتمد وهو في أغمات عدة
وفادات .

وقد ودع الداني المعتمد قبل ارتحاله من أغمات بقصيدة
مطلعها :

وداع ولكنى أقول سلام وللنفس في ذكر الوداع حمام
فأجاب المعتمد بقصيدة مطلعها :

كلامك حر والكلام غلام
وسحر ولكن ليس فيه حرام
ودر ولكن بين جنبيك بحره
وزهر ولكن الفؤاد كمام
ويقول منها :

أضياء لنا أغمات قريبك برهة
وعاد بها حين ارتحلت ظلام
وأبقى أسام الذل في أرض غربة
وما كنت لولا الغدر ذاك أسام
وابن حمديس من الشعراء الذين حفظوا للمعتمد عهده ،

بوا ذمامه ، فوفوا له في أسره . وقد نظم قصيدة عبر فيها عن
نه لما أصاب المعتمد يقول في مطلعها :

أباد حياتي الموت ان كنت ساليا
وأنت مقيم في قيودك عانيا
وان لم أبار المزن قطراً بأدمع
عليك فلا سقيت منها الغوادية
تعزيت من قلبي الذي كان ضاحكاً
فما ألبس الأجفان الا بواكيا
وما فرحى يوم المسرة طائعا
ولا حزنى يوم المساء عاصيا
ومنها قوله :

وما كنت أخشى أن يقال محمد
يميل عليه صائب الدهر قاسيا
حسام كفاح بات في السجن مغدا
وأصبح من حلى الرئاسة عاريا
فيا جلاهد الزمان هضابه
أما كنت بالتمكين في العز راسيا
وقوله :

مضيت حميدا كالغمامة أقشعت
وقد ألبست وشى الربيع المغانيا
سأدمى جفوني بالسهاد عقوبة
اذا وقفت عنك الدموع الجواريا

وأمنع نفسي من حياة هنيئة
لأنك حتى تستحق المراثيا
وكتب اليه المعتمد وهو أسير بأغمات يذكر قصوره في
اشبيلية ويأسى على ماضى أيامه الزاهرة :
غريب بأرض المغربين أسير
سيبكي عليه منبر وسرير
وتند به البيض الصوارم والقنا
وينهل دمع بينهم غزير
سيبكيه في زاهيه والزاهر الندى
وطلابه والعرف ثم نكير
إذا قيل في أغمات قد مات جوده
فما يرتجى للجود بعد نشور
مضى زمن والملك مستأنس به
وأصبح عنه اليوم وهو تفور
برأى من الدهر المضلل فاسد
متى صلحت للصالحين دهور
أذل بني ماء السماء زمانهم
وذل بني ماء السماء كثير
فما مأوها إلا بكاء عليهم
يفيض على الأكباد منه بحور
فيا ليت شعري هل أبيت ليلة
أمامي وخلفي روضة وغدير

بمنبتة الزيتون موروثة العلا
تغنى قيان أو ترن طيور
بزاهرها السامى الذرى جاده الحيا
تشير الثريا نحونا ونشير
ويلحظنا الزاهى وسعد سعوده
غيورين والصب المحب غيور
تراه عسيرا لا يسيرا مناله
ألا كل ما شاء الاله يسير
قضى الله فى حمص الحمام وبعثرت
هنالك منا للنشور قبور
فأجابه ابن حمديس :

جرى بك جد بالكرام عشور
وجار زمان كنت فيه تجير
لقد أصبحت ييىض الطبى فى غمودها
انائاً لترك الضرب وهى ذكور
تجىء خلافا للأمر أمور
ويعدل دهر فى الورى ويجور
أتىأس من يوم يناقض أمسه
وزهر البرارى فى البروج تدور
وقد تنبه الأقدار بعد خمولها
وتخرج من تحت الخسوف بدور
أعز الأسارى أن يقال محمد :

غريب بأرض المغربين أسير

لقد صنت دين الله خير صيانة

كأنك قلب فيه وهو ضمير

وذهب ابن حمديس لزيارة المعتمد في أغمات ، فصرفه
بعض خدمه بأنه لا يوجد في ذلك الوقت ، فرجع ابن حمديس
الى منزله ، فأخبر المعتمد بمجيئه ورجوعه ، فعز عليه ذلك ،
وعتف خدمه ، وكتب اليه بالغداة بهذا الشعر معتذراً :

حجبت فلا والله ما ذاك عن أمرى

فأصغ فدتك النفس سمعا الى عذرى

فما صار اخلال المكارم لى هوى

ولا دار اخجال لمثلك فى صدرى

ولكنه لما أحالت محاسنى

يد الدهر شلت عنك دأبا يد الدهر

عدمت من الخدام كل مهذب

أشير اليه بالخفى من الأمر

ولم يبق الا كل أدكن ألكن

فلا آذن فى الأذن يبرأ من عرّ

وهل كنت الا البارد العذب انما

به يشتفى الظمآن من غلة الصدر

ولو كنت ممن يشرب الخمر كنتها

اذا نزع تفسى الى لذة الخمر

وأنت ابن حمديس الذى كنت مهديا

لنا السحر ان لم تأت فى زمن السحر

فجاوبه ابن حمديس بقصيدة يقول في مطلعها :
أمثلك مولى يبسط العبد بالعذر
بغير اتقباض منك يجرى الى ذكر
ومنها قوله :

وانى امرؤ فى خجلة مستمرة
يذوب لها فى الماء جامدة الصخر
أتتنى قوافيك التى جل قدرها
بما نقطة منهن مفرقة بحرى
لعلك اذ أغنيتنى منك بالندى
أردت الغنى لى من مديحك بالفخر
لعمرك انى ما توهمت ريبة
تبرقع وجه العذر عندك بالنكر
وكنى أمل الجود منك وأنت لا
تمل عطاءً منك يأتى على الوفر
فكيف أظن الظن غير مبرأ
تواضع فيه كوكب الجوع عن قدر
الى أن يقول :

بكيت زمانا كان لى بك ضاحكا
وكسر جناحى كان عندك ذا جبر
وأطرقت لما حالت الحال حيرة
تجير منها عالم النفس فى صدرى
فخذها كما أدرى وأن كل خاطرى
وان لم يكن منها البديع الذى تدرى

ومن الذين زاروه في سجنه بأغمات ^(١) أبو محمد عبد الله
ابن ابراهيم عم الحجارى صاحب المسهب ، ويروى لنا أنه لما
زاره ورأى ما يعاينه حملته شدة الحمية له والامتعاض لما حل
به على أن يكتب على حائط سجنه متمثلاً :
فان تسجنوا القسرى لا تسجنوا اسمه
ولا تسجنوا معروفه في القبائل
وتفقد الكتابة بعد أيام ، فوجد تحت البيت : « لذلك
سجنائه » .

ومن يجعل الضرغام بازا لصيده
تصيده الضرغام فيما تصيدا
ويقول انه لم يدر من جابوب بذلك ، ولما عاد بعد أيام وجده
قد مضى ، وأعلم بذلك المعتمد فقال له : « صدق المجابوب ،
وأنا الجانى على نفسه ، والحافر بيده لرمسه » . ولما أراد وداعه
أمر له المعتمد باحسان على قدر ما استطاع ، فارتجل قوله
مادحا له :

آليت لا أقبل احسانكم والدهر فيما قد عراكم منى
ففى الذى أسلفتم غنية وان يكن عندكم قد نسى
وكانت زيارات هؤلاء الشعراء له ووفادتهم عليه تؤنس من
وحشته وتبعث ضوئا فى ظلمة أيامه ، وغياهب أسره وسجنه ،
ولكنها كانت تمر سريعا ، ويبقى له بعدها القيد والأسر والسجن
والتفكير فى ماضيه والتألم من حاضره .

(١) الجزء الخامس من نفع الطيب صفحة ١١١ .

وفاة المعتمد

كان للأسر والسجن ومعاناة الأغلال والكبول وما اتتبه
نفسه من الألم وتعاورها من الهم ، أثر قوى فى انهالك صحة
المعتمد وهدم بنيانه الوثيق ، ويظهر أن المرض اشتد به فى
السنتين الأخيرتين من حياته ، وقد شاركته فى آلامه امرأته
المحبوبة الرميكية ، وكان وجودها معه يخفف الى حد ما
من ألمه وبلواه ، وبرغم ما كانت تعانيه من بؤس فانها لم تفقد
ميلها الى المرح وارسال النكات البارة ، ففى أوائل المحنة
والنفى فى أغمات قالت له : « لقد هُنا هنا » . فقال مجنسا
كلامها :

قالت : لقد هُنا هنا . مولاي أين جأهنا
قلت لها : الى هنا صيرنا الهُنا
ولما مرض قالت له : « يا سيدى مالنا قدرة على مرضاتك
فى مرضاتك » .

وقد بعثت ثورة عبد الجبار ابنه بعض الأمل فى نفس
المعتمد ، ولكن المرابطين لم تفتهم خطورتها ، والمبادرة الى
القضاء عليها ، واخماد نيرانها ، وشددت الرقابة على المعتمد
بعد ذلك ، وأحكمت الحراسة عليه ، وأثقلت قيوده ، وقد أياسه
ذلك من العودة الى ملكه ، وأوهن جأشه ، وحل عقدة صبره ،

ولما اضمحل أمله وساءت صحته ، وأحس اقتراب الخاتمة ،
نظم القصيدة الآتية وأوصى بكتابتها على قبره :

قبر الغريب سقاك الرائح الغادى
حقا ظفرت بأشلاء ابن عباد
بالحلم بالعلم بالنعمى اذا اتصلت
بالخصب ان أجذبوا بالرى للصادى
بالطاعن الضارب الرامى اذا اقتتلوا
بالموت أحمر بالضرغامة العادى
بالدهر فى تهم بالبحر فى نعم
بالبدر فى ظلم بالصدر فى النادى
نعم هو الحق حابانى به قدر
من السماء فوافانى لميعاد
ولم أكن قبل ذاك النعش أعلمه
أن الجبال تهادى فوق أعواد
كفاك فأرفق بما استودعت من كرم
رواك كل قطوب البرق رعّاد
يكى أخاه الذى غيت وابله
تحت الصفيح بدمع رائح غادى
حتى يجودك دمع الطل منهمرا
من أعين الزهر لم تبخل باسعاد
ولا تزل صلوات الله دائمة
على دفينك لا تحصى بتعداد

ويعصف لنا الفتح في القلائد حالة المعتمد في سنواته الأخيرة بقوله ^(١) : « ولم تزل كبده تتوقد بالزفرات ، وحلده يتردد بين النكبات والعثرات ، ونفسه تنقسم بالأشجان والحسرات ، الى أن شفته منيته ، وجاءته بها أمنيته ، فدفن بأغسات ، وأريح من تلك الأزمات ، وعطلت المآثر من حلاها ، وأفردت المفاخر من علاها ، ورفعت مكارم الأخلاق ، وكسدت نفائس الأعلام ، وصار أمره عبرة في عصره ، وصاب أندى عبّرة في مصره » . وتوفي المعتمد في لسجن بأغسات ^(٢) لأحدى عشرة ليلة خلت من شوال سنة ٤٨٨ هجرية ، وقيل في ذي الحجة ، ونودي في جنازته بالصلاة على الغريب بعد عظم سلطانه وجلالة شأنه ، واجتمع عند قبره جماعة من الشعراء الذين كانوا يقصدونه بالمدائح ويجزل لهم العطايا ، ولما كان أول عيد بعد وفاة المعتمد وفد الشاعر أبو بحر بن عبد الصمد الى أغسات لزيارة قبر المعتمد كما كان يزوره في قصره ، ويقول الفتح ^(٣) : « فلما كان يوم العيد وانتشر الناس ضحى قام على قبره عند انفصالهم من مصلاهم واختيالهم بزيّتهم وحلاهم ، وقال بعد أن طاف بقبره والتزمه ، وخر على ترابه ولثمه :

ملك الملوك أسامع فأنادى

أم قد عدتلك عن السماع عوادي

(١) قلائد العقيان صفحة ٣١ .

(٢) وفيات الأعيان الجزء الرابع صفحة ١٢٨ .

(٣) قلائد العقيان صفحة ٣١ .

لما خلت منك القصور ولم تكن
فيها كما قد كنت في الأعياد
أقبلت في هذا الثرى لك خاضعا
وتخذت قبرك موضع الانشاد
قد كنت أحسب أن تبدد أدمعى
نيران حزن أضرمت بفؤادى
فاذا بدمعى كلما أجريته
زادت على حرارة الأكباد
فالعين في التسكاب والتهتان والأ
حشاء في الاحراق والايقاد
يا أيها القمر المنير أهكذا
يمحى ضياء النير الوقاد
أفقدت عيني مذ فقلت انارة
لحجابها في ظلمة وسواد
ما كان ظنى قبل قبرك أن أرى
قبرا يضم شوامخ الأطواد
الهضبة السماء تحت ضريحه
والبحر ذو التيار والأزباد
عهدي بملكى وهو طلق ضاحك
متهلل الصفحات للقصاد
والمال ذو شمل بداد والندى
يهمى وشمل الملك غير بداد

أيام تخفق فوقك الرايات فو
ق كتائب الرؤساء والأجناد
والأمر أمرك والزمان مبشر
بممالك قد أذنت وبلاد
والخيل تمرح والفوارس تنحني
بين الصوارم والقنا المياد

وهي قصيدة أطلال انشادها ، وبنى بها اللواعج وشادها ،
فانحشر الناس اليه وأحفلوا ، وبكوا لبكائه وعولوا ، وأقاموا
أكثر نهارهم مطيفين به طواف الحجيح ، مديمين البكاء والعجيح ،
ثم انصرفوا وقد نزفوا ماء عيونهم ، وأقرحوا مآقيهم وجفونهم ،
وهذه نهاية كل عيش ، وغاية كل ملك وجيش .

وهكذا في سياق النكبات المتلاحقة ، وفي غمرة الآلام التي
كان يعانيها وافت المعتمد منيته ، وهو في السادسة بعد الخمسين
من عمره الحافل بالمسرات والأحزان والنعيم والشقاء ، وهكذا
كانت خاتمة حياة الملك الشاعر ، الذي كان بطلا في الندى
والكرم ، وبطلا في الجهاد والجلاد ، وكانت زوجته المحبوبة
اعتماد الرميكية قد سبقته الى القبر ، ولا نزاع في أن يوسف
ابن تاشفين كان رجلا عبقريا ، ومن الأبطال المبرزين في تاريخ
المغرب ، وأحد مؤسسي الدول ، ولكن معاملته الفظة القاسية
لرجل مثل المعتمد تنقص من اعجابنا به وتقديرنا له .

وقد اقتضت سياسته خلع ملوك الطوائف ، ولكنه فرق
بينهم في المعاملة ، وقد اتزعج ملك حفيدي باديس صاحب

غرناطة وأرسل بهما الى المغرب ولكنهما لم يجدا ما يشكوان
منه بعد ذلك ، فقد أطلق لهما حريتهما على شريطة ألا يغادرا
أرض مراکش ، وأجرى عليهما رزقا كافيا الى حد أن الأمير
عبد الله صاحب غرناطة ترك ثروة لأولاده ، ووضح أن يوسف
مالت به العصبية البربرية الى حسن معاملة هذين الأسيرين ،
فقد كانا مثله من أصل بربرى ، ولكن مصير الأمراء الأندلسيين
كان يختلف عن ذلك ، وقد رأينا مصرع المتوكل صاحب يطليوس
وابنيه : الفضل والعباس وولدى المعتمد ، وقد أبقي على حياة
المعتمد ، ولكنه نقاه وسجنه وقيده وعامله أسوأ معاملة ، ولم
يكن فى هذه المعاملة محمود الطريقة ولا سديد المذهب ، وقد
نشأ يوسف فى الصحراء ، وعاش عيشة فيها شظف وخشونة ،
وربما دلت معاملته للمعتمد على ما فى طبعه من غلظة ، وما فى
خلقه من جفوة ، برغم ما اشتهر به من التقوى ونفاذ الفطنة

وقد كان المؤرخ الكبير ابن الأثير من المعجبين بيوسف
القادرين لمزاياه قال عنه فى تاريخه ^(١) : « كان حسن السيرة
خيرا عادلا يميل الى أهل الدين والعلم ويكرمهم ، ويصدر عن
رأيهم ، ولما ملك الأندلس جمع الفقهاء وأحسن اليهم ، فقالوا
له : ينبغى أن تكون ولايتك من الخليفة لتجب طاعتك على
الكافة ، فأرسل الى الخليفة المستظهر بالله أمير المؤمنين ، رسولا
ومعه هدية كبيرة ، وكتب معه كتابا يذكر ما فتح الله به من بلاد

(١) الكامل لابن الأثير الجزء الثامن صفحة ٢٣٦ .

الافرنج وما اعتمده من نصرة الاسلام ، ويطلب تقليدا بولاية البلاد ، فكتب له تقليد من ديوان الخلافة بما أراد ولقب : « أمير المسلمين » وسيّرت اليه الخلع فسر بذلك سرورا عظيما ، وكان يوسف حليما كريما دينا خيرا يحب أهل العلم والدين ويحكمهم في بلاده ، وكان يحب العفو عن الذنوب والصفح . ولكن ما صنعه يوسف بينى عباد حمل هذا المؤرخ المنصف على أن يقول : « وفعل أمير المسلمين بهم فعلا لم يسلكها أحد ممن قبله ، ولا يفعلها أحد ممن يأتي بعده الا من رضى لنفسه بهذه الرذيلة ، وذلك أنه سجنهم فلم يجر عليهم ما يقوم بهم حتى كانت بنات المعتمد يغزلن للناس بأجرة ينفقنها على أنفسهن وذكر المعتمد ذلك في أبيات ، فأبان أمير المسلمين بهذا الفعل عن صغر نفس ولؤم قدرة »

ويعزو لفقهاء ورجال الدين ليوسف الكثير من الفضائل والصفات الحميدة ، ولا نزاع في أن يوسف كان يتحلّى بمزايا ممتازة ، ومواهب نادرة ، مثل الحزم والشجاعة والكفاية الحربية والقدرة على قيادة الجيوش والجماعات ، ولكن كانت تنقصه حسن معاملة العدو المنهزم ، وهى فيما أعلم من شيم الأبطال وعظماء الرجال ، وربما كان للفرق الكبير بين نشأة الرجلين - يوسف والمعتمد - والتفاوت الواضح في مزاجهما وشخصيتهما أثر كبير في موقف يوسف من المعتمد وإمعانه في القسوة معه . وقد كان للمعتمد أخطاء من غير شك ، وبعضها أخطاء خطيرة ، وكان في سلوكه باعتباره ملكا - ما يصح أن يؤخذ به

ويلام عليه ، ولكن اذا نظرنا من الناحية الانسانية الخالصة نجد
أن يوسف قد بالغ في الاساءة اليه ، ولم يكن هناك ما يسوغ
كل هذه القسوة والامعان في اذلال رجل فقد ملكه وأقدر
أبنائه وأصبح سليل الحول ، مهبط الجناح . وقد أشار الشاعر
النائر الوزير ابن عبدون الى بنى عباد ومدحهم بعد انقضاء
دولتهم وتعفية الزمن على آثارهم بقوله في احدى قصائده :

يا نائم الليل في فكر الشباب أفق
فصبح شيبك في أفق النهى بادي
غضت عنانك أيدي الدهر ناسخة
علما بجهل واصلاح بافساد
وأسلمت للمنايا آل مسلمة
وعبدت للرزايا آل عباد
لقد هوت منك خاتنها قوادمها
بكوكب في سماء المجد وقاد
ومنها في مدحهم :

ومالك كان يحيى شول قرطبة
أستغفر الله بل شول بغداد
شق العلوم نطاقا والعلا زهرا
فبين ما بين رواد ووراد
وقال الشاعر أبو محمد بن غانم يذكر بنى عباد :
ومن الغريب غروب شمس في الثرى
وضيائها باق على الآفاق

وكرم المعتمد ونبالة أخلاقه وسجاجة نفسه وأدبه وشاعريته
وشجاعته ومأساة حياته ، جعل النفوس تميل اليه وتعطف على
ذكره ، وقد زار قبره بعد مضي ٢٧٣ سنة على وفاته لسان الدين
ابن الخطيب الوزير الأندلسي والسكراتب العالم الذي بعث
الاعجاب به واللهج بذكره المقرئ على تأليف كتابه : « نفع
الطيب » . قال لسان الدين ^(١) : « وقفت على قبر المعتمد بن
عباد بمدينة أغمات في حركة راحة أعملتها الى الجهات المراكشية ،
باعثها لقاء الصالحين ومشاهدة الآثار سنة ٧٦١ ، وهو بمقبرة
أغمات في نسر من الأرض ، وقد حفت به سِدْرَة ، والى
جانبه قبر اعتماد حظيته مولاة رميك ، وعليها هيئة التغرب
ومعاناة الخمول من بعد الملك ، فلا تملك العين دمعها عند
رؤيتهما ، فأنشدت في الحال :

قد زرت قبرك عن طوع بأغمات
رأيت ذلك من أولى المهمات
لم لا أزورك يا أندى الملوك يدا
ويا سراج الليالى المدلهمات
وأنت من لو تخطى الدهر مصرعه
الى حياتى لجادت فيه أيباتى
أناف قبرك فى هضب يميزه
فتتحيه حفيات التحيات

(١) نفع الطيب الجزء الخامس صفحة ٢٢٧ / ٢٢٨ .

كرمت حياً وميتاً واشتهرت علا
فأنت سبطان أحياء وأموات
ما رىء مثلك فى ماض ومعتقدى

أن لا يرى الدهر فى حال وفى آتى»

ويقول المقرئ (١): «وقد زرت أئنا قبر المعتمد والرميكية
أم أولاده ، حين كنت بمراكش المحروسة عام ١٠١٠ هجرية
وعثمى على أمر القبر المذكور ، وسألت عنه من تظن معرفته
له ، حتى هدانى اليه شيخ طعن فى السن ، وقال لى : « هذا
قبر ملك ملوك الأندلس ، وقبر حظيته التى كان قلبه بحبها
خفاقا غير مطمئن » . فرأيت فى ربوة حسبا وصفه ابن الخطيب
رحمه الله تعالى فى الأبيات ، وحصلت لى من ذلك المحل خشية
وادكار ، وذهبت بى الأفكار فى ضروب الآيات ، فسبحان من
يؤتى ملكه من يشاء لا اله غيره وارث الأرض ومن عليها وهو
خير الوارثين » .

ويروى لنا أبو بكر الدانى المعروف بابن اللبانة ، أن رجلا
من أهل اشبيلية ، كان يحفظ شعر المعتمد ، ثم خرج منها لنية
منه الى أقصى حى فى العرب ، فأوى الى خيمة من خيماتهم ،
ولاذ بذمة راع من رعاتهم ، فلما توسط القمر فى بعض الليالى
وهجع السامر وحاول النوم لم يغمض له جفن واعتراه أرق
فخرج من الخيمة يستنشق النسيم العليل ويجيل الطرف فى

(١) نفع الطيب الجزء الخامس صفحة ٣٥٦ .

لقمر وهو يتخطر في السماء بين زهر النجوم ، وعاجت به
الذكريات على الدولة العبادية وعهودها الخاليات ، وأيامها
النضرات ، وأخذ يتغنى بأبيات المعتمد التي يقول فيها :

ولقد شربت الراح يسطع نورها
والليل قد مد الظلام رداء

حتى تبدى البدر في جوزائه
ملكا تناهى بهجة وبهاء
لما أراد تنزها في غربه

جعل المظلة فوقه الجوزاء
وتناهضت زهر النجوم يحفه

لألاؤها فاستكمل اللألاء
وترى الكواكب كالمواكب حوله

رفعت ثرياتها عليه لواء
وحكيته في الأرض بين مواكب

وكواعب جمعت سنا وسناء
ان نشرّت تلك الدروع حنادسا

ملأت لنا هذى الكئوس ضياء
واذا تغنت هذه في مزهر

لم تأل تلك على التريك غناء

ثم تلا القصيدة التي اعتذر بها المعتمد لوالده المعتضد عن
تقصيره في الهجوم على مالقة ، ولم يكد يتم تلاوتها حتى رفع
رواق الخيمة القريبة منه ، وكان قد آوى إليها رجل وسيم

ضخم تدل سيما فضله على أنه سيد أهله ، وخاطب الاشبيلي
قائلا : « يا حضري ، حياك الله ، لمن هذا الكلام الذي اعذوذب
مورده واخضوضل منبته ، وتحلت بقلادة الحلاوة بكثرة ،
وهدر بشقشقة الجزالة بكثرة ؟ » .

فقال الاشبيلي : « هذا الشعر لملك من ملوك الأندلس
يعرف بابن عباد » .

فقال العربي : « أظن أن هذا الملك لم يكن له من الملك الا
حظ يسير ونصيب حقير ، فمثل هذا الشعر لا يقوله من يشغل
بشيء دونه » .

فأجابه الاشبيلي : « لقد كان ملكا عظيم الرياسة ، جليل
الشان » .

فتعجب العربي من ذلك ، ثم قال : « وممن الملك ان كنت
تعلم ؟ » .

فأجاب الاشبيلي : « هو في الصميم من لخم ، والذؤابة من
يعرب » .

فصرخ العربي صرخة أيقظ بها الحى من هجعتة وقال :
« هلموا هلموا ! » . فتبادر القوم اليه ، ينثالون عليه ، فقال :
« معشر قومي ، اسمعوا ما سمعته ، وعوا ما وعيته ، فانه لفخر
طلبكم ، وشرف تلاحق بكم ، يا حضري أنشد كلمة ابن عمنا » .
فأنشدهم الاشبيلي القصيدتين ، وعرفهم العربي بما عرفه
الرجل من نسب المعتمد ، فخامرتهم السراء ، وداخلتهم العزة ،
وركبوا من طربهم متون الخيل ، وجعلوا يتلاعبون عليها باقى

الليل ، فلما شق الصباح أو كاد أديمه عمد زعيم القوم الى
عشرين من الابل فدفعها الى الرجل ، وفعل الجميع مثلما فعل ،
فما كان رأد الضحى الاّ وعنده هنيذة ^(١) من الابل ، ثم خلطوه
بأنفسهم ، وجعلوه مقر سرورهم وتأنسهم .

وقد ختم المؤرخ الكبير دوزى كلامه عن المعتمد في كتابه
الرائع « اسبانيا الاسلامية » بقوله ^(٢) : « لا يمكن بحال أن
يذكر المعتمد في عداد الحكام العظماء ، ولقد كان ملكا على قوم
أفسدهم الترف ، ولذلك كان من الصعب عليه أن يكون عظيما
حتى لو لم يقصر به عن بلوغ هذه المرتبة ما فطر عليه من ميل
الى الدعة والاخلاد الى الراحة ، وهو آفة أصحاب المزاج الفنى
ومصدر سرورهم في الوقت نفسه ، ومن المؤكد أنه لم يتح لملك
غيره ما أتيح له من رهافة الحس وشاعرية النفس ، ولقد كانت
آفته الحوادث العارضة التي تمر به في حياته سرعان ما ترتدى
الثوب الشعري ، ويمكن أن تصاغ ترجمة حياته أو على أى
حال حياته الفكرية من أشعاره ، فهي فيض قلبه الخالص الذي
تنعكس فيه مسراته وأحزانه التي كان يعيشها اشراق الشمس
الضاحية أو يثيرها تراكم الغيوم ، وفضلا عن ذلك كان من
حسن حظه أن يكون آخر ملك أندلسى النجار مثل بجدارة بل
بلسمان وازدهار ثقافة تهاوت من عليائها أو قدر لها مجرد البقاء
تحت حكم البربر الغزاة ، ولقد ظلت ذكراه أثيرة في النفوس

(١) الهنيذة اسم للمائة من الابل .

(٢) صفحة ٧٣٦ من كتاب اسبانيا الاسلامية لدوزى .

باعتباره آخر فرع في دوحة أسرة الملوك الشعراء الذين حكموا
الأندلس ، ولقد بكاه الناس ورثوه أكثر مما رثوا غيره ، بل
لعلهم في غمرة حزنهم عليه لم يذكروا سواه ، وكان لحزنهم عليه
رقة الأسى الذى يخالج النفوس وهى تشهد آخر ازدهار
الورود وختام أيام الخريف المولّى وآخر شعاع من أشعة
الشمس الغاربة .

. وإذا كان للمعتمد أخطاء في سياسته وعيوب في خلقه
وشخصيته فإن له الى جانب ذلك من المواقف المشرفة والصنائع
الجميلة والصفات الانسانية الحميدة ما يستوجب التقدير ،
ويستحق الاعجاب ، وكان له من الكرم والشجاعة والأريحية
وسمو الثقافة وعلو طبقة الشاعرية ما يرجح به غيره من الناس
سواء كانوا ملوكا متوجين أو سوقة مغبورين أو شعراء أو
علماء أو قادة معدودين ، والآلام المبرحة التى عاناها في سنواته
الأخيرة الجالكة وصير لها صبر الأيالة الكرام ، تكفر عما احتقب
من ذنوب ، وتعتذر عما تورط فيه من أخطاء ، وستظل أخبار
المعتمد وصفاته ومعارض حياته ومأساته تستهوى الباحثين
والمؤرخين ، كما ستظل أشعاره تجتذب أنظار الأدباء الدارسين
والنقاد والشعراء وسائر غواة الأدب المحض والثقافة الحقة ،
وربما كان لقول أبى محمد بن غانم السابقي ذكره في المعتمد
وقومه أثر من الضيق وتفحة من الحق وهو :

ومن الغريب غروب شمس في الثرى
وضيائها باق على الآفاق

المراجع

(أ) المراجع القديمة :

- ١ - نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقرئ .
(تحقيق الأستاذ محمد محيى الدين عبد الحميد)
- ٢ - وفيات الأعيان لابن خلكان .
(تحقيق الأستاذ محمد محيى الدين عبد الحميد)
- ٣ - المعجب فى تلخيص أخبار المغرب للمراكشى .
(ضبط وتصحيح الأستاذين محمد سعيد العريان ومحمد العربى العلمى)
- ٤ - البيان المغرب فى أخبار المغرب لابن غدارى المراكشى .
- ٥ - قلائد العقيان للفتح بن خاقان .
(طبع مطبعة التقدم العلمية سنة ١٣٢٠ هجرية)
- ٦ - المطرب من أشعار أهل المغرب لابن دحية .
- ٧ - الذخيرة لابن بسام .
- ٨ - صفة جزيرة الأندلس المنتخبة من كتاب الروض المعطار فى أخبار الأقطار للحميرى .
- ٩ - الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية .
- ١٠ - مذكرات الأمير عبد الله الزيرى المسماة بكتاب « التبيان » .
- ١١ - الكامل لابن الأثير .
- ١٢ - مطمح الأنفس للفتح بن خاقان . (طبع مطبعة السعادة)
- ١٣ - ديوان المعتمد بن عباد ملك اشبيلية جمعه وحققه الأستاذان أحمد أحمد بدوى وحامد عبد المجيد .
- ١٤ - تاريخ بنى عباد (Historia Abbadidarum) .

(ب) المراجع الحديثة :

- ١ - تراجم اسلامية شرقية واندلسية . للأستاذ عبد الله عنان
- ٢ - الدولة العامرية وسقوط الخلافة الأموية .
لأستاذ عبد الله عنان
- ٣ - تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين الجزء الأول
ليوسف أشباح وترجمة الأستاذ عبد الله عنان .
- ٤ - الجغرافية التاريخية للإسلامة للأستاذ محمد أحمد حسونة .

- ٥ - ملوك الطوائف ونظرات في تاريخ الاسلام ترجمة الأستاذ كامل كيلانى .
 - ٦ - قيام دولة المرابطين للدكتور حسن أحمد محمود .
 - ٧ - بلاى وميلاد أشتريش وقيام حركة المقاومة النصرانية في شمال اسبانيا للدكتور حسين مؤنس .
 - ٨ - شاعر ملك (قصة المعتمد بن عباد الأندلسى) .
للأستاذ على الجارم
 - ٩ - ابن عمار للأستاذ ثروت أباطة .
 - ١٠ - الأدب الأندلسى من الفتح الى سقوط الخلافة .
للدكتور أحمد هيكمل
 - ١١ - المعتمد بن عباد .
للدكتور عبد الوهاب عزام
 - ١٢ - المجمل في تاريخ الأندلس .
للأستاذ عبد الحميد العبادى
 - ١٣ - منصور الأندلس .
لعللى أدهم
 - ١٤ - تاريخ أوربا في العصور الوسطى لفيشر وترجمة الأستاذين محمد مصطفى زيادة والسيد الباز العرينى
 - ١٥ - قصة الحضارة لول ديورانت وترجمة الأستاذ محمد بدران .
 - ١٦ - تاريخ العالم (نشرة بالانجليزية السير جون . ا . هامرتن وتشرف على ترجمته ادارة الثقافة وظهر منه حتى اليوم أربعة مجلدات) .
 - ١٧ - تاريخ الفكر الأندلسى تأليف آنخل حينثالث بالثيا وترجمة الدكتور حسين مؤنس .
 - ١٨ - تراث الاسلام الجزء الأول والثانى .
 - ١٩ - دائرة المعارف الاسلامية .
 - ٢٠ - دائرة معارف الشعب .
- (ح) مراجع باللغة الانجليزية :

- (1) Spanish Islam. By Reinhart Dozy.
(Translated by Francis Griffin Stokes).
- (2) The Moorish Empire in Spain. By Scott.
- (3) The Moors in Spain. By S. Lane Poole.
- (4) The Civilization of Spain. By J. B. Trend.
- (5) The History of Spain and Portugal.
By William C. Atkinson.
- (6) History of Civilization in England.
By Henry Thomas Buckle.

فهرس

صفحة

٥	مقدمة
١٩	سقوط الخلافة الأموية الأندلسية
٣٧	نشأة الأسرة العبادية
٥٧	عهد المعتضد بالله
٩٤	المعتمد على الله وابن عمار
١١٣	المعتمد بين شعراء بلاطه وجواري قصره
١٣٦	الاستيلاء على قرطبة
١٥١	مصرع ابن عمار
١٧٩	حركة الاسترداد الاسبانية
٢٠٣	وقعة الزلاقة
٢٤٩	خاتمة ملوك الطوائف
٢٨٥	المعتمد في طريقه الى المنفى
٢٩٢	المعتمد في المنفى
٣٢٧	وفاة المعتمد

أعلام العرب

مكتبة الثقافة الحية التي تساهم في اشتراكية الثقافة
بقروش زهيدة — تصدر شهرية عن إدارة الثقافة بوزارة
الثقافة والإرشاد القومي — للتعريف بنوابع المفكرين
من أعلام العرب . . .

وتطلب من :

- ١ - مكتبة مصر ٣ شارع كامل صدقي
- ٢ - مكاتب شركة توزيع الأخبار بالقطر المصري
- ٣ - وكلاء الشركة القومية في جميع البلاد العربية
- ٤ - مكتبة المثني بغداد